N O U R A   A L - S A A D



نورة آل سعد

العريفة





نورة آل سعد

العريضة



العريضة

العريضة / رواية عربيّة
نورة آل سعد / مؤلّفة من قطر
الطبعة الأولى ، 2010



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيبي ®
لوحة الغلاف : **سلمان الملك / قطر**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت، لبنان**

ISBN 978-9953-36-123-1

الجزء الأول

تكاذيب

دق الهوا على الباب
قلنا حبايبنا
قمنا فتحنا الباب والشوق ذوبنا
تاري الهوى كذاب
قصدو يلاعبنا

فيروز

استيقظ بعض عائشة . بعضها الآخر لم يزل نائماً منذ أكثر من عشرين سنة مضت . حملت نفسها حملاً على النهوض من سريرها . لم يمض على وجودهم في بيروت أربع وعشرون ساعة وهي تشعر تواً بالسأم . بيروت هي بيروت بالنسبة إليها ولو غادروا إلى الجبل لما تغير مزاج عائشة . سوّت زينتها على عجل ، وتجرعت شيئاً من الشراب الساخن ، واختطفت حقيبتها من الكنبة ، ومضت إلى حيث ينتظرها (الشوفير) بتلك (البرنيطة) المضحكة التي اعتاد سائقو بيروت أن يعتمروها من باب التظرف - فيما تحسب عائشة - التي اعتادت البساطة ، ولم يتغير ذلك في داخلها البتة برغم بذلتها الكشميري و(إيشاربها) الحريري وتلك الحقيبة من الجلد الطبيعي ؛ آخر صيحة في هارودز .

تحسست عائشة البطاقة وهي تتلمس نظارتها الشمسية ، وأدركت ما هي فوراً ، إنها عنوان الطبيب النفساني الذي تحتفظ به منذ شهور في مخبأ داخلي للحقيبة . لم تكن تفكر بزيارته حقاً . لن تزوره حتماً . ولكنها تحتفظ بالعنوان لمجرد التعلق بإمكانية حدوث ذلك (ولكنه لن يحدث) .

عندما وصلوا بيروت البارحة كانت مرهقة ولم تهتم بتفقد

الشقة ولم تسل أم جوزيف عن شيء بل صرفتها سريعاً قبل أن تبدأ ديباجتها المعتادة. وعندما رن الهاتف اختطف زوجها (بو سالم) السماعة من يد الخادمة الصغيرة، وانصرف بالهاتف إلى الداخل (من يدري بأنهم وصلوا إلى بيروت ؟)

لقد جاءا بصحبة ابنهما أحمد لتسجيله في الجامعة الأمريكية في بيروت. منذ أن شهدت الدوحة ما سمي بالحركة التصحيحية(*) منذ سنوات، أمضت عائشة الوقت وهي تراقب زوجها يسهر ويغيب عن البيت، ويذهل عن كل شؤون أسرته، ولكنه أصر بعد تردد أن يرافقا أحمد إلى بيروت في هذه الرحلة المفاجئة، لكي يطمئن على ترتيب أموره في الجامعة! (ماذا هناك لكي يتم ترتيبه ؟) لا تعلم عائشة كيف يفكر (بوسالم) المدعاسي، ولكنها توقن بأنه يعرف ما يفعله ويعرف أموراً كثيرة لا تعرفها .

كان (بوسالم) غائب الذهن طوال الوقت. لم تسله عائشة عما يشغله. تعرف متى تبتعد وتترك له مساحة أوسع، تستغلها لصالح توسيع مساحتها. ذلك هو الاتفاق الضمني والمقايضة التي تمت بينهما منذ سنوات: هو له حياته وهي لها شؤونها. لم يذكر لها (بوسالم) شيئاً، ولكن ابنها أحمد قال لها البارحة بأنه يريد أن يتزوج! واليوم هما في بيروت «لترتيب أمور الولد في بيروت» وتسجيله في الجامعة التي درس فيها والده.

(*) تقلد الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني الحكم في قطر في عام ١٩٧٢ إثر حركة انقلاب على ابن عمه.

اتفقت مع أحمد أن تلتقطه ظهراً من الجامعة ويتغديا معاً ويتحدثا في «موضوعه»! كانت في الحقيقة تنفذ أمراً صريحاً من (بوسالم)، يجب أن تتابع الأمور بنفسها وتتصل لاحقاً بالملحق التعليمي (دون علم أحمد)، لكي تستوثق من إتمام جميع الإجراءات. تعلم عائشة مدى حذر (بوسالم) ومراقبته لتحركاتهم جميعاً، لذلك فهي حريصة على تنفيذ أوامره.

بيروت جميلة في هذا الوقت من السنة! بيروت هادئة وساكنة، مكتوية بنار جمالها، تحت حمم اضطرابها القادم[1]، شأنها شأن عائشة نفسها! بيروت امرأة ناضج كتوم ترمق العالم من علٍ، باستهزاء عارفةٍ مسنة، وبلامبالاة متأملٍ لا تهمه الا النهايات المعقودة بانتصارات فلسفية عامة. عندما اقتربت السيارة من شارع الجامعة كانت هناك بعض الحواجز دونها. سألت عائشة السائق: ما الأمر؟ ما تلك الحواجز؟

- لا أدري يا ست يمكن فيه حادث والا وقعة بين زعران!

يريد ابنها أحمد أن يكسب تضامنها معه لكي تقف في صفه، ولا يدري بأنها أكثر حرصاً على إنفاذ أوامر أبيه وقراراته! إنها تراقبه كما يحرص ذلك السائق - بدوره - على مراقبتها، ويقدم تقريراً لـ(بو سالم). توقن عائشة بذلك وتعتاده وتعيشه كأي أمر آخر مسلّم به يحدث في الحياة. تدرك بأن أبناءها أنفسهم يراقبونها بعيون الأب وباسمه، وعللت لنفسها بأن (بو سالم) لا يريد إلا

---

(١) اندلعت الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٥.

مـصلحـتـهـم ؛ هو يقـرر كل شي لأنه يعلم الأصلح للأسـرة . هو يكفيهم جميعاً مشقة التفكير والتدبير ؛ فهو تقريباً يصنع المستقبل وهو قـادر على إسـعـادهم وعلى إرضـائهـا . ألـم يجـعـل النسـاء يحسـدنها؟ ألـم يمنحـها كل مـا تريده أي امـراة؟ أي زواج يفكـر فيـه أحمـد وهو يأخـذ مصروفاً من والده ؟ ولماذا لا يكمل دراسته ؟ ما الداعي للتعجل ؟

اضطرت السيارة للتوقف على مقربة من شارع الجامعة . عرض عليها الشوفير أن يترجل ويتحرى الأمر ، لكن إشارات غاضبة من بعيد أمرته بالتحرك ، وسرعان ما اقترب دركي منهما قائلاً :

- حرك ليش موقّف هون؟ حرك يا . .

وتحرك السائق بعد أن تبادل نظرة سريعة مع عائشة .

قال لها وهو ينظر في المرآة العاكسة لصورتها :

- مدام! ما بحسن أقرب أكثر! ولما لم تجب أردف :

- على وين يا ست ؟

كان المكان هادئاً في الحقيقة! وهناك بعض الشباب فحسب يركض خارجاً من الحرم الجامعي ، وفيما عدا ذلك الحاجز اللعين لم يكن هناك ثمة ما يريب .

قال لها الشوفير :

خلينا نلف ونرجع من غير مكان يا ست ؟

جف حلقها . قالت عائشة بضيق :

- طيب لف!

ثم صـاحـت به فـجـأة : والا اقـول لـك وقف هنا . . أنا بانزل .

أكيد ان أحمد قريب أو ينتظرنا! لا تتحرك من مكانك!

عندما استشعرت قلق السائق ، كادت أن تعدل عن قرارها لولا أن السائق عاجلها بقوله :

- عافاك يا أم أحمد! أخت رجال!

وبالرغم من أنها أحست بتصنعه وزيف نبرته ، لكنها غذت الخطى صوب البوابة المشرعة كفوهة وحش أسطوري مستخف وراء غلالة الشمس البيروتية المرائية .

هل استحيت أن تتراجع ؟ هل خشيت على أحمد ؟ سارت دون أن تتلفت وراءها ، أحست بعيون ترمقها من بعيد ، وعندما صاح أحد الدرك في رفيقه توجست شراً فحثت الخطى لتدخل الحرم الجامعي لعلها تجد أحمد . . وبعض أسباب الأمن! اجتازت الأمتار القليلة بخفة وسرعة وجلٍ عازم أن يتحرر من رعبه بأن يحسم أمره! وما إن دخلت حتى وجدت نفسها بين جموع مضطربة من الطلبة حولها!

لماذا استسلمت عائشة لخداع بيروت! ها هي ذي عالقة لا تستطيع المضي ولا يمكنها العودة! تمثلت صورة (بو سالم) أمامها فوراً! ماذ سيقول بوسالم ؟ كيف ستبرر له ما حصل ؟ كان لابد لعائشة أن تلحق بالشباب أمامها ؛ لأن أصواتاً غاضبة انطلقت من خلفها .اختلطت الآن بالجمع وصاروا كتلة متحركة وهي في وسطهم ضائعة ومختطفة! وفي أقرب منعطف انزلقت وخرجت من تلك الكتلة والتصقت بالجدار وتركتهم يمضون .

لطت في مكانها وانزوت بهدوء . هذا ما كانت تفعله طوال

حياتها : تنزوي حتى يزول الخطر وتنقشع السحب السود . لم تكن قادرة على احتمال ذلك القدر من الخوف دفعة واحدة وبصورة مباغتة ، فلم يسعها إلا أن تقبع في مخبأها ، وأن تعتقد بأنها غير مرئية ؛ إذ لم يعد بإمكانها أن تعود أدراجها! مرقت وجوه بدت لامبالية ، لم تلتفت إليها ولم تلحظها ؛ وجوه لم تحمل ملامح خوف كخوفها! إنهم شباب! في ريعان الشباب! وأحست عائشة ، التي لم تتجاوز الثلاثين بكثير ، بأنها طاعنة في السن وذاوية كالجذع الذي تتوارى خلفه! أحست بأنها على الجانب الآخر من الحياة!

بعد مرور جمع من الطلبة ، انكشفت الساحة أمامها ، لمحت عائشة ما أجفلها! تفرست في الرجل الذي لم يكن يبعد عنها سوى بضع خطوات فكان هو صالح بن أحمد!

حرصت على ألا يراها ولكنها لم تستطع أن تلوذ بأي مكان آخر . لم تستطع إلا أن تشيح عنه وتستدير نحو الجهة الأخرى وتغمض عينيها كما يفعل الأطفال! وللحظة شعرت بالخجل من نفسها ، استدارت لتسترق إليه نظرة أخرى فإذا هو ينظر باتجاهها ويشير بسبابته نحوها!! جمد الدم في عروقها! لم تتحرك ولم تصدر نأمة! بينما واصل صالح كلامه مخاطباً من حوله وكأنه لم يرها أو كأنها لم تكن تعنيه .

هو صالح بن أحمد ، بلحمه وشحمه ، لم تتغير ملامحه كثيراً بل لم يتغير أبداً ، وخطت بضع شعيرات بيض صدغيه مبكراً وامتلأ جسمه قليلاً . كان يلبس بنطالاً أسود وقميصاً أبيض ، ويتحدث كما كان يتحدث من عشرين سنة خلت ، يطوح بيديه

معاً في الهواء كأنه يستدعي الأزمنة الماضية وأرواح العظماء ، كأنه ينزل حبالا ويستخرج أهوالاً من القاع!

ولكنه لم يتغير وكأنه صالح الأمس الذي يقف على سيف المرقاب ، مكوّراً غترته ينظر إليها بعين مغمضة وأخرى صامدة بإزاء الشمس ، وهي تروح وتغدو في براحة الحي تلهو مع صويحباتها . لم يبرح قط مخيلتها من ليل أو نهار ، تعلقت به كما يتعلق المجذوب بليلاه - كما يقول البيروتيون - ومهما تباطأت أخباره فقد لاحقتها من بعيد وأدركت أهمها . تعلم بأنه واصل دراسته بصعوبة ولم يتزوج إلا متاخراً ، فقد كانت حياته مضطربة ، وكان قيد المراقبة والتضييق لسنوات وسنوات . عنده الآن أبناء ثلاثة وبنت وحيدة سماها وسميّة! (كان يدعوها بذلك الاسم في قصائده إليها! فهل سمى ابنته وسمية إحياءً لذكراها أم تكريماً لحب مضى ؟) لم يبرح صالح مخيلتها لكي تتعلل بنسيانه أو تدعي بأنها لم تتعرف عليه فورا .

وهو الآن ماثل أمامها ، ينز عرقاً من جبهته التي نفرت عروقها كعروق ذاكرتها ، التي راحت تستعيد أحداثاً وقعت في الدوحة في الستينيات .

كانت عائشة قدرية! وهكذا رأت الوضع الذي هي عليه ؛ لقد اختيرت من قبل القدر لتعيش دورها ومن جانبها ، فقد التزمت بذلك الدور ولم تتنصل من أعبائه! هناك من يتهرب ويماطل ويجابه قدره بمزيد من التسويف والتنصل والمناورات والحيل النفسية ، أما هي فقد قبلت كل شيء تأتي به الأيام ، على شريطة أن تكون لها

الكلمة الأخيرة في تفسيره! وبذلك أصبحت عائشة على صورة (جان دارك معكوسة)، شهيدة غير مرئية كما هي الآن، تتجاذبها حركة المجموع وكأنها قشة تطفو على سطح حياة الآخرين، وليس بإمكانها أن تتحرر مما حولها أو تنفصل عنها إلا ذهنيا لكي تراقبه وتدمغه بتفسيرها الخاص .. الصامت.

يسميها البعض حكمة الحياة، وترى عائشة بأن الحياة مقدورة ومرتبة تماما ومصنفة، والناس مسيّرون بلا إرادة ليقوموا بأدوار محددة يساقون اليها سوقاً! أن تحب هذا لا ذاك! أن تقع في هذه الخانة لا تلك! أن يحصل ذلك الأمر ويفشل غيره! أن تستمر الحياة بذلك التدبير المحكم، وأن ينصاع الناس شاؤوا أم أبوا معناها؛ أنهم خلقوا لأدوار محددة منذ البدء!

عندما انساحت وسط ذلك الجمع المضطرب كانت على موعد مع قدرها، وعندما علقت في الوسط بلا أدنى قدرة على المضي ولا العودة استسلمت فوراً؛ لأنها أدركت بأن تلك هي حياتها؛ يتعين عليها أن توجد في وسط أمر مقدور ومحتم، وعليها أن تساير الأحداث وترتضي العواقب، وذلك هو نوع (البطولة) الذي كتب على بعض الأشخاص أن يقبلوا به ويتحملوا تبعاته، وكأنه اختيار أقدموا عليه . أمثال عائشة لا يقدرون البطولة الارتجالية، حيث يبادر المرء بصنع مصيره بيده، بل يعتقدون بأن الأقدار تصنع مصيرهم وحدود بطولتهم، وقد تقرر فشلهم وتفرض إخفاقهم . قد تكون «البطولة» في نظر عائشة أن تبلغ مرتبة البطلات في روايات محمد عبد الحليم عبد الله، وعلي أحمد باكثير، وعبدالحميد

جودة السحار ؛ إنها مرتبة بطولة التضحية واحتضان الألم ، بطولة قبول التعويض الذي تقدمه الحياة مقابل الانصياع ، بشرف وإباء ، للتنازل عن مواجهة الأقدار ومقارعتها . إنها مرتبة التسامي فوق إذلال الواقع بقبوله وتجرع تبعاته من الإهمال والظلم والمهانة .

عندما نزلت عائشة من السيارة ، واندفعت إلى ساحة مخوفة بلا هدف تقريبا ، لم تكن حينئذ خائفة على أحمد أو حتى قلقة عليه ، بل كانت مدفوعة إلى مسايرة القدر الذي أتى بها إلى بيروت ، وإلى ذلك الشارع ، وإلى ذلك الحدث الذي لا تكترث به ولا بأسبابه . وعندما اندست وسط ذلك الجمع لم تتماه به للحظة ، ولم تشعر بما يحدث حولها ؛ ليس لأنها لا تفهمه فحسب ، بل لأنها ليست جزءاً منه ولا ينبغي لها أن تكون كذلك . وعندما تفرق الشباب في داخل الحرم الجامعي الواسع ، وقفت تنتظر ما يدفعها إلى الحركة مجدداً وبالاتجاه المقدور ؛ لانها لا تعرف ماذا عليها أن تفعل بعد! كل ما يجري من حولها ، أمر عابر وطارىء على حياتها! وسوف ينتهي! «سينتهي» ، هكذا رددت لنفسها! في حين انفصلت عنه تماما وعادت أعقابها إلى المرقاب منذ أكثر من عشرين سنة! وفي غمرة انفعالاتها ، وللوهلة الأولى ، شعرت بأنها في مكان آخر! صالح هو صالح ، وهي كانت من كانته آنذاك ، وكل تلك الضجة كانت ضوضاء الزمن البعيد :

كانت تسير مع بنات عمها في زقاق ضيق ، ورأت سيارة جيب ورجالاً محزّمين ، ومن الخلف سدت الطريق مطايا عليها رجال متجمهون ، وكانت (حلوّم) تصرخ عليهن من الخلف أن يعدن وأن

يدخلن بيوتهن! لا تذكر عائشة إلا صوتها الغليظ وزعيقها الأعمى!

وعندما وصلت البيت ركضاً، أوصدت أمها باب البيت ونهرت عائشة والبنات الهلعات، فدخلت وهي تسمع كلمات وهمساً متقطعاً (إضراب . . مظاهرات)!

كان ثمة حشد[1] في شوارع الدوحة يلوح بالأعلام المصرية، وارتفعت شعارات مؤيدة لمصر ومندّدة ببريطانيا، وسرعان ما تحولت المظاهرة إلى هجوم على دار المعتمد البريطاني، وفشلت السلطات المحلية في احتوائها، لكن (فداوية)[2] الحاكم فرقت المتظاهرين.

اندلعت مظاهرات في الدوحة خلال الأيام العشرة التي أعقبت التدخل العسكري البريطاني في السويس، في موجة غليان عمت البلاد. وثار سخط الناس بسبب العدوان الثلاثي على مصر، وأغلق التجار متاجرهم في السوق الشرقية في الدوحة، وقام المتظاهرون بتخريب أنابيب النفط الواقعة على بعد ١١ ميلا شرق (أم باب)، وعند الظهر امتد الإضراب ليشمل عمال الصناعات والحرفيين وعمال بعض الشركات، وشملت المظاهرات طلاب المدارس في الدوحة.

وفي الثاني من نوفمبر عام ١٩٥٦ تظاهرت الدوحة كلها، وخرجت المظاهرات من كل المناطق، واجتاحت السوق واتجهت مرة أخرى نحو دار المعتمد البريطاني، وصد (الفداوية) المظاهرات

---

(١) في أغسطس من عام ١٩٥٦.

(٢) فداوية : الحرس الخاص.

فتحولت إلى الضواحي الشرقية ثم عادت بعد ساعتين .

سرت شائعات بأن العمال يخططون لضرب محطة تزويد القوة الكهربائية في (مسيعيد) ، وأرسلت فرقة فداوية وضباط إنجليز لمنع أي محاولة تخريبية ، وفي ظهر اليوم نفسه ، وبعد إعلان سقوط غزة ، احتشد الفلسطينيون وسط الدوحة يهتفون ويتظاهرون ، بالرغم من محاولة السلطات المحلية لتفريقهم .

واستمرت الاضرابات العمالية إلى الثالث من نوفمبر وعمت أنحاء قطر ، وخرج متطوعون إلى القتال دفاعا عن مصر من المتطوعين الفلسطينيين والقطريين ، وبعد ذلك بسنوات تفجرت أحداث ابريل ١٩٦٣[١] .

---

* في ١٧ ابريل ١٩٦٣ انطلقت المظاهرات تؤيد إعلان الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق ، واشترك اليمنيون المقيمون في الدوحة في المظاهرات مطالبين حكومة عبد الله السلال الاشتراك في الوحدة ، بعد أن وجهت مصر الدعوة إلى اليمن والجزائر للانضمام . اعترض ابن اخ الحاكم المتظاهرين بسيارته ، وبعد نقاش حاد معهم أطلق النار عليهم ، وأدى إلى مقتل أحد المتظاهرين . بعدها تداعت القوى التجارية والعمالية والقبلية إلى الاجتماع والتظاهر ، والإعلان عن تشكيل جبهة الاتحاد الوطني ، التي ضمت عناصر قبلية وتجارية وعمالية وسائقي العربات تحت زعامة قطبين هما ناصر المسند ، وحمد العطية . قامت الجبهة بتنظيم مسيرة الوحدة الوطنية ودعت إلى الاضراب العام لمدة أسبوعين ، ثم أصدرت الجبهة بيانا عاما حددت فيه مطالب العامة لكل فئات الشعب . المصدر : أطروحة الدكتوراة لموزة الجابر .

على مدى سنوات عديدة تخيلت عائشة لحظة التقائهما (وقد حرما لقاء الوداع أو الاستيضاح)، وافترقا على حلم لم يكن حلمهما فقط! فقد كان حلم صالح بن أحمد يسع أهل قطر جميعاً! في كل ذكرى ولقاء وكتاب كان صالح يدخلها عالماً من الشراكات أوسع فأوسع، كلما حكى لها أمراً أو تلا عليها رسالة صديق؛ أو أخبرها بما يجري في العالم الكبير، كانت عائشة توقن بأن العالم في الخارج على وشك أن يتغير، وأن هناك من يدعوها ويناديها باسمها، ويخلي لها مكانا لتنظر وتتعلم وتعيش. وفجأة اختفى صالح وحلمه.. واختفى العالم.

أصبحت عائشة زوجة جابر بن سالم، وانتقلت إلى الضفة الأخرى من الحياة، صارت تجلس في مجالس تتحدث بالسوء عن صالح وأصحابه، وصار عليها أن تستمع لنسخة أخرى مما حدث، نسخة تحكي قصة مضادة لما حدث في إبريل عام ١٩٦٣؛ يوم (الفتنة) وإخمادها!

أصبحت عائشة تصغي فقط ولا تملك إلا أن تتصنع اللامبالاة؛ لأنه لا رأي لها في كل ما يجري لها وما يجري حولها.

في تلك الأيام الأولى كانت مستغرقة في عذابها أكثر من انصرافها إلى التفكير في إنشاء فلسفتها الخاصة، أما كيف تحولت علاقتها الشبحية من وهم إلى حقيقة منطقية فقد اكتسبت الفكرة بمرور الوقت استقلالاً عن صاحبتها، وبصورة مبهمة أصبحت عائشة أقل شكا في مسلمات تحكم حياتها بقبضة من حديد.

عندما غادرت عائشة المرقاب ورحلت مع زوجها إلى لندن،

إلى ذلك العالم الغربي الكولونيالي، الذي أخبرها صالح بأنه (يحمل بذور فنائه بداخله)، وجدته عالماً رأسمالياً منظماً وقوياً، وأصبحت بمرور الوقت تغربل ذكرياتها مع صالح وتنخلها وتصفيها، فلم يتبق من صالح في خيالها في نهاية المطاف، إلا عنفوان الحب الأول! وجملة من الذكريات الحقيقية والمصطنعة في أحلام يقظتها في حياة لم تعشها بالفعل.. ولن تفعل.

تلاحقت بعدها أحداث حياتها، متقطعة، وغامضة وغير مفهومة، ودفنتها عائشة جميعاً، ردمت كل شيء بعناية تحت ركام حياتها الجديدة، بعثرت تلك الأحداث وخلطتها فجعلت منها قطعا صغيرة متكثرة كقطع buzzles! بلا أولوية ولا ترتيب ولا معنى لاحق!

بعد سجن صالح وكثير من رفاقه، تكرر مرور الهجّانة، وجاءت خيّالة أيضا تتجول بين الطرقات وفي الأسواق، وامتنع كثير من الناس عن الخروج لأيام. كانت عائشة تسمع أطرافاً من أحاديث وأخبار مقطوعة النهايات تختتم (يا ستار! الله يكفينا الشر!) ولكن أي شر؟ وما هو الشر؟ وما الخير؟

لم يعرف أحد قط ما عانته عائشة في تلك الفترة! انهارت مريضة! قالت أمها (اختلفت[1] البنت)، وصارت تربط قدم عائشة بقدمها لكيلا تنتبه من نومها عندما (يسري ساريها[2]) وتخرج من

---

(١) اختلفت: جنت.

(٢) سرى ساريه: السرى السير ليلا.

البيت من دون علم أهلها ، وهي لا تدري بنفسها! ولعدة ليال أخذت عائشة تهذي وتصرخ في نومها وتتبول في فراشها ، ومضت بها أمها سرا تحت جنح أحد الأماسي إلى بيوت متطرفة[1] من الحي ، حيث يقرأون القرآن تارة ، ويتلون تمتمات غير واضحة تارةً أخرى . لم تناقش الأم الأمر مع زوجها ، حسمته بأن (البنت معيونة[2]) ، والعائن امرأة حقود فزّ قلبها لرؤية عائشة ولم تصل على النبي . أخبرت زوجها بما طلب منها ؛ لا يسعهم إلا أن يذبحوا ديكاً دون تسمية الرحمن عليه! ويلطخوا بدمه كل شق وغار في بيتهم القديم! وتردد أبوها وتعوذ من الشرك ، ولكن لما تردّت حالة عائشة استغفر ربه وقام حزة[3] المغرب ونحر الديك ، دون أن يسمي الله ، واصطبغ البيت برشقات من دم الديك الذي رمي خارجا بعيداً وكأنه خنزير منتن . ثم جاء «الفرج» لأهلها لما خطبت عائشة ذات ليلة لجابر بن سالم المدعاسي!

عندما كتب في اللوح أن تلتقي عائشة بصالح بن أحمد في ساحة مفتوحة ، وجهاً لوجه ، ولكن دون تماس أو كلام ، كان الأمر مفاجئاً وسريعاً ، بقدر ما بدا خالياً من كل معنى ومغزى! وبعدها بلحظات رأت عائشة مجموعة من الطلبة تتقدم في حركة معاكسة صوب بوابة الجامعة ، وارتقى أحدهم منكب زميلين له ، وأخذت

---

(١) متطرفة : تقع على الأطراف .

(٢) معيونة : مصابة بعين .

(٣) حزة : وقت .

المجموعة تردد وراءه هتافات وشعارات وجملاً مقفاة . لقد حيل بينها وبين رؤية صالح! ولم تتبين حقا بم كانوا يهتفون ؛ بل سببت لها تلك الأصوات طنيناً في أذنيها ، لازمها أسبوعاً بعدها!

مشت عائشة صوب بوابة الخروج كالتائهة على غير هدى! هل رآها صالح ؟ ما كان أقربها منه! وقد نظر إلى ناحيتها! ألم يتعرف عليها ؟ هل تغيرت إلى هذا الحد ؟ هل كان مستغرقاً في الحديث حتى إنه لم يمنحها نصف نظرة ؟ لقد وقفت عائشة شبه جامدة ، وكان بإمكانه أن يستدرك ويلتفت إليها على سبيل الاستطلاع والشك .

كيف لم يلحظها ؟ لم تكن تبدو كطالبة بالتأكيد ، وليست في عمر الطالبات ولا في هيئتهن! ألم يلحظ امرأة ثلاثينية تلتفع إيشارباً وتلبس بأناقة زائدة ؟ حقاً لا يمكن أن تخطئها عين! لأنها كانت نشازاً في المشهد الكلي لشغب طلابي يندلع في الجامعة الأميريكية ببيروت!

كانت عائشة ضعيفة ومرتعبة ، حتى إنها لما رأت صالحاً تعلقت برؤية شخص تعرفه في وسط زحام غريب لا تعرف فيه احداً وقد نسيت في الحقيقة أحمد! نسيت ابنها! ولم تعد تذكر إلا صالحاً ابن المرقاب!

في ذلك المكان لم يكن هناك حقا سواها ، وسوى صالح بن أحمد ، وذكريات سنوات من عمرها استولت على كل مشاعرها ، لكن الشخص الذي كادت تطلب نجدته لم يتعرف عليها!

لم يكن صالح قصة حب منقضية بعد! كان ناراً شبت في

وجدانها ، منذ أدخلها صالح إلى وعي آخر ، وعي جديد ومضاد لكل ما كانت عليه الأحوال في المرقاب بل في الزمن نفسه! لقد استحوذ على روعها ، سحر المعرفة واكتشاف العالم خارج سور الأحياء المعتمة ، وموات الإرادة ، وتعاقب الحياة والموت وراء (السيف) ، حيث تطلع الشمس وتغرب على (سمادة) المرقاب ، ثم انقطع الخيط سريعا ، اختفى صالح وأصبح ذلك الوعي الناقص ممزوجاً بحفنة كبرياء وادعاء وتخبط .

رحلت عائشة إلى بيت زوجها ، وازدادت رغبتها في التنصل من كل ملابسات واقعها لتعيش ما ظنت بأنه التعويض الوحيد ، فلم تكن عائشة في بيت جابر بن سالم إلا متاعاً جميلاً ، منفصلاً ، وملحقاً بالمكان .

بدأت عائشة بالانسحاب إلى داخلها . تحول شعورها المقموع المحبط إلى حماسة خفية ملساء ، وشرعت السيدة الصغيرة في البيت الكبير ، تنسج فلسفتها الواهنة من خيوط اليأس والهروب والأوهام ، محاولة انتزاع فرديتها والتحرر من الروح الجمعية المتسلطة . كان على عائشة أن تحسم أمرها منذ ليلة عرسها ، عندما أوصتها أمها بأن تقاوم عريسها بكل ما أوتيت من قوة ؛ لتؤكد عفتها وتشرف أهلها ، وعرفت بأن مقاومتها ستنتهي باستسلام مذل في معركة ستكرر في كل يوم في حياتها في بيت زوجها ، وقد تكرر ذلك الاستسلام (الذي يكافأ جيداً في النهاية) في كل مراحل حياتها ، وكل صور تعاملها مع أطراف الروح الجماعية! لكنها حاولت أن تمنع انهيار وعيها باعتبار ذلك آخر حصونها ، فجعلت

(أناها) محورا ثابتا لدوران الأرض ، بينما كان كل شيء من حولها يدور ويمور ويموج ، في صورة أباطيل وأسمار وقبض ريح ، وظلت عائشة موجودة في مركز الأشياء تقرر قوانينها الخاصة .

لن يستطع الآخرون لمس قلبها ولا اعتقال تفكيرها ، إذا تعذر عليهم أن يصلوا إليها وهي تنسحب إلى أقصى أعماق داخلها المستور عنهم . لقد صنعت عائشة (عائشةً) أخرى ، كان وجودها الآخر يمنع عالمها من الانهيار .

الأمر الذي اعتقدت عائشة بأنها تكاد تحققه ، كانت في الحقيقة أبعد الناس عن بلوغه ، فحين توهمت عائشة بأنها نجحت في مسعاها للانفصال عن السنن الجمعي واحتقاره والتحايل عليه والافتراق عنه ، كانت تقوم طوال الوقت بالتكيف معه والتماهي تماما مع اللاوعي الجمعي ، بل كانت أنموذجاً رائعاً في مثاليتها وخضوعها له وكأنما كانت عناصر النفس الجماعية ممزوجة مزجاً باستيهاماتها ومخاوفها الشخصية . كل ما ترفضه عائشة وتظن بأنها تستبعده ، كان يؤطر تفكيرها وعلاقاتها وممارساتها النفسية والاجتماعية . وتحت وطأة خوفها من أن تتحول إلى ما يريده الآخرون وما يملونه عليها ، انزلقت القهقرى إلى مدارك أكثر بؤسا مما كانت تخشاه وتتجنبه في تطور شخصيتها . بينما كانت عائشة تقوم بترميم صورتها الأسرية والاجتماعية ، كانت تعيد تشكيل قناعات بائسة وبأساليب نكوصية كاملة ، تماماً كما قد يفعل طفل خائف يقوم بإخفاء دفتره ويدعي ضياعه ، لانه لم ينه واجبه المدرسي ؛ عائشة ادعت ضياع حياتها لكيلا تسمح للآخرين

بالسيطرة على مجريات حياتها! فأضاعت حياتها . . بيدها .

أدركت عائشة مبكراً أن لزوجها خليلات في كل سفراته من كازابلانكا مرورا ببغداد إلى اوروبا . لاشك في أن خيانات (بو سالم) كانت تعتصر كرامة عائشة اعتصاراً ، لاسيما أنه أبدى تراخياً متعمداً ، فصار يهمل التظاهر ولا يحاول إخفاءها ولا التعفية على آثار (زلاته) الكثيرة . ربما كان (بوسالم) يستثير غيرتها في البداية ، ثم أصبح يتقصد إثارتها انتقاماً منها ، ثم أصبح بمرور الوقت غير مكترث باطلاعها وبمشاعرها ما دامت مصرة على برودها! لكنه لم يمتنع عن إغراقها بالهدايا ؛ فقد كان ذلك التعبير الوحيد الذي أتقنه للتعبير عن نفسه وإحكام سيطرته على «حياتها» .

هل كانت لعائشة حياة ؟ لم تفعل عائشة تلك الشابة الجميلة المتطلعة المترفعة عالية الهمة شيئاً ذا بال بحياتها! وبعد سنوات عسيرة في بيت أهل زوجها استطاعت الاستقلال في بيت منفصل ، قبيل الحركة التصحيحية لعام ١٩٧٢ ، وكان اسم جابر بن سالم على رأس القوائم المرفوعة ، وسرعان ما عيّن سفيراً للدولة في لندن ، وخرجت عائشة من قطر ؛ وكان ذلك أهم منعطف في حياتها .

كانت نسوة عربيات يجتمعن في زمهرير لندن ، وأزواجهم مشغولون في حاناتها وبين أحضان عاهراتها ، كانت تلك النسوة زوجات بعض الدبلوماسيين من الخليج ، يثرثرن حول مواضيع تافهة ومعادة ، ويتحلقن عادة حول موضوع لا يمل : ما الذي يستثير النساء ، وكيف هي فحولة الأزواج العرب ، خالطات كل مبالغة

بكل وهم ، كانت عائشة تلوذ حينئذ بالصمت وهن يتغامزن حولها ، ويحاولن أن يستدرجنها دون أن تلتقط طرف السنارة المسنونة! كانت عائشة في جلساتهن أشبه بسيدة الأولمب! تتوسطهن متفكرة فيما يطرحهن بكثير من التسامح ولكن معاييرها كانت دائما عالية الأسوار . لم تكن عائشة سريعة الأحكام ، ولكن في مدينتها المثالية لم تكن لتسمح لإحداهن بالدخول .

كانت عائشة في الحقيقة أولاهن بالحديث عن فحولة زوجها ، لولا أن ذلك ينكأ جراحاً في ذاكرتها لفترة مضت في أول زواجها ، تلك الصدمة التي لم تخرج منها عائشة ، كما فعلت نساء كثيرات استفدن مما قدمت لهن المعاشرة الزوجية ، وأعدن استثمار خبرتهن مجددا ، في فترات لاحقة من حياتهن المختلفة ، والمتعددة المستويات والشركاء أحيانا .

كانت تستطيع حتما خيانة زوجها بتلك الطرق نفسها التي تمتلكها النساء دائماً ، وتوفرها لهن ظروفهن على تفاوتها واختلافها . لم تحاول عائشة أدنى محاولة أن تخون زوجها! حتى عندما أصبحت في سنوات لاحقة ، تتنقل بسيارة وسائق وتسافر مع زوجها في مهماته ، أو مع بعض أبنائها بين المدن والعواصم في الإجازات الصيفية ، ولم تفكر أن تخونه أبداً . حقا ان (بو سالم) رجل قوي وحازم ويراقبها عن كثب ، ولكنها استطاعت أن تخرج من دائرة رقابته منذ زمن بعيد ، دون أن يشك في ذلك أو يتمكن من ملاحقة تحركاتها . يتكون لدى المراة انطباع ثابت عن الرجل الذي تكثر هداياه ، فإما أنه ضعيف وإما أنه خؤون ، وكان (بوسالم)

في نظر عائشة الرجلين معا ؛ الرجل الذي يشتريها بماله ويحاول استرضاءها بالرشى (كما كان أسلوب عمله التجاري ووسائله اليومية والدبلوماسية) ، وهو كذلك الرجل الذي لا يملك حصافة كافية ليدرك بأن امراته كانت تحتاج كثيرا من الحب والعاطفة النقية فحسب!

لم تتصل عائشة بصالح ولم تحاول لقاءه ، ولم ترم نفسها في طريقه حتى عندما تواجدا في المكان نفسه ، لأنها لم تقو على إهانة نفسها (ونفسها تمثل اسم عائلتها وشرف إخوتها) ولم تر بداً من إنقاذ زواجها وحبها معا ؛ فالحب أصبح (قيمة) عليا في حياتها الفانية ، ولم يعد علاقة تضطرم أو تفنى بالفراق الجسدي . يمكننا القول مع ذلك بأن عائشة قد خانت بوسالم وخانت حبها أيضا ، عندما بدأت تستمتع بحياتها المكذوبة تحت غطاء شفيف صفيق من التذمر والتصنع والمكابدات ، هل كانت عائشة تروم معاقبة زوجها ، لاسيما ببرودها التام (وإن لم يكن مستغرباً في تلك السن ، وفي ذلك المجتمع عند أكثر النساء) .

لو كان الحب حبا!

لو كان الحب جنوناً مؤقتاً فحسب ! بيد أنه الذات! إنه (أنا) عائشة وحياتها الأرضية القصيرة الموهوبة - بلا ثمن - لمن لا يريدها! هل بإمكان حادث صغير أن يجردها من حياتها التي كانت تعيشها حتى الآن ؟ ماذا يعني أن صالح بن أحمد لم يلحظ وجودها وجحدها تماما منذ قليل ، عندما التقيا بعد سنين من الفراق والعذاب ؟

قد لا ترتبط الوقائع بالأفكار المجردة في رؤوسنا - وهذا يحدث كثيراً - ولكننا نعيش الاثنين معا (الأحداث وأفكارنا عنها) وعندما تنفصل أفكارنا عما نعيشه فإننا نحتفظ بأفكارنا غير القابلة للممارسة أو التطبيق في أقصى أعماقنا إنها تصبح عندئذ حياتنا الأخرى التي نعيشها بالخفاء، وباستقلالية عما نكونه أمام الناس، كما لو كان بإمكاننا أن نعيشها بالأصالة، ونعيش الحياة الظاهرية بالوكالة. نواصل الإشاحة بوجوهنا عن كل تلك الإشكاليات التي تفرزها حياتان منفصلتان، وكأنما لا تلزمنا نتائجهما المتناقضة، في شيء! وبقدر ما يبدو الأمر منطقيا يظهر كذلك خاليا من أي منطق.. ولكنه يستمر ويستمر!

وعلى خلاف الأشخاص الذين تكون حياتهم نسخة باهتة عن أفكارهم - لسبب أو آخر - فإن قناعاتها الجامدة تمثل مادة أصيلة من حياتها المتطابقة بصورة مزعجة وبغيضة مع أفكارها الجوفاء.

لا تكمن - في أحيان كثيرة - خطورة الوقائع وأهميتها في منشئها أو طبيعتها، بل تستمد أهميتها من خلال ارتباطها بوقائع أخرى غير ظاهرة على سطح الوعي أو الأحداث.

نظرا لطبيعة عائشة ومدى تأثير الاحداث التي تعاقبت على حياتها المتواضعة قامت عائشة اضطرارياً بتنضيدها عشوائياً وبراجماتياً في داخلها، بطريقة متراكمة واعتباطية نوعا ما.

ليس هناك ثمة أفكار أساسية في فلسفة عائشة، إنها فقط (قائمة) من الانفعالات الحبيسة والرغبات المكفوفة، ولذلك لا

معنى للسعي لمناقشتها!

إن توضيح ذلك قمين بإزالة أي سوء فهم بحقيقة موقفها من نفسها، ومن عالمها الصغير أو تصوراتها بخصوص الحب الخالد، وغاية الحياة وفلسفة الوجود.

ذلك يعيدنا لصورة فكرة الزواج عند عائشة، فالصورة التي تمثلت لها - لسنوات عديدة - أنها أصبحت تتبع رجلاً يدعى زوجاً، وقد انتزعها من حياتها «المفترضة» إلى حياة مفروضة عليها! من الضروري أن نعرف بأن أمها أخبرتها بأن ذلك قدرها وقدر كل النساء؛ أن يكنّ تحت الرجال، وأن يصبرن، وأن الله سيعوضها خيرا عن صبرها! بدت العبارة غامضة ومبالغاً فيها، إلا أن أمها كانت صادقة، فقد أدركت عائشة عدة تعويضات، في الواقع حصلت على تعويضات أكثر مما حصلت عليه كل النسوة مجتمعات في حي المرقاب. فهل اقتنعت عائشة؟ هل ارتضت كرامتها بالثمن المدفوع؟

في تلك الفترة التي عاشتها في بيت حماتها لم تحاول عائشة أن تنسى صالحا، بل لم يكن لديها غير صالح لكي تتشبث بذكراه وتجعله حائلا بينها وبين الناس، بينها وبين واقعها الأجرد المتكلس. في تلك الأوقات العجاف الطويلة الممدودة كحبال من مسد، انبثقت كل ذكرياتها مع صالح لتملأ كل الثقوب والفراغات والحفر في تفاصيل حياتها الفارغة في البيت الكبير. استبدلت عائشة حياتها اليومية بحياة خفية لنشاط خلاق واعٍ تمارسه - بسرية وتعمد- لكي تحافظ على توازنها النفسي، ولكي تسمو على

كل «منغصات» يومياتها العبثية ، وتواجه العالم كل يوم بقناعها الثابت ؛ وجه ودود وقانع ومؤمن . لم تشعر عائشة بأنها حالة استثنائية بل أدركت مبكراً بأنها جزء اعتباطي مكمل لسائر أجزاء المشهد الاجتماعي الصغير . لكل شخص منا قناعه الملحق بطقم أقنعة الجماعة من حوله . أما التفرد المسموح به في ذلك الجسد الجماعي المقنّع فإنه أن تلتزم بقناعك بشكل أبدي ، ولا تعتزل طقوس جماعتك ، ولا تتمايز عنها لكيلا تُفقدها تماسكها ؛ إذ يجب على الفرد أن يحتذي خطى من سبقه ويحترم ناموسهم ، ولو بشكل مصطنع (على أن يكون اصطناعا متقنا) ، وهذه هي صيرورة الفرد المطلوبة والمسموح بها حقا . يجب ان نعترف (ما دمنا مضطرين إلى ذلك على كل حال) أن الفرد قد يضحي بالكثير من مخزونه الإنساني لكي يحتفظ في النهاية بصورة مثالية عن نفسه ، وسط المجموع النسقي المتماثل . بالرغم من أن الجزء الأول من المقدمة يتناقض مع الجزء الآخر ؛ فإن ذلك ما يحدث بالفعل باستمرار . لقد كبرت حساسية عائشة وتضخم وعيها بنفسها ، بقدر ما أرادت الانخراط في لحمة المجموع وسداها . يكبر خيال عائشة وتتراكم طبقات اللاوعي حول وعيها ، وتتكثف الصور وتخيم عتمة على جانب من الصورة ، وتعيش عائشة في الجانب الآخر (المشرق أمام الناس) . تغرق عائشة نفسها بشكل كامل في فلسفة وهمية ، وتصورات بائسة مكذوبة ، تصونها من غدر وقائع يومياتها الفظة .

لا تقوم عائشة بتحوير الأحداث وإعادة تفسيرها فحسب ، بل

بإمكانها أن تلغي تلك الرغبات التي تطاردها أو تجمدها وتزيحها كلية ، وتجعل من وعيها لغواً لا طائل منه تقتات عليه ، ولكن لا يقودها - بطبيعة الحال - إلى شيء آخر! لا تسعى عائشة إلى شيء آخر! لا تسعى إلى بناء «معرفة» جديدة عن عالمها : بل تقوم ببساطة بإعادة تشكيل قناعاتها بشكل نكوصي لتقبل بما لم تكن لتقبله أبدا .

هناك شيء لم تستطع عائشة التخلص من وطأته ؛ إنه هاجس المراقبة والتجسس عليها ، وعزز ذلك من مخاوفها من المجهول ، واستفحل شعورها بانعدام الأمن حولها . لم يثر ذلك في نفسها ازدراءً لطبع جابر بن سالم بقدر ما أفقدها ثقتها في نفسها وكبلها تماما! لم ترد عائشة أن تمنح شكوك (بو سالم) فرصة الانتصار يوما ، ولن تعطيه أي خيط للاشتباه أو اصطياد مستمسك ضدها! ستكون - إذن - المرأة المثالية الكاملة التي لا يستحقها (بو سالم) ولا يصل (مواصيلها . . أبدا) .

يجمل بكل امراة أن تخشى تجسس زوجها عليها . وأي امراة لا تخشى ذلك ؟ يخطىء الرجال في المجتمعات الأبوية عندما يطمئنون إلى حريمهم ويرخون الحبل على الغارب ، بيد أنهم لا يفعلون ذلك! إنهم لا يركنون إلى الثقة العمياء في النساء لان الرجال أنفسهم يعيشون حياة مزدوجة ، ويستخدمون الأقنعة المستعارة التي يحبذ المجتمع سيرتها ويوفر إمكاناتها وينتج دواعيها ويحرس اسرارها وطقوسها ، وعندما يخالف الفرد تلك النواميس المرعية يخرج بذلك على شريعة الجماعة ، ويكون معرضا للنبذ أو الطرد .

بعد حادثة بيروت ، اضطرت عائشة إلى إجراء «عملية جرد» لأوهامها التي ازدهرت سنين ، وأثارت حماستها وألهبت مشاعرها في حبها الخالص لذكرى صالح بن أحمد ، وسوف تقوم الآن بتحويلها عكسيا - باسم الحب - إلى ضد الحب نفسه .

تجد نفسها أكثر ضموراً ومحدوديةً ولكن - ياللمفارقة- أكثر عقلانية فها هي تعترف بأن (حبها) غير خالد! لقد أضحى قصة منتهية عندما قدرت له تلك النهاية غير المتوقعة! إنه مخرج لإنهاء التعاسة الجزئية وتحويلها إلى تعاسة كلية أبدية . إنه التحرر من الوهم الذي يحيطنا ويجعلنا لا ندري ماذا نفعل بحريتنا ، إلا أن نرميها عبثا في وجه أخطائنا المتكررة . أن تتحرر عائشة من عقدة صالح معناه أن تحملق في الفراغ من جديد ، أن تتلفت حواليها فلا تجد إلا العماء ، وتبتهج بالعبث لكنها سوف تتحرر - في المقابل - من أخطائها! يا لها من فكرة مروعة : أن تقايض الحرية مقابل السعادة! يجب ألا نطالب أبداً من التحرر من أوهامنا حتى تلك التي تُعد أشدها غرابة وسخافة .

متى تخطت عائشة صالحاً ؟ لم يعد يمثل صالح لعائشة الشيء نفسه منذ مدة طويلة قبل حادثة بيروت بكثير دون أن تجرؤ أو تكون مستعدة لمواجهة ذلك الاحتمال فقد كان صالح توأما لأفكارها منذ وعت التفكير والحلم . . والحب .

ماذا عرفت عائشة من الحب ؟

وقعت عائشة تحت رحمة حب حماتها لسنوات عديدة . لبثت «أسيرة» في بيت أهل جابر موديلا معروضا في فاترينة . كان عليها

أن تتزين كل يوم وتجلس في مقعد النسوان ، دون ان تتفوه إلا بأقل ما يمكن من الكلام ، ردا على من يخاطبها! تباهت بها حماتها واحتفت بها أيما احتفاء . أصبحت عائشة مضطرة إلى ملازمتها أوقاتاً معينة يوميا ، وكانت تصحبها معها . شغفت بها حماتها تماما ، وكانت امرأة متطرفة في انفعالاتها تبالغ في تدليلها ، ولا تني تسال عنها ولا تكاد تستغني عنها ، لكنها لن تتورع عن انتقادها بجفاء وغلظة أمام الناس لأتفه الأسباب . كل ذلك الحب وكل تلك العناية البالغة كانت مدفوعة الثمن . لم تملك عائشة أن تستهجن طبع الحماة ولا أن تبتعد عنها ، ولا حتى أن تظهر لها أي مشاعر سوى الطاعة والانصياع ؛ لأنها مالكة البيت ومن فيه ، ولأن وضعها كان يخولها أن تكون على ما هي عليه ، وعلى الآخرين أن يحبوها كما هي ، فهي من يمنح ويقسم ويوزع الارزاق والعطايا ، وهي من ترتب الأولويات وتنظم الحياة والحقوق ؛ إنه نظام الحياة وهذا هو دور الحماة . عندما بكت عائشة أمام جابر سألها وألحف في السؤال ثم انتفض مستغربا : تبكين من أمي ؟ أمي تدور راحتك! أمي تخاصمني من أجلك اذا سهرت بره وتركتك! انت مخبولة ؟

اذن كان عليها أن تقبل بذلك النوع من الحب المهين! وعليها أن تمتن لمانحيه وإلا فإنها ستكون مسخا في وسط يتعايش أفراده ويتصالحون على نظام الحقوق والواجبات غير المكتوبة . وبغض النظر عن ضيق مساحة التنفس الشخصي فإن عائشة كانت أميرة في البيت الكبير منذ أن حلت فيه! حتى اخوات جابر صرن يسارعن

إلى إهدائها وإقامة الولائم المتتابعة في بيوتهن تكريما لزوجة جابر ومدللة الحماة .

تشرد عائشة بعيدا! تترك كل ما يواجهها في تلك الساحة وتهوم بعيدا مثلوجة القلب واليدين الفارغتين!! مسندة الظهر إلى ذلك الجدار العالي تنتظر أن ينشق ويفتح لها كوة في جدار الصمت ؛ لتستأنف حياتها الطبيعية ، ولكن الجدران تقترب وتعلو وتزداد عائشة تقزماً وذوباناً !

كان زوجها شيئا من الأشياء التي وقعت واستمرت في حياتها ، أما صالح فهو الحلم الذي بقي على مسافة ثابتة بين الإمكان والمستحيل ، يعني بعبارة أخرى ؛ الإمكانية التي يجب ألا تقع .

صالح موجود أمامها الآن وكأنها في سينما أمام شاشة عرض يكر شريطها الأملس غير المؤذي على حائط ، وما دام لن يخرج صالح من الحائط ولن يقترب منها فهي إذا بمأمن من اختلاط الزمانين والمكانين . ومع ذلك فإنها تشاطر صالحاً الموقف الذي أوقف عنده الزمن منذ عشرين سنة خلت من عمرها ، وعمر صالح ، وعمر المرقاب . لم توجد قط في مكان يضمها مع صالح! وتراه الآن وجها لوجه وإن لم يتعرف إليها ؛ فإنها كانت تستطيع الاقتراب منه ، ولكنها لم تعرف ماذا ستقول له! ماذا بقي لهما بعد كل تلك السنوات؟

عاد السائق أدراجه متوتراً ، فكر في إخبار (بو سالم) بالأمر ولكنه تراجع لما يعلمه من حدة طبعه ، وظل يترقب ظهور عائشة

لكي يقلها بعيدا عن ذلك المكان الذي انقلب فجاة إلى مكان خطر . بدأ رجال الدرك يتوافدون ويسدون البوابة ، وطارد بعضهم شبابا اندفعوا وتراكضوا باتجاهات متفرقة لتضليلهم . لقد كان بو سالم يحييه بنفحات طيبة عندما يجتهد في تقديم تقريره عن تحركات المدام ، ومن قابلت ، وأين نزلت ، ومع من تناولت طعام الغداء ، وكان الأمر يسير بصورة طيبة فالسيدة محتشمة وصويحباتها معدودات ، ولا تكاد تغير مشاويرها المعتادة ؛ الخياطة سوزي ، ومحال الأزياء ، وصديقتها فريدا التي كانت مرافقتها ودليلها ، وكانت المدام مولعة بالسينما ومكتبة جبوري ، وبالحلويات (وغير ذلك السلام وعليكم السلام) .

تعرف عائشة بيروت المصائف والمطاعم والمحال الباهظة ، السهرات النسوية العشوائية ، والولائم الباذخة ، تعرف بيروت الدكاكين والتذكارات والذخائر والصالونات ، تعرف رياض الصلح ومطاعم ومقاهي السوليدير ، وساحات وسط بيروت التجاري ، والروشة والحمراء ؛ ولكنها لا تعرف شيئا عن بيروت الأخرى أو عن (بيروتات) الآخرين بل كانت تخشاها ؛ تخشى اللصوص والمتطفلين وقارئات الطالع والفقراء والعيون الحاقدة والطامعين والمتملقين والسياسيين ، وتكره الزحام لأنها تخشى الضياع .اليوم استسلمت لخداع بيروت ، اختطفتها الغفلة ، وأكثر ما يروعها الآن في ورطتها كيف ستبرر ما حصل لـ(بو سالم)! ماذا ستقول له ؟

كم مرة تمنت عائشة أن تختفي من العالم! وكانت عندئذ تقوم بتحويل الناس من حولها إلى (لامرئيين)! وتبقى هي موجودة

ومتعالية وقاهرة للعالم المعادي ، العالم المجهول .

بعد زواجها انتقلت فورا إلى بيت أهل زوجها ، لم تعد تزور أهلها إلا لماما ، وكانوا يزورونها نادرا! بدا لها أن هناك تواطؤا بين العائلتين للإبقاء على ذلك الوضع . لم تسل عن أخبار صالح حتى لو من طرف خفي ، كان ذلك أشبه بالخيانة ، وكانت خائفة جدا! لكنها ظلت تخون زوجها طوال الوقت ؛ لأن صالحاً ما برح يعيش بينها وبين جابر وعلى الوسادة ذاتها . لولا صالح لما استطاعت أن تستمر في حياتها ، ولا أن تعاشر زوجها ، ولا أن تخرج من دائرة البرودة المصمتة إلى دائرة الزوجات «الكامنات» . لقد أسمت مولودها الأول أحمد ، ذلك الأمر الوحيد الذي أقدمت عليه باصرار ، بعد ولادة متعسرة عصيبة ، عندما دخل عليها جابر ممتقع الوجه بعد أن ظن أنه سيفقدها ، قالت له :

- سأسميه أحمد .

قال لها بعين دامعة :

- انت تأمرين يا أم أحمد .

بررت له فيما بعد أن أحمد هو اسم عمر الشريف في فيلم تأثرت به . في الحقيقة كان صالح بن أحمد يكنيها بأم أحمد ؛ أم ابنه ولكن - للمفارقة- قد غلبت على زوجها كنية (بو سالم) ، اسم ابنه التالي الذي سمي كذلك تيمنا باسم جده . كان جابر مولعا بعائشة لاسيما في أول زواجهما ، ربما لأنه لم ير من النساء من هي أجمل منها . .بعد! لم يكن قد غادر الدوحة إلا لبيروت طالبا ، وعرف عددا من النساء ، الأمر الذي جعله يتعلق بعائشة

العفيفة أم أولاده وبنت بلاده! ربما كان سيمنحها المزيد من الحب لولا وجود أمه وشخصيتها الطاغية في البيت ، فضلا عن برود عائشة وانسحابها مهما حاول استمالتها بالتدليل والهدايا! لقد منحها اسم الولد البكر من دون أن يستشير أحدا ، كل ذلك لتعلم يقينا بأنه يحبها ولكنها كانت امرأة بلا مشاعر (أي امرأة لن تخونه!) وهذا هو العزاء الوحيد لرجل غيور وزير نساء .

كل ما يعلمه (بو سالم) هو أن عائشة خطبت قبله لاثنين ؛ أحدهما ابن الجيران ، والآخر ابن خالها ، أما ابن الجيران فقد غادر البلاد لفترات طويلة ، وأما ابن خالها فلم يُدع قط إلى بيته لوليمة أو مناسبة ، بل تجاهله (بو سالم) تماما (كان بوسالم رجلا غيورا بلا شك) ، ولكن لم تزعجه الدموع التي كانت تسحها عائشة سحا بلا حساب أمام مشاهد المآسي العاطفية في الأفلام العربية ، أو في الروايات التي كان يبتاعها بنفسه أو يوصي عليها من بيروت والقاهرة ، لأنه ظن بأن ذلك جدير بأن يحرك فيها بعض الأحاسيس أو قد تستثار بعض الشيء . كان جابر قد حاول اتباع أكثر من وسيلة لقنها إياه أصحابه ممن ابتلوا بزوجات غشيمات وطينتهن ثقيلة كطينة زوجته ، ولكنه اضطر في النهاية إلى التقنع بحظه منها ، فلا شيء يغير نفسية زوجته وسوداويتها .

لم يشك (بو سالم) في زوجته أم أحمد ؛ فقد أخلصت له دائما ولم تدس قط موطن شبهة على حد علمه (وهي تحت بصره وسمعه دائما) لأنه لا يترك مجالا للفرص والحوادث أن تقع! كان يحزنه حتما ويجرح رجولته أن لديها من العواطف ما تبذله سخاءً

ودموعاً أمام تلك الأفلام السخيفة ، وتمنعه إياها في غرفة نومهما ، وقد خطر بباله بلا شك أنها امرأة قادرة على الحب ولكن ليس معه هو بالذات .

حثت عائشة خطاها مسرعة حتى انها لم تنتبه لوقع خطوات مصاحبة مسرعة خلفها وصوت يدعوها : (يا مدام!) حتى حاذاها فالتفت يمينا لترى شابا يناولها نظارتها التي وقعت منها ، وحينئذ لم تتمالك نفسها أن استدارت خلفها إلى حيث كان يقف صالح بن أحمد منذ دقيقة مضت ، ولكنه لم يعد هناك! ليس ثمة حولها إلا الضجيج الطنان للشعارات التي تتبدد في الهواء ويرددها شباب غاضب ، ولكنه ليس مؤمنا بها بشكل كاف! واصلت السير وعندما رفعت رأسها رأت الشوفير الذي بدا أسعد شخص في العالم ، وأخذ يلوّح بقبعته المضحكة في الهواء (وقد وجد لها أخيرا استعمالاً مفيداً) وبقربه وقف ابنها أحمد الذي كان ينظر إلى أمه مبهوتاً وممتقعاً .

لم يعد أحمد وأمه إلى البيت بل عرجا إلى المطعم ليتغديا ويتحدثا كما اتفقا سابقا ، شعرت عائشة بأنها مضطرة - كما هي عادتها دائما - أن تبرر له كيف دفعت دفعا - على حد تعبيرها- لكي تتصرف على ذلك النحو ، وأنها لم تحسن تقدير الأمور ، ثم استخدمت كلمات قللت من أهمية ما حدث .

ومع ذلك قالت لتبين له بأنها خاضت تجربة غير سارة : بيروت لم تعد آمنة يا أحمد! أرادت أن تعبر له عن جانب عام من شعورها ولكن بإبهام وحيادية! قالت له : تمنيت أن أختفي من المكان! أرادت

أن تظهر بلا إرادة وبلا قابلية للغواية ، لكنها في الحقيقة كانت قادرة أن تجعل من العالم ومن الآخرين غير مرئيين . تمضي عائشة في الحياة من دون إرادتها . تنعقد الأمور من دون استئذانها ، وتتوالى كل يومياتها المسودة كحبل طويل مفتول ، يلتف حول عنقها وذراعيها ، ومع ذلك فإنها لو خيرت لما وسعها أن تختار حياة سواها!

بدأ الطنين في أذنيها منذئذ . وكان يعاودها «ذلك الطنين» كلما دخلت في سوداويتها المتفاقمة . كانت عائشة مغتاظة ومخذولة ولكن لم تتسن لها خلوة تذرف فيها دمعة أو دمعتين . تطلعت إلى أحمد الذي كان مشغولا بهمّه الصغير الذي لم يعد سراً! وبينما كانت أمه تتجرع غصص الحب المنسي ، كان أحمد قد اختار أسوأ الاوقات ليحكي له عن حبه لفتاة (طيبة بنت ناس) التقاها ويريد أن يتزوج ، ويعدها بأن ينتبه لدراسته .

لم تزل عائشة تفكر : ماذا رأى صالح أمامه ؟ وكيف لم يلحظها وهي واقفة أمامه وقد كانت تنظر إليه بذهول مثير للشفقة! لم يلحظها وهي التي تعلقت نظراتها بمخلصها المزيف! نسيت ابنها ونسيت زوجها ، ولم تعش تلك اللحظة إلا بوصفها عائشة بنت المرقاب ، وهو صالح بن أحمد! ربما لو دعاها باسمها للجأت إلى الاحتماء به فهي لا تعرف في تلك اللحظة سواه . عاشت حياتها ولمدة عشرين سنة خلت مأساة الحب اليائس ، واستطاعت جذوة تلك المأساة أن تبقيها حية وفوق كل أحداث حياتها . تعرف بالطبع بأن صالحا تزوج وأنجب ومضى بحياتها ، ولكنها كانت متشبثة بتلك الصلة الروحية التي تربط بين الشتيتين حتى لو (أيقنا بأن لا

تلاقيا) ، ولكن بعد مواجهة اليوم وجحودهِ التام! شعرت عائشة بالإهانة لتلك الذكرى! الذكرى صورة داخل برواز! الصورة ثابتة وخالدة ، فقد التقطت مرة وإلى الأبد ، ولكن عائشة لم تعد تستطيع النظر إلى تلك الصورة بعد أن شرخ الزجاج وتشوهت الصورة من زواياها .

عانى أغلب الناس أوجاع الحب المرفوض وارتجاعاته في ممرات حياتهم ، ولكنهم لا يكشفون أوراقهم ولا يواجهون ذلك الألم الأول! لايفعلون لأنهم يحتاجون إلى ضرام وقوده لكي يواصلوا حياتهم وإلا اكتشفوا بأنهم يحيون حياة زائفة .

اليوم استلب منها صالح بن أحمد جناحيها! كاد أن ينتزع منها قوتها على الصمود والاستمرار في حياتها! ولكن الموقف بالإمكان إنقاذه!! لقد خذلها أمام أشخاص لا يعرفونهما ولا يعلمون بأمرها ، ولئن كان قد جرح شعورها أيما جرح فإن جراحها قادرة على الالتئام ؛ إذ إنها جراح لا وجود لها إلا في ذهنها وضميرها! إن حبها الخالد «يخصها» وحدها . تستطيع أن تبقيه ، وأن تستدعيه ، وأن تخفيه ، وأن تميته ، وأن تحييه حتى صالح بن أحمد نفسه لا يملك أن يخنق حبها أو يلغيه أو يغير فيه! إن صالح بن أحمد ليس موجودا إلا بمقدار ما تحدده! ولا يعني لها أكثر مما تقرره وتحتاجه .

لندن الضباب والأغراب

شعرت عائشة في لندن بالارتياح والتحرر من العديد من القيود السخيفة ، وكان ابتعادها عن قطر أهم حدث وقع لها منذ

ولدت ؛ فقد ابتعدت عن كل أحداث حياتها ؛ وهكذا فقدت كل الأحداث وزنها وتأثيرها و . . معناها وكأنما ولدت عائشة من جديد . ذات يوم سمعت من إحدى السيدات أن زوجها أخبرها عن اجتماع لمفكرين وكتاب قوميين عرب في لندن ، ومن بينهم شخص من قطر ، لم يكن ذلك الشخص سوى صالح بن أحمد ، ولم يكن الملتقى إلا في فندق في وسط لندن متاخم لمطعم اعتادت عائشة أن تلتقي فيه رفيقاتها . بإمكانها أن تخبر (بوسالم) أنها ستلتقي هناك ببعضهن ، وسوف ينزلها السائق أمام المطعم ذاته ثم تخرج بعد هنيهة وتسير مشيا إلى الفندق . كانت عائشة مترددة ومع ذلك تصرفت وكأنها ستحضر حتما ذلك الاجتماع غدا . استعدت لجميع أسئلة (بو سالم) المحتملة ، واختارت ما سوف تلبسه (وكان ذلك على أكبر قدر من الأهمية بالتأكيد) ، وتخيلت عشرات السيناريوهات لدخولها ولالتقائهما «العفوي» . ربما تمنت عائشة أن تصبح عضواً ناشطاً في جمعية أو لجنة من لجان تحرير المرأة العربية ، كانت ستصبح حينئذ قرينة أو مكافئة لصالح وعالمه الذي ينتمي إليه . بيد أنها لم تخرج في ذلك اليوم من البيت ، وقضت سحابته في أسوأ مزاج ؛ مستثارة وحانقة ، وافتعلت شجاراً مع (بوسالم) حالما وصل مساء لكيلا تنام معه في المكان نفسه .

عاشت في لندن أجمل ايام حياتها . كان زمناً مضطرباً حقا ، ولكن تنوعه وتجاربه كانت نقلة نوعية لشخصية عائشة المرقابية التي انتقلت من الدوحة إلى لندن في طفرة كبيرة في حياتها أعادت إليها بعض الحيوية التي لن تتكرر . في أول وصولها إلى

لندن انكفأت على نفسها فترة من الزمن ، لكن سرعان ما اقتحمت زوجات الدبلوماسيين العرب صدفتها بالقوة ووجدت نفسها في وسط ليال احتفالية وولائم منتظمة ، ودعوات لابد من تلبيتها ، وصداقات ورفقة لابد منها! أحاطت بها العلاقات التكافلية الاجتماعية العربية الطابع إحاطة السوار بالمعصم ؛ كانت علاقات تجري بإلزام وتقاليد لا فكاك منها .

اكتشفت عائشة أن السيدات العربيات يعشن في الغربة بازدواجية كالرجال تماما ، وفي تلك الجلسات الحريمية كان الحديث غالبا ما ينحرف إلى الحديث إلى الرجال الأزواج والرجال عموما! من يقول إنه من السهل استجلاء صورة المرأة في الثقافة العربية ؛ إنه من المتعذر استجلاء مفهوم الأنوثة عند المرأة ، ما دامت المرأة ذاتها غير مستعدة وربما غير راغبة في التعبير حقا عن مكنونها وحقيقتها ؛ فقد يقع ذلك غالبا في غير خانة مصلحتها المتوخاة!

عبثا بحثت عائشة عن نفسها في الروايات التي كان يكتبها آنذاك الرجال! (ولكن أي امرأة ستجد نفسها في روايات تكتبها المرأة بإكثار في الوقت الراهن ؟) من منا يبحث في مسألة الأنوثة إلا باعتبارها انعكاساً مقبولاً في النسق القيمي العام المتجذر للمجتمع المتواري وراء مثالية التاريخ والروح الجمعية ، ولكنه - في المقابل - يلعب دوراً خفياً في ضمائر أفراده . وجدت عائشة نفسها على مفترق طرق ؛ بين طريقين لم تكد تتبينهما ، ولم تكن قد اختارت بعد أيهما ، ولكنها رضخت طوعيا لشروط الطريق التي سيقت إليها ، والتي كان الناس جميعا يتوجهون إليها ، في سبيل

هناءة شخصية وحياة هادئة . أخذت عائشة تنسج خيوط «فلسفتها» عن التاريخ والحب والقيم والعالم المفقود ، في سبيل بلوغ التصالح مع اللاوعي الجمعي .

لو كان الحب جنونا مؤقتا!

بيد أنه الذات! انه (الأنا) لدى عائشة وحياتها الأرضية القصيرة التافهة المحوطة بأسوار جبرية محكمة من العزلة ، كل ذلك يجردها من السعي للتواصل مع الآخرين! يجب ألا ترتبط بصداقات حميمة ، وألا تنجرف إلى تمتين علاقاتها بالغرباء ، ويجب ألا تعالن الآخرين بأفكارها (وأن تخلص لها في الوقت نفسه) .

لم يسع عائشة إلا أن تندمج اجتماعيا مع كل ذلك الخليط من زوجات الدبلوماسيين الخليجيين وبعض العرب ، وأن تعيش وسطاً من خليط مريج غريب عنها ، ويتحتم عليها أن تبدي حيوية أكبر مما تطيق أو تكون مفطورة عليها . اعتادت بمرور الوقت الخروج مع بعض السيدات إلى مناسبات عديدة ، منها عروض الأزياء والاستقبالات وندوات ، وحضور مؤتمرات وفعاليات للعمل الخيري! وجدت نفسها تمضي في برنامج يومي متنوع ومختلط ، يحوي النزهات والولائم المنتظمة ، والواجبات الاجتماعية ، والتسوق واستقبال وجوه جديدة تعبر أو تقيم سيان! لأنها دائما وجوه متشابهة واجتماعية وبشوشة بصورة مصطنعة وأبدية . تتشابه النساء في كل مكان ، فهن لا يختلفن على أهمية التجمل والاستعراض والتباهي والأحاديث الجانبية (الغيبة وتبادل الإخباريات) ، ولا تكاد تتغير الأجندة

الحريمية ؛ يمنع الكلام في السياسة والنكد والخلافات الزوجية ، وممنوع بتاتاً اصطحاب الأزواج والأطفال . استحوذت مربيتان على أولادها الصغار ، ولم يعد من همّ لعائشة إلا الالتزام بالبرنامج الاجتماعي النسوي (الدبلوماسي) ، حيث يحيا الفرد للجميع وبالأخص «نزوات» الرفيقات المقربات . تصادقت عائشة في البداية مع حنان! كانت حنان هي من لاحقتها بالاتصال وضرب المواعيد واللقاء على الغداء والتسوق معا . كانت حنان سيدة مصرية متزوجة من قطري يعمل في السفارة القطرية في لندن . تصاحبت المرأتان وترافقتا مراراً لعروض سينما وزيارة متاحف ومعارض فنية ، وغامرت عائشة مرة بركوب القطار إلى موقع أثري بعيد ، ولكنها لم تستطع أن تحصد متعته بسبب قلقها من أن تتأخر ويفتضح أمرها . كان بوسالم يمتعض من حنان! لم يخف تحفظه على لباسها وتجوالها الحر في لندن! كما كان يجد في كلامها ونظراتها وتصرفاتها وقاحة ؛ فهي لم تبد الاحترام الكافي للتقاليد حتى بعد زواجها من قطري! ولم يطل الوقت بـ (بوسالم) حتى ضاق ذرعا بها وحذفها من قائمة علاقات عائشة! شطبها كما تشطب وجبة يزمع إعدادها في قائمة الطعام فقال لعائشة : اتركيها عنك يا ام احمد . لا تدخل بيتنا ولا ترافقيها ! بعدها حرصت عائشة على ألا يقع علم (بوسالم) على أسماء رفيقاتها «الضروريات» ولو عرضا!! تعرفت عائشة إلى ميثة ، فتاة تصغرها بعقد كامل من السنين ، وعزت إلى ذلك وحده حيويتها ومرحها الصاخب! فتاة بهية الطلعة يحلو للمرء أن يستمع لسوالفها وحكيها المبعثر ، لاسيما إذا كان امرؤ مثل

عائشة يفضل رفقة لا تفضح أمر صمته بل تملأ الفراغ بضجيجها . ميثة كانت تأخذ عائشة إلى أماكن مغايرة عن تلك التي اعتادت على ارتيادها وبتغطية مناسبة ، فقد كانت ميثة تعاني من التهابات نسوية مزمنة ، وتحججت عائشة بمرافقتها إلى مواعيدها الفعلية والمزعومة . لم تسلها عائشة ما سبب تلك الالتهابات السفلية ؛ فقد اكتفت بما عبّرت عنه ميثة بمزاح مرير وإنجليزية ركيكة : (وي ار يوزد بيبول)[1] كانتا تغامران بالذهاب إلى حيث تقودهما أقدامهما ، بحسب مزاج ميثة ومدى قدرة عائشة على كبح جماح رفيقتها . اشتركتا مرة في مظاهرة عمالية مناهضة لسياسة حكومية .

أمسكت عائشة بذراع ميثة وقالت لها : ولكن ما الأمر ؟

ردت ميثة : تعالي بس نجرب! لن تمشي عمرك في مظاهرة غيرها .

وزارتا مرة مزرعة خارج لندن ، ركضتا كطفلتين عبر تلال صفر كأنها أمواج من ذهب ، لم تر عائشة مثلها قط إلا على شاشة السينما . جرتها ميثة للدخول إلى مكان صاخب فإذا هو ديسكو يعج بالراقصين ، تطلعت الاثنتان حواليهما بذهول لبرهة ثم خرجتا بعد دقائق وهما تضحكان . زارتا كاتدرائية ضخمة في وسط لندن! تمشتا تحت المطر . لاحقتا نجما سينمائيا ثم تبين بأنه لم يكن سوى شبيهه! لهوتا في ألعاب الملاهي ، وكانت ميثة تصرخ وتخبط رجليها في الهواء ، أما عائشة فتكتم خوفها وتنظر بحسد إلى ميثة ،

---

(١) we are used people . تعني اشخاصاً مُستعملين .

ليتها تملك أن تكون على قدر من جنونها وعنادها . . واندفاعها .

والتقت المرأتان ذات يوم بروائي سعودي معروف جالس في مقهى يشرب قهوته ويدخن سيجارة . أصرت ميثة على أن تحييه ولم يسع عائشة أن تمنعها ، لأنها بادرت الروائي سميح عبد الرضا بالتحية . كان رجلا نصفا على قدر كبير من الجاذبية ، يعتني بأدق تفاصيل مظهره ، وكان جالسا لوحده ولكنه بدا مستعداً ومنتظراً ان تحوطه نظرات الإعجاب . وقف ودعاهما إلى الجلوس بكل تهذيب وتلقائية ، اعتذرت ميثة لحسن الحظ ، وكانت عائشة واقفة خلفها تقريبا ممتقعة ومبهورة بعض الشيء ؛ لأن الروائي السعودي لا يني ينحني لكي يخالسها النظر وهو يحدث رفيقتها . قالت له ميثة : يابختك تقول اللي في نفسك! رد عليها سميح : يا ليت ذلك كان صحيحاً! لا أستطيع أن أقول إلا بحساب ومن ورائي رقيب عتيد! بودي ألا أكتب! ولكن الكتابة لعنة ونحن يا سيدتي ملعونون .

سأل سميح عائشة :

- يبدو أن عندك رواية تكتبينها ؟

قالت عائشة بحرج كبير وقد بوغتت :

- لا ، لست كاتبة . ثم استأذنت ، وتركته يتحدث مع ميثة بمفردهما .

بعد عودتها إلى البيت استعادت عائشة حديثه عن رواياته وكيف استقاها من ذكرياته الأولى في مدينته (الطائف) ، وفكرت في سؤاله لها بيد أنها لم تشك للحظة بأن سميح عبد الرضا كان يسأل كل امرأة تقريبا ، ذلك السؤال الاستدراجي «عندك رواية

تكتبينها؟» كأنه يريد القول «عندك قصة تريدين أن تحكيها لي؟» . ربما ظنت عائشة لوهلة قصيرة أنه استطاع أن يحدس بما في داخلها! لأنها كانت في واقع الأمر تنتظر أن يستوقفها أحد ما ، وأن ينظر إلى داخلها! لابد أن لديها رواية تروى ، وليتها كانت قادرة على روايتها يوما ما! برغم جموح تلك الفكرة بالنسبة لمرأة منطوية ومتأملة ، وهلعة من البوح ، فإنها فكرة حامت حول رأسها كغيمة رافقتها بضعة أسابيع ثم انقشعت تماما حالما جاءها اتصال مفاجىء هزّ أعماقها . رن الهاتف وكان على الطرف الآخر ضابط من اسكوتلنديارد أبلغها باستدعاء عاجل ، وحدد موعداً الغد دون أن يبدي أسباباً . أعطاها اسمه الذي نسيته حال إغلاقها الخط . لأول وهلة أحست أنها ستقضي اختناقا! لم تجد من تثق به لكي تخبره بالأمر! لا أحد! لا تستطيع اللجوء إلى زوجها برغم يقينها أنها لم ترتكب خطأ ولم تنتهك أي قانون! ظلت تفكر طوال الوقت بعواقب الأمر ؛ لو علم إخوتها أو أهلها بأنها مطلوبة في اسكوتلنديارد ولأي سبب ؟ لا تعرف!

لم يغمض لها جفن تلك الليلة . ولحسن حظها عاد (بو سالم) إلى البيت متأخراً وخرج باكراً .

دلفت المقر الرئيسي لاسكوتلنديارد وهي لا تصدق ما يحدث لها ، وسارت نحو سيدة عجوز تجلس وراء مكتب صغير وهمست عائشة بإنجليزية ركيكة : استدعاء! اتصلوا بي أمس .

قبل أن تجيبها المرأة اقترب منها رجل من الخلف وسألها عن اسمها ، ثم طلب منها بحزم أن تجلس قليلا وتنتظر .

لم يطل انتظارها ولكنها أحسته دهراً ، ثم ظهر شخص ببزة رسمية مرتبة وطلب منها أن تتبعه ، ودلفت إلى حجرة انتظار أخرى مليئة بالنساء ، قابلتها وجوه وسحنات مختلفة ، سمراوات وحنطاويات ، بعضهن بملابس عصرية وبعضهن بأزياء مزركشة من بلاد آسيوية وافريقية ، وجلست على مقربة منهن ، لاحظت عندما أمعنت النظر أن هناك اطفالا يلهون بجوار أمهاتهن ، وكان الحديث يتطاير متقطعا حول مخالفات إقامة وهجرة غير شرعية ، وكذلك عن وصفات وأزياء وسلع رخيصة ومستعملة وصبغات شعر ، وكلمات هامسة يتبعها قهقهات عالية .

دخلت امرأة بحلة مدنية ولكن رسمية ، وطلبت منها أن تتبعها ، وارتقتا درجا ومرقتا في ممر على جوانبه أبواب مغلقة ، ثم توقفت المرأة وأشارت إليها أن تنتظر ، ودلفت إلى الداخل ثم خرجت وفتحت لها الباب لتدخل وغادرت .

كان أمامها ضابط وراء المكتب ، بدا شاباً صغيراً يقف إلى جانبه شخص يرتدي بذلة وينظر من النافذة من دون أن يلتفت اليها . وهناك شخص ثالث حيّاها وأخبرها بأنه المترجم .

- تفضلي يا سيدتي .

- لماذا أنا هنا ؟

قالتها عائشة بعصبية وقلة صبر .

- هل تعرفين السيد عبد الرضا؟

- من ؟

وقدم إليها المحقق صورة تجمعها هي وميثة مع سميح عبد الرضا

في ذلك المقهى . شحبت عائشة وغامت عيناها ، التفتت إلى المترجم :

- كيف ؟ ماذا ؟ ما الذي يحدث ؟

كان التقاط صورة تجمعها بسميح عبد الرضا ، برجل غريب ، التقته مصادفة ، غير أنها تبادلت معه بضع كلمات ، كان ذلك دليلاً مادياً على جريمة (لم يتحقق لها أهم الأركان ؛ النية على ارتكابها) بيد أنه دليل ثابت على كل حال!

التفت الرجل الآخر ودعا المرأة الضابطة إلى الدخول وحضور التحقيق ، كانت مبادرة لتلطيف الجو وتهدئة روع المستجوبة ؛ فقد أرادوا أن يُشعروا عائشة بأنهم يراعون شعورها الشرقي .

لم يطل الضابط الشاب معاناة عائشة لأن الرجل الآخر التفت إليها وقام بتهدئتها وتوضيح الموقف :

إننا نراقب السيد عبد الرضا ونريد أن نعرف أي معلومات عنه بحوزتك .

نعلم بأنك تلقيت اتصالين منه بعد ذلك اللقاء في المقهى . تحدثت عائشة بينما كانت المترجم ينقل كلامها ، أخبرتهم بكل ما تعرفه طواعية ، وأكدت لهما بأنها لا تعرف عنه شيئا غير أنه روائي ، ولم تقرأ له حتى أي رواية ، وأن رفيقتها ميثة ورطتها في الأمر كله ، وسردت لهما ما قاله عبد الرضا في ذلك اللقاء ، بالرغم من أنها لم تكن تأبه كثيرا بما يقول ، وقالت إنه اتصل بها فعلا ولمرة واحدة فقط ولا تعرف كيف حصل على رقم هاتفها ، ربما من رفيقتها الطائشة وكان ذلك من دون علمها . ودار بينها وبينه حديث

قصير جدا ، وأشار في نهاية الاتصال أنه سيغادر إلى لبنان . ولم تتلق منه أي اتصال آخر! ربما اتصل وهي غير موجودة وهي لا ترحب بأي اتصال منه على كل حال .

وقال لها المحقق : ستأتين إلينا عندما يكون لديك معلومات جديدة؟

هزت رأسها بإيجاب ، أرادت أن تكون متعاونة ولكنها لم تكن تفكر بشيء سوى بمغادرة ذلك المكان

- هل أخرج الآن ؟

- بالطبع .

خرجت عائشة من باب المكتب وهي تتوارى خلف نظارة سوداء ، وأشاحت لكيلا يراها المارة تبكي ، وابتعدت بسرعة عن مكتب اسكتولنديارد وهي تهز رأسها ، وكأنما تنفض عنها تلك الواقعة . . وذكراها!

بعد ذلك بسنوات عديدة قرأت عائشة خبراً في موقع إلكتروني (كان قد حلّ حينئذ عصر الإنترنت والفضائيات) أن عبد الرضا كان أحد الضالعين في أحداث الطائف في عام ١٩٩٤ . لم تتساءل ماذا فعل وما مصيره وأين هو! عاودتها ذكرى ذلك اللقاء في لندن لوهلة! هزت رأسها فتبخرت .

في ذلك المساء ذاته نفرت عائشة إلى ملتقى سيدات الدبلوماسيين العرب في شقة أم حنان . كانت الأواني تصطفق في المطبخ ، وتتكوم القدور والصواني المغلفة والمغطاة بما حوت ، وعلت أصوات السيدات اللاتي ضاقت بهن غرفة المعيشة فالتجأن إلى

الرواق ومدخل الشقة ، ولم يطل الوقت حتى دخلت سمارة المصرية بحقيبة منتفخة فنثرت ما بها على طاولة زجاجية مستديرة وهي تقول : غلّة اليوم يا جدعان!

وللحظة ساد الهدوء على الوجوه التي وجمت أمام تلك السلع المثيرة : علب صغيرة ملونة ، وأقلام كحل ، وعلب بودرة ، وأقلام روج ثم أطبقت الاصابع على الغنيمة يختبرن هذا ويفحصن ذاك ، ويعلقن على هذه ويتندرن على تلك ، في خضم من الضحكات والقفشات المتبادلة التي ملأت الشقة الواسعة ، وفي حجرة الضيوف صفت على المائدة العريضة المأدبة المنتظرة ، التي أسهمت فيها المدعوات بكل حلو ومالح ودسم وحريف ومقلي ومشوي ، واندست عائشة بينهن في رغبة كاملة في الاندماج ، وقد ثمّنت -لأول مرة - تلك الدعة الآمنة التي تعيشها نساء عربيات يحفظن أسرارهن في الصدور ، ويتحلين بأزهى لباس وأغلى حلي ، ويقبلن على طيبات الحياة (ولا يتورعن عن بعض خبائثها ما دامت سهلة المنال)! تلك حياتها التي ستختارها وتعيشها وتصونها .

غرقت عائشة في حياتها اللندنية العشوائية لعدة شهور ، قبل أن يفاجئها ألم ودم غزير وأسقطت طفلاً ذكراً . وكأن ذلك كان عقاباً على الإهمال والتصرفات السيئة ، ومصاحبة ميثة على وجه الخصوص ، ميثة التي لم يكن بإمكانها أن تحبل بسبب التهاباتها ، التي غالبا ما كان مصدرها الزوج العابث وحياته الداعرة! لم يكن عجبا - إذاً - أن تحمل ميثة كل ذلك البغض والتشفي من مآسي البشر وفضائحهم!! كانت تسرد لعائشة أخباراً وقصصاً عن الحياة

المزدوجة التي يحياها اولئك الذين من حولهم الذين يدعون العفة نهاراً ويتصرفون بمجون ليلاً . ولم تدرك عائشة ، بحسن نيتها وسذاجتها آنذاك ، أن ميثة قد قررت في نقطة ما أن تنزلق إلى ذلك المصير نفسه وتحيا الحياة . . بوجهين!

كان الحمل التالي قد أقعد عائشة ولم تمض شوطاً أبعد في صداقتها لميثة ، بدا الأشخاص الذين تعرفهم يتغيرون بطول اقامتهم في مدينة الضباب ، بعيدا عن مدن الملح والتراب ، وانفصلت عائشة رويداً عن ذلك الجنون المطبق الذي يسود العلاقات المشوهة . لم تكن عائشة لترتضي لنفسها الطرق الملتوية ، ولم تلتفت قط لغوايات المراودات بكل أشكالها .

عندما سألتها ميثة كمن يجس نبضا : ألم تفكري أن تخوني زوجك مرة ؟

قالت عائشة ببساطة : أبداً

- أبدا! يا عيني على الثقة في النفس!

- حرام!

- صحيح حرام ، ولكن أحيانا للخيانة أسماء أخرى

- الخيانة هي الخيانة!

- وإذا كانت مجرد لقاءات في أماكن عامة ؟

- يعني ؟

- يعني ليست كاملة ولا متعمدة!

- وإن كان! إذا أخفيت أمراً عن الآخرين فهو أمر شائن!

احمرت عائشة بعد ذلك ، وكأنما أفشت سرا فاجأها هي

شخصياً أن تكشفه

ردت ميثة بسرعة : صدقت .

وغيرت - بدربةٍ- مجرى الحديث . ربما كان هناك أمر أرادت أن تسر به لعائشة ثم عدلت عن ذلك .

لم تكن عائشة من سوء الطوية بحيث تلمس في حديث ميثة أي إشارة خفية لعشيق محتمل! بل كانت تنظر إلى حديثهما على أنه جدل افتراضي فحسب . شعرت عائشة بتأنيب ضمير ، وكل ما فكرت به هو أنها هي من كان يخفي أمرا وشعرت بالإثم والنفاق!

سألت عائشة نفسها بعد تلك المحادثة العابرة أي معنى للإخلاص إذا لم يكن المرء قادرا أصلاً على الخيانة ، فهل كانت عائشة تمتلك إمكانية الخيانة ؟ ولامت نفسها اذ شعرت بأن استيهاماتها وتخيلاتها المرتبطة بحبها لصالح ، والمرتبطة بذكريات ماض بعيد ، تعد خيانة أيضا بصورة أو بأخرى!

ما نحمله في داخل رؤوسنا يبقى في داخلها اذا لزمنا الصمت! إنه ملكنا وحدنا ما لم نطلع عليه أحداً ، ونستطيع أن نفلت من أي عقاب . خيالاتنا نستمرئها ونجترها ونصنعها ، ولكن أحلامنا من يستطيع أن يردها ؟ وما الذي يوقف ذاكرتنا اللاشعورية ، وماذا نفعل إزاء إدمان الألم واستعذابه ؟ كانت عائشة محط ثقة الكثيرات من النساء العربيات من حولها . كن يطلعنها على مشكلات وتجارب واجهنها ، ولكنهن لم يبدين قط اهتماما بسؤالها عن تجربتها في الحياة! كانت عائشة تبدو وكأنها الطهارة ذاتها ، بينما كان ذلك يشعرها على وجه الخصوص بأنها أسوأهن على الإطلاق .

جلست عائشة وجها لوجه أمام ابنها أحمد يتناولان ذلك الغداء على عجل ، على طاولة بسيطة المفرش ولكنها نظيفة اصطفت عليها أواني المقبلات البيروتية ، لشخصين فقدا شهيتهما لسببين متصلين ببعضهما البعض . لم يكن هناك شيء في العالم أهم مما أرادت عائشة أن تحكيه لأحد ما (غير أنه لا يوجد ذلك الأحد ولذلك لم تقل شيئا) . وكان أحمد يريد أن يقول ما عنده دفعة واحدة لكي يسمع جواب أمه ، فقال بلا مقدمات ، ودون أن يستوضح بجلاء ما جرى لأمه آنفا في الحرم الجامعي ، بالرغم من أنها كانت ممتقعة ويابسة الشفتين ، وتضع يديها عمدا تحت الطاولة لتخفي ارتعاشة تشنجية ألّمت بها بعد أن ركبت السيارة فورا .

تعرف عائشة بأن أحمد يتحرق لهفة للحديث عن موضوع زواجه! وبدأ أحمد : - بنت فطنة وبنت ناس طيبين .

وحكى لها باختصار :

- أتذكرين الصيف الماضي نزلنا في القاهرة أسبوعاً ؟

رآها أحمد في بهو فندق في القاهرة في صيفية العام الماضي ، وكانت تجادل موظف الاستقبال بعناد وثقة حول أمر لم يتبينه ، إلا أنه تدخل لما سمع لهجتها وعلم بأنها قطرية مثله . وقد شكرته فيما بعد لما التقته ومعها أبوها (أبوها شخص استثنائي يا يمه! يمكن تعرفينه! اسمه صالح بن أحمد) هزت عائشة رأسها :

- لا .

قالتها بسرعة دون أن تحوّل نظرها عن طبقها وأكمل أحمد :

- لكنه يقول بأنه قد خطبك في شبابه وما حصل نصيب .

أبدت عائشة استغرابا حقيقياً وقالت : سوف أسأل جدتك عن هذا الأمر! وكأنما تحثه أن يتابع كلامه ويهمل ذلك التفصيل الثانوي .

ولكن أحمد كان ينتظر ردة فعلها ، أو ينتظر أن تقول شيئا معينا فرفعت رأسها وتنهدت : لا أعرف ماذا يعجلك يا ابني .

ورد أحمد : ولماذا التأخير ؟

- أبوك لن يوافق . ذكرته عائشة بالشخص النافذ الذي لم يكن موجوداً بينهما ، ولكن يعلم كلاهما بأهمية رأيه .

كان أحمد شاباً متكتماً وأقرب إلى الخجل منه إلى الاندفاع ، والبارحة عندما فتح الموضوع على حين غرة وأخبرها في المطار بأنه يريد أن يستأجر شقة ببيروت لأنه ينوي الزواج أثناء الدراسة . فكرت عائشة بأن هناك بنتاً معينةً في باله ، وربما هي إحدى بنات عماته ، فهن الأقرب والأكثر زيارة لهم ، ولم تبال عائشة حقا بالأمر لأن بوسالم هو من يقرر في تلك الأمور المهمة التي تخص مستقبل الأولاد . الآن وقد عرفت من هي العروس المرتقبة لم يعد بإمكانها أن تظل لامبالية!

استجمعت عائشة شجاعتها وقالت :

- آه تذكرت! صالح بن أحمد! كل أهل قطر يعرفونه! أليس هو المعارض السياسي ؟

قالتها بانتصار ونظرة ذات مغزى واضح وأردفت :

- لا أظن أن أباك يقدر في مركزه الحالي على مصاهرة صالح بن أحمد ؟ وضعت عائشة المسألة في مكانها الصحيح ، فقد

اتضح الآن أن الأمر مستحيل!

- وما دخل ابنته في مواقفه السياسية أو تاريخه مع السلطة ؟

- تستطيع ابنته أن تقترن بأي شخص إلا ولد جابر بن سالم .

- اذكري الله يا أم أحمد!

- لا اله إلا الله .

لم ينتبه أحمد لسر تبدل موقف أمه الفجائي! لم يستطع أن يميز تحول حيادية البارحة إلى عدائية اليوم ؛ لأنها استخفت تماما وراء ستار الموضوعية الكامل .

ولما كانت عائشة متمسكة بذكرى حبها لصالح بن أحمد ؛ فإنها تملك سبباً رئيسياً للوقوف ضد تلك الزيجة ، فلماذا تدع الباب موارباً لآماله في حب مستحيل من كل الوجوه ؛ أحمد لن يكون سوى نسخة أخرى ممتدة بل متطورة للأب (بوسالم) ، وسيرث تاريخه ومكانته وثروته وموقفه ؛ أي كل تراث آل مدعاسي! هل يعرف أحمد من هو ؟ هل يعرف أين تقف عائلته وقبيلته من النظام في بلده ؟ فهل ينوي بعد كل ذلك أن يقترن بابنة صالح بن أحمد؟

ليست هناك ثمة كراهية أعمق وأبشع من حب مرفوض ينقلب إلى ضده! كرهت عائشة صالحاً منذ تلك اللحظة ، بعنفوان مماثل لحبها الشبحي ، وستقف في طريق زواج ابنته من ابنها بكل ما وسعها . أما إحساسها بالخجل من دافعها الخفي فقد دفعها إلى التشدد أكثر ؛ فأخلصت بصورة مبالغة في الدفاع عن الأب غير الموجود وصحة موقفه ، حتى إنها كانت راضية اجمالاً عن نفسها

وإخلاصها لزوجها ، ومقتنعة بأنها تفعل ما ينبغي لأي أم في مكانها أن تفعله .

لقد أدركت في ذلك اليوم بالذات ، ومنذ أقل من ساعة تحديداً ، بأن ما يهب ذلك الحب الشبحي معناه إنما هو قيمته في حياتها وحدها ولا أحد سواها ، ولن يسعها أن تحتفظ بذلك الحب إذا انكشف جزء منه أو أدركت - سره- نفوس أخرى دخيلة وغريبة ومعادية ، تحمل تفسيرات مشبوهة وشائهة . لم يكن بدّ من اجتثاث كل أمل في امكان انعقاد تلك الزيجة ، لأن بنت صالح (وهو بالمناسبة الرجل الذي لم يتعرف إليها منذ نصف ساعة ، حيث تهشمت كرامتها وتلطخت ذكرى الحب الكبير بالجحود) ، تلك الفتاة لا تصلح لابن جابر المدعاسي ، وفوق ذلك فإن أحمد أثار حقداً متنامياً لتلك الحادثة ، دون أن يدري عندما ذكر لها بأن صالحاً أخبره وفي أول لقاء بينهما بأنه قد تقدم لخطبة أمه ولم يحصل نصيب! بل وتندر قائلا إن أحمد كان من الممكن أن يكون ابنه هو! هكذا ببساطة!! يتحدث صالح بن أحمد عنها وعما كان بينهما بلا أثر لغصة أو ندامة .

لم يحتج صالح بن أحمد أن يداري شيئا! لم يبالِ بالإشارة لقصة الحب التي ربطتهما يوما وامتدت في حياة عائشة إلى اليوم ، وأصبحت على وشك الإفشاء والتداول الرخيص! ويريد ابنها الأخرق باختياره السقيم أن يربط بينها وبين صالح جداً لأحفادها! يتمسك هذا الولد الضعيف بأول فتاة يراها في بهو فندق! ما أتعسها!! لبث أحمد واجماً وصامتاً بينما كانت عائشة تنحرف

بعيداً عن مسار الحديث الذي كان يتوقعه! لم تستخبره عن أوصاف البنت وهيئتها ولا ما دار بينهما ؟ وكيف نمت علاقتهما ؟ ومتى اتفقا ؟ وأين رآها بعد ذلك منذ الصيف الماضي حتى اليوم . ضربت أمه صفحاً عن كل تلك الفصول ، وانطلقت إلى الخاتمة المدبرة ، إلى نبش أسباب سياسية تُفشل ما انتواه وخطط له ، أسباب تعود إلى عقدين من الزمان تقريباً!

لقد تحدثت عائشة بسرعة وعصبية . أحاطت نفسها بالجهل في أول الأمر ، ثم أصبحت تترافع ضد قضيته من موقع العارف والمتمكن ، بل والصديق الناصح ، استشعر أحمد مسبقاً بؤس موقفه فلم يكن لديه من نصير محتمل سوى والدته التي لم تسمع ما لديه ولا استفهمت عن عاطفته .

سوف يدرس الحقوق كما يريده أبوه أن يفعل في الجامعة نفسها التي درس فيها أبوه ، وكذلك صالح بن أحمد . أحدهما أصبح والده وعاش في كنفه ، والآخر كان من الممكن أن يصبح والده! ولكنهما شخصان لا يتشابهان! لا يقفان على أرضية واحدة . لم تحك له أمه ما حدث ؛ لأنها أعلنت منذ البداية أنها لا تذكر شيئا من أمر الخطبة ولا سواها . (بوسالم) هو والده ، الذي لم يفكر يوما بإدانته في محاكمة لم تنعقد ولن تقع . ذكر أحمد لأمه أن صالح بن أحمد شخصية استثنائية . نعم! هو شخص آسر ولطيف المعشر وواسع الثقافة! أشبه بالرمز منه إلى الرجل! لكن والده من جهة أخرى شخص حقيقي ومؤثر . . وملتحم به .

غادر الاثنان ؛ أحمد وأمه ، المطعم الذي كان مشرفاً على

جانب من بيروت ، من دون أن يرفعا عيناً إلى جمال بيروت وبهائها اللذين سوف تخسرهما قريبا عندما تندلع الحرب الأهلية بعد حين ، وعندها سوف يتحول أحمد إلى دراسة الاقتصاد والسياسة في بريطانيا وسيقع في الهوى ، عشرات المرات ، وسيقول لكل واحدة من عشيقاته ما أجمل عينيك وهو يقارنهما - لا شعوريا - بعيون وسمية بنت صالح .

كانت عائشة تفكر بأنها كسبت الجولة الأخرى ، فقد خسرت الأولى ، ذلك اليوم ، أمام صالح بن أحمد . وكانت تفكر بأن أحمد سينسى أمر فتاته! ما الحب ؟ لهو أمر مجرد من المعنى والمعقولية أن ننقاد لعواطفنا وحماستنا ، بل يكاد يكون أمراً خطيراً وذا عواقب وخيمة في أحيان كثيرة . ماذا يفعل الحب غير اعتراض حياة الناس وتنغيصها و(جرجرة) كرامتهم في الطين . إن ابنها العاشق الذي يسير مهموماً كسير الفؤاد إلى جوارها ، لا يخطر بباله أبدا أن أمه عشقت صالحاً ذات يوم ، بل لا يكاد يخطر بباله أنها تحب أي أحد ولا حتى أبيه ، ومع ذلك فإنه كان يتوقع - مسلمةً من المسلمات - أن تقف بجواره في مسألة حب يخصه هو!

تستنتج عائشة بعد كل رواية تقرأها كم كانت حياتها عقيما وخالية من الحيوية (حيوية العاطفة أو الاهداف السامية) ، ولو كانت عائشة كاتبة فماذا كانت ستكتب ؟ انها تعيش حياة داخلية منفعلة ، تشرف على حياة خارجية ساكنة ومثالية لفرط امتلائها الخادع بكل أسباب الاستقرار والسعادة والوفرة . لا جرم أن عائشة محط حسد كل رفيقاتها في المرقاب وكل قريباتها! يشار إليها

بالبنان لأنها حصلت على كل شيء! ولكن عم ستكتب عائشة ؟ لديها رغبة متأججة في التعبير عن ذاتها ، بيد أنها لن تجرؤ قط على البوح بما في داخلها ، وكان لديها مشاريع وأفكار وتطلعات ، ولكن بمرور الوقت علمت بأنها لن تنفذ شيئا منها لأنها قبضت الثمن ؛ ثمن السكـوت .

ما حدث في بيروت في ذلك اليوم لم يكن ليغير شيئاً ولم يكن ليعكس تيار حياتها . إن عاطفتها نقية وأبدية وحبها سيبقى خالداً . إنه حب خالد ولكنه سيخون موضوعه ، وستخون عائشة صالح بن أحمد وكل ما يمثله صالح . لئن كانت تشعر بأنها تخون (بو سالم) تحت سقف بيته (على الأقل بوقوفها في منتصف الطريق من دون الدخول في عالمه ووسطه وتبني مصالح تلك الطبقة) ، فإنها بهدوء تحولت أيضا عن عالم صالح بن أحمد وأفكاره وقناعاته . لقد غاصت أكثر فأكثر في أعمق موضع في أعماقها ، في بئر طويلة بلا قرار ولا حقيقة .

لا تقلقوا! لم تزل عائشة تدير الأمور وتسيطر عليها . لم تزل تعيش سيرة الحب القدرية! لم تزل تملك التفسير الأوحد والأبقى لما يحدث لها وما يحدث حولها ؛ «لأن حبها يخصها وحدها» ولم يكن يوما يخص صالح بن أحمد ولا يتعلق بأحد سواها . تعيش عائشة في عالم داخلي تحدد قوانينه وفلسفتها غير القابلة للنقاش أو التشكيك ؛ لأنها فلسفة ليست مطروحة على طاولة أي نقاش . لن تسمح عائشة لاحد بإيذائها ، وسوف تتوخى تدريجيا اتخاذ إجراءات أكمل في اتباع قواعد السلامة والحذر . لا يتوفر لعائشة

قدر كبير من الثقة بنفسها أو بالآخرين ، وقد تعلمت أن تزيح كل مشاعرها ورغباتها وانفعالاتها إلى الداخل ، وراء جبل متعاظم من ألوان التعويضات التي زودتها بها الظروف . . بسخاء .

لم تقم عائشة بالتخلص من الذكريات والأحداث والأوهام وأحلام اليقظة والمعاناة والاهتمامات والعلاقات السطحية ، بل لقد نضدتها جميعا وأرشفتها في أدراج خاصة في مخزنها السري .

ولئن كانت التربية والتنشئة الاجتماعية تقمعان بعض اللاوعي ؛ فإن بعضه الآخر يحجب بعيداً لأسباب وظروف كثيرة تتعلق بنا نحن أنفسنا ، وتقديرنا ومعايرتنا للأمور ، ولأسباب أخرى لا نعلمها . وقد يتبدى اللاوعي في أجلى مظاهره في تصرفاتنا التي تفاجئنا ، وفي أحكامنا المسبقة ومخاوفنا «الخافية» ، وقناعاتنا التي لا ندري كيف بنيناها . يُعتقد بأن المحفوظ في اللاوعي ليس جديراً بمستوى الظهور العلني ؛ لأنه أخلاط وفوضى ومشاعر بدائية ، ومحتويات بلا حوافز للظهور وبلا جدارة للبروز!! يعني أنها بذور لم يقدر لها النمو!

إن اللاوعي هو من يغذي الوعي بلا انقطاع ويزوده ويرفده! ويتسلط عليه! من الجلي أن اللاوعي يحكم أغلب تصرفاتنا ، وإن كنا لا نسمح له بعبور أعتاب الوعي ؛ فلو تحررت مكبوتاتنا وبدا كل شيء للعيان (عياننا أو عيان الآخرين) لوجب علينا أن نعيش إذاً في أقفاص زجاجية شفيفة ، ولأعيانا وأرهقنا ترتيبها أو استيعابها ، ولأربكنا تماما وجودها المستمر معنا وبمواجهتنا! إنه تعذيب بحت أن نواجه أنفسنا!! كيف يمكننا إذاً أن نخلق أوهامنا ونصنع تبريراتنا ،

وكيف لنا نتعايش مع كل تجارب العجز والإخفاق والفشل والنبذ .

أصبح التفكر لدى عائشة الوسيلة الوحيدة للاتصال بالعالم عن بعد ، واعادة تشكيله وتفسيره ، وتحولت الرابطة العاطفية (بينها وبين صالح) من عقبة إلى جسر ، وحلّ محل العجز (عن تحريك إرادتها لتغيير حياتها) فعالية عاطفية مؤسسة على تفسير خيالي لخلق توازن كاذب . لقد قلبت عائشة معادلة عملية التحويل عند الفرويديين ، وجعلت منها معكوسة ، فعاشت محاولة الهروب كوسيلة استشفاء من حياتها ومكبوتاتها واجترحت حلا مثاليا - من حيث الشكل والنتائج - لصراعها (الذي أسقط من الحساب) في مشهد عصابها المستور .

أما عملية التحويل فهي : تضخيم صورة صالح بن أحمد ليصبح صورة العالم ، وتجريده من إنسانيته وتموضعه ، وتفريغه من بشريته ، ليصبح بديلاً مثالياً عن (أنا) عائشة . تلك الصورة من العشق الذاتي قد تكون متماهيةً لدرجة كبيرة مع صورة العشق الشرقي ، حين هام قيس بليلى ، ليلاه وأناه ؛ أناه التي اتخذت صورة ليلى ، ولكنها (ليلى) أخرى بمقاييس مثالية ، فغدت ليلى هي صورة الحب ذاته ، لما بلغ بها قيس مرحلة العشق الأبدي وامّحت شخصية ليلى وملامحها وتفاصيلها الحقيقية ، واحتياجاتها وضعفها ؛ فلا نكاد نعرف ليلى بل نتعرف إلى العشق مطلقا . إن عذرية قيس جعلته أكثر ميلاً إلى الطبيعة الأنثوية (أي الطبيعة الإنسانية الصرف) ؛ فأصبح كل العشاق (من رجال ونساء) قيسا ، بينما فنيت ليلى وتلاشت .

هل بإمكان حادث طارىء وعابر أن يجردها من حياتها ؟ قد لا ترتبط وقـائع بعـينهـا ، بالأفكار المجردة في رؤوسنا ، ولكننا نعـيش الاثنين معا ، نستمر في حياتنا الميكانيكية ، ونحتفظ بأفكارنا برغم كل تجاربنا ، كما لو كان ذلك أمراً مستقلاً وغير مرتبط بما يحدث في داخلنا ، كما لو كانت هناك أقنعة ، وبمشيئة ثابتة وغير عابئة تقريبا بالعواقب البعيدة ، نواصل الإشاحة بوجوهنا عن كل تلك الإشكاليات التي لا تلزمنا نتائجها . يبدو ذلك الأمر خلواً من كل منطق! بيد أنه «موقف» كثير من البشر في محيطنا ، وتستمر حياتهم على ذلك المنوال منذ آلاف السنين . وعلى خلاف الأشخاص الذين تكون حياتهم عادة نسخة باهتة من أفكارهم المعلنة ؛ فإن عائشة تمتثل لفلسفتها امتثالاً تاماً ومتطابقاً ، بالرغم من أن البعض قد يعتقد بأنها قناعات جوفاء وأفكار مضحكة ، ولا تكمن مأساتها في هذه الحال في تناقضها مع نفسها ، ولكن في تناقض العالم معها .

إن الأحداث التي مرت على عائشة (وواجهت بعضها وتهربت من مواجهة الآخر) ، دفعتها إلى بناء عالمها الخاص غير المشوش وغير القابل للسيطرة والرقابة ، أقامته عائشة ورتبت محتوياته على أساس من تصورات ثابتة عن نفسها وعن العالم ، واستطاعت بفضله أن تسيطر على الانفعالات الحبيسة والرغبات المكفوفة ، وكل فوضى الحياة من حولها .

لم تتفاد عائشة بالطبع مضاعفات عصابية رافقتها في حياتها من اضطرابات عنيفة في المعدة والأمعاء وحتى الكلى . ومما يدعو

للسخرية أن الهدوء والصمت والرزانة التى «ازدانت» بها عائشة في حياتها الأسرية والاجتماعية ، لم تكن سوى ارتدادات للطاقة المخنوقة داخلها ، لشخصية كانت في الواقع أقل تماسكاً وهدوءاً مما يتصوره الآخرون . إن حادث بيروت كان من الممكن على فجاجته أن يؤسس لانتفاضة ، لمعجزة صغيرة ، لوقفة ، بيد أن عائشة لم تكن مستعدة للتغيير (ولن تتغير يوما) . سوف تستمر في موقف التحويل ؛ بل سوف تتفاقم حالتها فيما بعد أيضا . إن لاوعي عائشة هو ما يعينها على خلق استيهامات متناغمة ومتناسلة ، تساعدها على إيجاد تفسيرها «المنشود» للعالم ، وهو - في مجمله - فرضيات لا تملك مصداقية أبعد من قيمتها التسويغية والتسكينية ، وذلك الأمر هو الأكثر إلحاحا وقوة من أي ذكريات ، ومن أي وقائع قد تكون مرتبطة بها .

عادت عائشة وأحمد إلى البيت البيروتي ، ولم يكن هناك من حديث لاحق يتصل بالموضوع (إياه) ، فقد وجدا (بو سالم) مضطرباً لتأخرهما! دعا زوجته وأدخلها إلى غرفة النوم ، وظنت عائشة بأن أسئلته ستصب على رأسها صباً بخصوص ما حدث من أمر المظاهرة ، إلا أنه أخبرها باقتضاب بأنهما سيعودان إلى الدوحة اليوم ؛ فسوف يعلن غداً تعديل حكومي ، وسيتولى حقيبة في الحكومة الجديدة . قال لها استعدي وتكتمي! (من المفارقة أن غرفة نومهما أصبحت في السنوات الأخيرة غرفة لتلقي الأخبار المفاجئة والسريعة ، بعيداً عن فضول الأولاد والخدم .) خرجت عائشة هادئة وواثقة بأن العودة إلى الدوحة كفيلة بإنهاء كل شيء .

إذن ، يعتبر كل ما حدث منقضياً ولن يستمر ما يوقظ إحساسها بالضيق أو الخجل أو التهديد ، وسوف تملأ حياتها بتعويضات أخرى قادمة ومهام متجددة في الطريق ، وسوف تصبح سيدة مجتمع مقربة من أرفع الأوساط ، وسوف تغمر سريعا تلك الفجوة التي سببتها أحداث طارئة غير مبررة! لن يعترضها ما لا يمكن مواجهته بالأقراص المهدئة ، والحياة الاجتماعية ، والمناسبات المزدحمة ، والنوم والأمراض والسفر .

الجزء الثاني

كأنه النشيج

احـــمـل رســـالة يا طيـــر
الله يـجـــازيك بـخـــيـــر
سلمـــهـــا بيـــد المحـــبـــوب
لا تـعطيـــهـــا لاحـــد غـــيـــر

حجاب بن عبدالله النحيت

(أسطورة ورائد الفن الشعبي في نجد)

نظرت عـائشـة إلى أمـهـا وأبيـهـا وإخـوتهـا! نظرت إلى أهل المرقاب ، وكان ذلك كل عالمها ، وكل العالم من حولها ، وتساءلت : ماذا يفعلون! كيف يحيون ؟ يستيقظون باكراً مع صياح الديكة وينطلقون إلى الأعمال نفسها في الأماكن نفسها على المنوال نفسه! تنهض الشمس وتتمطى وتغيب ، يتجول المارة ويلعب الأطفال ، وتشحذ جارتهم أم حسن الملح و(البزار)[1] ، وترسل لهم لقمة من غدائها ، ويخرج أبوها لصلاة الفجر ويعود الضحى ويصرخ أخوها عيسى داعياً لجلب الماء في الإبريق ، وتسيّر[2] عليهم أم عبيد وأم جاسم وأم علي ، ويجن الليل يلف الظلام الدنيا كما يلف داخلها ، وتحس بالوحدة ولكنها لا تجد ملاذا في حضن أمها المتعبة ، ولا تجد رفيقة قريبة تسري عنها أو تفضفض إليها هواجسها وضيقها وتأملاتها ، فالرفيقات لم تعد تجمع بينهن دروب اللعب وسوالف[3] المزح ، ولا حتى المدرسة ، فقد كبرن (فجأة)[4] وأصبحن

(١) البزار : البهارات .

(٢) تسير : تزور .

(٣) سوالف : أحاديث .

(٤) فجأة : بمجرد البلوغ أو اقترابه تقعد البنت في البيت وتمنع من الخروج .

مستغرقات في أعمال الغسل والعجن والطبخ والخياطة .

عندما ترقى عائشة سطح بيتهم لنشر الغسيل وإطعام العنز المربوطة على السطح ، تناديها أصوات بعيدة ومختلطة وتستسلم لأحلام اليقظة ، أحلام تتدفق كسيّال بلا رابط منطقي غير ما تلتقطه عينها من دواعيس[1] المرقاب ومعالمها الكابية أو ما يمر في بالها المشحون وقلبها المشغول بخفقانه .

لم يكن الزمن يعني لعائشة شيئا! شمس الشروق وغروبها والمرقاب تحتها يصطلي بالشمس ذاتها! الساعات تمر ولكن لا أحد في المرقاب يحسب الوقت بالساعة! المرقاب منذ وعته هو إياه ؛ لم تتغير بيوته وأبوابه وحيطانه وحكاياته ، تمتلىء الأزقة حيناً ثم تلفظ سالكيها ، تهيم القطط الضامرة بين البيوت وتتصاعد ضحكات الزكرت[2] ، وتفرقع توالي[3] الليل من صوب البيوت البعيدة ، وتُسمع أحيانا نحنحة العسس والنواطير وصرخاتهم العشوائية البعيدة التي قد تفزع سارقا أو تنهر ساريا ينوي شرا! تختلط في بهيم الليل مع نباح الكلاب ، بينما تتخايل أعين السهارى وجوها مفزعة تتلبس صور القطط السود المتجنسة[4] حتى انبلاج الفجر ، فجر آخر ثقيل يجر أشعة الشمس على دنيا الناس في المرقاب ،

---

(١) أزقة .

(٢) الزكرت :المقصود العزاب .

(٣) توالي : آخر .

(٤) المتجنسة : المتلبسة بالجن .

الناس الذين عرفتهم عائشة منذ أن فتحت عينيها وكأنهم لم يكبروا ولم يشيخوا ولم ينقصوا أو يزدادوا! ذلك المرقاب الخالد ظل معلقاً في ذاكرة شريفة المرقابية التي تحولت عن المرقاب قبل أن يأكل (القص)[1] بيوته شارعاً شارعاً حتى أضحى خاوياً ثم أطلالاً ، وبقي أرضاً فضاء لعدة سنوات قبل أن تبنى على أرضه مجمعات وفنادق وعمارات سكنية ، امتدت من المرقاب حتى السلطة شرقا والرفاع وأم غويلينة جنوبا . لقد خرجت عائشة من المرقاب عنوة بعد زواجها من المدعاسي ، ورحلت بعدها بسنوات إلى عواصم عربية وأوربية ، وفي ليلة من الليالي كانت تحكي لحفيدتها عن المرقاب فالتقطت قلماً ورسمت المرقاب ؛ الطرقات فالبيوت متلاصقة تفصل بينها الدواعيس والأزقة الضيقة ، وعادت عائشة بنتاً صغيرة تركض من زقاق إلى آخر ، وتوقفت هنيهة بقرب العاير[2] حيث اعتادت أن تلمح صالحاً واقفا مع بعض رفاقه ، وانسابت دموعها في صمت .

لم يكن في قطر ، في أواخر عام ١٩٥٠ ، سوى مستشفى الإرسالية الأمريكية ، ومركز للشرطة ، وسجن ، وبنك ، ومنشآت تابعة لشركة قطر لتنمية النفط ، وامتلك كبار التجار فقط منازل مزودة بمولدات كهربائية صغيرة ، وكانت الشوارع ثمة غير معبدة ولا مضاءة ، ولم يكن هناك سوق في الدوحة ، وكانت المياه تحمل من

---

(١) القص : الاستملاك الحكومي مع التعويض ماليا .

(٢) العاير : زاوية الشارع .

الآبار على ظهور الحمير ثم تباع في الدوحة[1] .

لم يكن ثمة شيء - في تلك الأيام - خارج حدود المرقاب ، وكأن المرقاب هو العالم ، والذين يأتون من الوكرة أو يقدمون من الخور أو الشمال ، كانوا يدخلون فورا عالم الواقع عندما يضعون أقدامهم في المرقاب ، وعندما يغادرونه كانوا يختفون عن الأنظار والوجود ، يأتي بعضهم ليسأل عن الأنباء أو يتبضع من السوق ، وبعضهم ليُودع أبناءه في بيوت الأخوال أو الأعمام لكي يلتحقوا

---

(١) أصبح في قطر عام ١٩٥٠ ولأول مرة ميزانية حكومية تمول بنود التعليم والأمن والصحة والقضاء والأشغال والنقل والبلدية . لم ينجح سوى المستر هانكوك المستشار المالي في سبتمبر ١٩٥٢ في إرساء النظام المالي الجديد لحسابات قطر ، بمساعدة شركة ويني البريطانية لتدقيق الحسابات ، وفي سبتمبر ١٩٥٣ نشرت أول ميزانية ، وفي العام نفسه تم إنشاء محطة لتحلية المياه ، وتم إنشاء محطة صغيرة مؤقتة طاقتها ٧٠ كيلوواط لتغطية احتياج قصر الحاكم . أما في ١٩٥٤ فقد افتتحت محطة كهرباء وصلت طاقتها إلى ١٢٠٠ كيلو واط ، وتمت إنارة شوارع الدوحة لأول مرة ، ولحل مشكلة النقص في الأيدي العاملة تم إقناع الحاكم بقبول الأيدي العاملة الأجنبية . وسعى مستشار الحاكم المستر هانكوك لإشراك الشركات البريطانية لتنفيذ أعمال البنية التحتية أو السماح لها بالدخول في مناقصات مع شركات درويش . المصدر : (التطور الاقتصادي والاجتماعي في قطر ١٩٣٠-١٩٧٣) أطروحة دكتوراة لموزة الجابر .

بالمدرسة في الدوحة .[1]

تملك صالح عليها نفسها وشغل كل تفكيرها وملأ كل الفضاء في الأفق ما بين (السيف)[2] ووهج الشمس في ضحى حار لا تعبأ عائشة بحرارته ، ولا بعرقها الذي يعبق ثيابها وأفكارها ، تروح بخيالها الواسع في دهاليز خفية من حزواي أمها وحكاياتها ، وتسافر على جنح القصص إلى عوالم بعيدة ، ولكن الحزاوي مخيفة وكلها طرق مسدودة! مليئة بالأفاعي والذئاب والسحرة والوحوش الكاسرة

---

(١) تأخر التعليم في قطر عنه في الإمارات المجاورة ، ففي الكويت بدأ التعليم في عام ١٩١٢ ، واتجهت البحرين نحو التعليم شبه المتطور في عام ١٩١٩ . أما في قطر فقد أنشئت المدرسة الأثرية (١٩١٣-١٩٣٨) ، وكانت أفضل من الكتاتيب ، ودرست علوما شرعية ، وكذلك البلاغة والأدب ، واستقبلت طلابا من الشارقة ولجد ، ولكن عجز التجارعن تمويلها في سنوات الكساد ، فعاد مؤسسها ابن مانع إلى مكة . جاء مستشار التعليم المستر كيث إلى قطر وقدم خطة لتطوير التعليم في أكتوبر عام ١٩٥٠ ، وفي يناير ١٩٥١ افتتحت المدرسة بصورة مؤقتة ، وكان المستشار البريطاني مسؤولا عن الدراسة فيها ، رعت بريطانيا توسيع الدراسة وتطوير مناهجها ثم أصبح عدد المدارس ١٨ مدرسة في الدوحة في عام ١٩٥٦ ، وفي ذلك العام زار اثنان من الخبراء المصريين في مجال التعليم قطر ، وقدما دراسات وتوصيات كان لها الأثر الفعال في تطويره ، وتحول كتّاب آمنة محمود إلى أول مدرسة لتعليم البنات في ١٩٥٦ ، وافتتحت أول مدرسة في الخور ١٩٥٢-١٩٥٣ ، وفي العام التالي في الرويس .

(٢) السيف : الشاطيء .

البشعة ، والغيلان والمردة والرجال الأغراب! وبالرغم من ذلك فقد وقعت عائشة في المحظور . لم تعد على حافة الخطر بل وقعت في لذة المغامرة ورهبة المعصية ؛ معصية أهلها وتربيتها ومخاوفها!

كان صالح بن أحمد مقرفصا تعبث أنامله بالرمل المختلط بالحصى ، لم يلتفت إلى عائشة برغم أنه سمع وقع أقدامها الحافية (نسيت من العجلة أن تنتعل شيئا في قدميها) تحتك ثيابها وتخترط ، حتى وقفت بمحاذاته تماما .

ربما كان خائفا ألا تكون هي ، ولكنها كانت تعلم بأنه صالح ذلك الشخص الذي يرقب البحر أمامه مولياً ظهره لها ، تحجبهما السمادة(١) عن الأنظار ، وكانت دقات قلبها تصم آذانها وغاب العالم ؛ غاب أبوها وإخوتها وأمها ، ولم يعد في مركز وعيها واحساسها إلا ذلك الجسد الذي يكور غترة مصفرة على رأس كبيرة .

وقالت بصعوبة : مساك الله بالخير .

لم يلتفت اليها صالح بل امتدت يده وأمسكت كاحلها ، فخارت قوى عائشة واثاقلت على ركبتها بجواره . شلت تماما بينما كان صالح فوقها يلثمها في وجهها ورقبتها كيفما اتفق .

عندما عادت عائشة إلى بيتهم تنهب الأرض نهبا ، لم تنتبه حتى إلى تغطية وجهها وهي تجري لاهية عن كل شيء من داعوس(٢) إلى داعوس .

---

(١) السمادة : مكب النفايات لأهل الحي .

(٢) داعوس : زقاق .

لم تدر كيف وصلت حتى وجدت نفسها في حوش[1] بيتهم (وكان خاليا لحسن حظها) ، أغلقت باب حجرة أمها عليها وكانت أشعة الشمس تدخل من الدريشة[2] الموازبة ، وتكشف أمام المرآة الوحيدة في حجرة أمها وأبيها وجه عائشة معفراً بالتراب ، وبضع خصلات نافرة ، وقذال ملتصق بعرقها على جبهتها الباردة ، ضربت بكفها على ساطرها[3] لتنفض الرمل ، ولكن لم يزل ثمة تورم طفيف في شفتها السفلى . ظلت عائشة أياما وأسابيع تتوقع أن يتبين عليها آثار الحبل الناجم عن ذلك العناق والقبلات (التي كانت أقرب إلى العراك منها إلى التشابك الحميم) .

لم تستطع عائشة أن تستفهم عن تلك الأمور ومن ترى سوف تسأل ؟ لقد سمعت كثيرا من الحزاوي[4] والسوالف من أمها ، والتي كانت تؤكد أن اختلاء الرجل بامرأة معناه سلبها شرفها ، حيث تهمس أمها بصوت متحشرج (وقام عليها يا كافي الشر ولعب بحسبتها) ، وتحبل البنت بعدها بنغل[5] يدينها ويفضحها ، ويشين بالعار سمعة أهلها إلى سابع جيل .

---

(١) حوش : مدخل غير مسقوف .

(٢) الدريشة : النافذة .

(٣) ساطر : خد .

(٤) الحزاوي : الحكايات .

(٥) نغل : المقصود ابن حرام .

لقد تنجست عائشة بلعاب صالح ، وقد انقلب فوقها عدة مرات وهي تدفعه دون أن تستطيع صده ، بل لعلها لم تقاوم بقوة وصلابة ولكنها لم تعرف ماذا تفعل حينذاك! ولذلك تغلب عليها شعور الذنب والإثم فتمكنا منها .

لليلتين متاليتين تصرخ عائشة فزعة من منامات كابوسية ، وطلبت لها أمها ماء(مقريا)[1] فيه ، وتباحثت مع خالتها وراجعتا معا أسماء من مر من النساء على بيتهم ممن يحتمل أنهن(نظلن)[2] عائشة بعين حارة ، وانتبهت أمها إلى أن عائشة غدت امرأة وعرضة للنظرات ، ومع ذلك لا تستطيع الأم حجبها عن العيون ، لأنها تعرف بان البنت سلعة يجب أن تعرض ، وكسوة لا بد أن يفلّها السايم[3] وقد تروقه وقد يطويها!

بدأت عائشة تستعيد اللحظات في تفاصيل حادثة (السيف) بتركيز وأناة ، وكان هناك مذاق آخر للذكريات ، مذاق استلبه الخوف وأفسدته المفاجأة ، ولكنه يعود الآن في سياق مغاير . تأخذها رعشة واحساس طاغ بالسعادة ، بل إنه يسعها الآن أن تتذكر أن لصالح ثقلا ورائحة وأنفاسا وأثرا مغايرا على جسدها! وذلك كله يجعل من صالح حقيقة موجودة معها ولا تكاد تفارقها .

لقد تعجل صالح على عائشة وروّعها دون أن يكون عازما على

---

(١) مقريا : قرىء فيه قرآن للاستشفاء به .

(٢) نظلن : نظرن بعين حارة .

(٣) السايم : من يسوم السلعة رغبة في شرائها .

أمر مبيت أو تكون هي مستعدة لخطوته الفجائية . لم يتحين صالح الفرصة ولم يكن يدبر أمراً ، بل إنه لم يستحم يومها وذقنه لم تكن حليقة ، وأصابعه تحجرت وهو يضغط على رقبتها وكتفها لكي يثبّتها! لقد فقد صالح أعصابه! كأن سعيراً شب فيه عندما اقتربت منه ، وعندما لمسها وتهاوت قربه كان مكتوياً بليال طويلة أسهده التفكير فيها ، ولم يستطع أن يبعد صورتها عن ناظريه . لم يستطع أن ينام أو يأكل أو يجلس أو يقرأ! كان يروح ويغدو ويتحدث إلى الناس بقلب فارغ . أصبح يلتمس ملامحها في كل وجه يلقاه أو ينظر إليه ، مع أنه يعتقد جازما بأنه لا شبيه لعائشة ولا نظير لها في النساء .

عندما عادت عائشة إلى البيت شاحبة بل صفراء كحبة ليمون ألقت بنفسها على فرشتها! نادتها أمها مرارا فلم تجب فتركتها أمها وشأنها . تقلبت يمنة ويسرة ، اضطجعت على بطنها ، استلقت على ظهرها وكان صوت وجيب قلبها يصم الآذان ، فكيف لم يسمعه أهل البيت! استغرق أهلها في النوم على مراقدهم وتصارعت في رأس عائشة أفكار مبهمة ونوازع غريبة ، ولم تهجع سوى وقت طلوع الفجر عندما تعالى نداء الأذان . في الأيام التالية أقضت مضجعها تلك الأفكار والأحاسيس التي لم تستطع لها صدا ولا ردا . لم تكن تنام سوى سويعات قليلة بعد طلوع الفجر ، وتقوم على انتهار أمها وزجرها ، متضعضعة من أثر السهاد والقلق .

تعلم عائشة بأن جسد البنت أمانة يجب أن تحرسها ، ولكنها لم تتعلم كيف تفعل ذلك ، لاسيما عندما يوجد في داخلها إحساس يسوقها دون أن تدرك كنهه ، ومشاعر لا تقوى على صدها

أو حتى التعبير عنها! كان الحب أملا في حياة عائشة أحست بطعمه اللذيذ المسكر، وأصبح صالح هو الحياة الوحيدة الممكنة؛ فتحت لقاءاتهما المختلسة و(المكاتيب) المتبادلة والكتب (المهربة) إليها، وأمامها، نحو العالم طريقا لاحبا، لم تكن قد فطنت من قبل حتى إلى وجوده.

كم كانت تتمنى لو أنها كانت قادرة على قرض الشعر أو حتى على انشاده بحرية، كما تفعل أمها في بعض الليالي فتهيّض مكنونها الخافي. سألت أمها في إحدى الليالي مجددا عن الفيحاني[1].

تنهدت الأم وقالت: الفيحاني قتلوه قهرا. عشق مي وما زوجوه مي!

وأنشدت أمها:

شاربٍ كاس الهوى رايب ختيم
دايخٍ في حبهم ميت حرام
فصلوا لي بالسقم ثوب السقيم
من على راسي تحدر للابهام
مايداوي علتي بدواه ديم[2]
لو يداويها قدر ستين عام

حدثتها أمها مرارا عن الفيحاني؛ مذبوح الوريد، قتيل الحب،

---

(١) هو الشاعر القطري محمد بن عبد الوهاب الفيحاني.

(٢) ديم: L.Daim أحد الأطباء الذين عالجوا الشاعر الفيحاني في مستشفى الإرسالية الأمريكية في البحرين.

وعشقه لمي ومعاناته ومرضه وقصيده وموته ، ولكنها هذه المرة سألت أمها : ومي ؟

- مي!

- ايه . مي واش سوت ؟

- مي في بيت أبوها جاها الخطاب وراحت في نصيبها!

لم تجرؤ عائشة على طرح السؤال الذي دار بخلدها (هل أحبت مي الفيحاني وهل كانت تريده ؟ هل حزنت عليه ؟ وهل بكته؟) ولكنها شعرت بأن ذلك لا يجوز فالبنت ، بنت العرب الاجاويد ، لا يجوز أن تحب وتعشق! أشاحت عائشة بوجهها لتخفي دموعها وتصنعت النوم (سوف تبكي من أجل مي لأن مي حرمت من ذلك) .

جاشت التصورات والعواطف في قلبها واصطرعت الأفكار في عقلها الصغير ، استغربت عائشة من أمها هل هي الشخص ذاته الذي يتحدث نهارا مع خالتها وجارتهم أم عيد عن فضائح البنات (الخافجات)[1] أليس الحب عيبا ؟ فلم تتحسر أمها على حال الفيحاني وتتعاطف معه وتلوم شانئيه ألأنه مات؟ ألأنه رجل وشاعر ؟

هل عرفت أمها الحب ؟ لم تر أمها قط تثني على أبيها خيرا ، ولم تشهد يوما حديثا رقيقا متبادلا بينهما ، بل إن أباها لا يكاد يجلس إلى أمها أو يتحدث معها إلا لتخبره بأمر أو تشكو إليه

(١) الخاطئات .

العيال . ولم تسمع أباها يدعو أمها باسمها قط ، فدائما يناديها : يا هييه! ولم تسم أمها أباها باسمه بل تشير اليه بقولها : أبوكم ، أو أبو عيسى . والحق أنها تنطقها بنبرة جافة! ترى ماذا كانت تناديه قبل أن يولد بكرها عيسى؟ يطوف ذلك أحيانا ببالها ، وتتعجب عائشة من كل تلك المواويل والحكايات التي تحفظها الأم وتنشدها برقة وتغنيها بأنين ، لأنها قصص تدور جميعا حول العشق .

والهيام ؛ إنها أناشيد تجّيش العاطفة وتزرع الحب في النفوس فكيف يمنعونه بعدئذ ؟ تلك أسئلة سرعان ما تنساها عائشة . لا تستطيع عائشة أن تبدي استغرابا أو استنكارا كبيرا ؛ لأنها عاشت تلك الأمور بوصفها حقائق في الحياة ، وتقبلتها وعهدتها كإشراقة الشمس وطاعة الوالدين والخوف من الله . تكره عائشة مثلا أعمال السخرة التي تنهكها طوال النهار ، وتتبرم منها وتود أن تتأخر يوما في النوم ولكنها لم تفكر يوما أن تتمرد أو تعصي! اذا أعرضت عائشة عن تلك الأعمال فمن سيقوم بها اذاً ؟

وجاء الحب ليصوغ كيان عائشة وأفكارها وتأملاتها وأنشاها خلقا جديدا . لم تعد تلك البنت الساهية البليدة الحس التي لا تعي في داخلها إلا حسرتها وغيرتها من أختها منور[1] التي تصغرها بعدة سنوات ، ولذلك لم تزل تدرس بالمدرسة وتخرج تلعب في الطرقات! اكتشفت عائشة في تلك المشاعر الجديدة التي اصطخب بها فضاؤها الصغير واحتوتها في قفصها الصدري غبطة

(١) تصغير منيرة .

غريبة ، غبطة الهوى الحبيس والإلـم المستعذب! وكانت تصعد إلى السطح بعـد صلاة العشاء لتعد (الفرش) لأبيها وإخوتها في ذلك الليل اللدن بعصارة الرطوبة والوحشة (قبل ان تدخل المكيفات بيوت أكثر أهل المرقاب) .

وبينما يلقي أفراد أسرتها أعضاءهم المتعبة على فرش مبللة بلعاب الصيف وسرعان ما يهجعون باستسلام .

كانت عائشة تستلقي على مرقدها في الحوش بقرب أمها وإخوتها الصغار ، وتتأمل السماء التي لم تخل يوما من نجومها في سماء المرقاب الصافية ، وتموج في صدرها المشاعر وتتشعب أحلام اليقظة حتى يدغدغ النعاس جفنيها ، وتستسلم له دون أن تدري وكانها تؤدي طقساً لا يشاركها فيه أحد سواها . لم يعد مرقدها هو فراش التعب الذي ترمي عليه بجسد خامل بل فراش الأحلام والتأملات . صارت تكتب إلى صالح كل ليلة ما يعن على بالها بحبر سري ، وبأقلام ملونة ، وبحرية تبوح بكل ما تريده تنقشه نقشا على الهواء وتنفخه فيطير .

إلى صالح في بيتهم على الجانب الآخر . لم تعد عائشة تحترز من استعادة مشاعرها بالنهار ، وأصبحت تستعيد وجه صالح وتحلم به ، وتعيش ملياً تلك القصص الرومانسية في الأفلام العربية التي كانت تشاهدها كل ليلة خميس في (تلفزيون) بيت خالها ، وتتقمص الشخصيات في الروايات التي عرّبها محمود تيمور والمنفلوطي ، برغم ما تجده من ألفاظ وجمل صعبة تتلمس معناها من سياقها المعنوي والعاطفي . أما الكتب التي كان صالح يرسلها

إليها مع جبر تهريبا ، فقد اعتادت أن تخبئها تحت طويات الفرش وفي الحشيات المفتوقة ، وأكبر خشيتها أن تقع في يد أحد من إخوتها فلن ينطلي عليهم أنها من كتب المدرسة القديمة . أشعرها إحساسها بأنها تطلع على ما لا يجب الاطلاع عليه ، بوجودها وفرادتها ، وبخطورته التامة ، فتلك «معرفة» تتعارض مع المعرفة التي سنّها المجتمع وكرسها الموروث ؛ إنها معرفة «ممنوعة» في ذلك الوقت في الخمسينيات . تختلس عائشة القراءة بين الأوقات ، وفي الليل في العتمة أو تحت الغطاء على ضوء فنر[1] قريب ، وأصبحت تميل بمرور الوقت إلى مزاج صامت وعزلة متزايدة ، وحالة أقرب إلى الحزن والتفكر والشرود . هل كان أهل المرقاب على حق ؟ هل خرب التعليم حياتها وأفسد تفكيرها وجعل منها إنسانا آخر !!

---

(١) الفنر : فانوس يعمل بالكاز والفتيل .

هذا الحلو كـــاتلني يا عـــمـــة
فـدوة اشـقـد احـبـه واريد اكلمـه
انت اشلون عمتي! بيه ما افتهمتي؟؟

لميعة توفيق (مطربة عراقية)

ينام العـيـال[1] الكبـار في المجلس ، وتنام أخـواتهن البنات والصغار مع أمهم وأبيهم في حجرة واحدة عندما ينطفىء الغيظ ولهيبه . وتستمع عائشة وإخوتها الصغار عادة إلى سوالف أمها وذكرياتها كل ليلة تقريبا (مع تحويرات طفيفة في كل مرة) ، أخذت الأم تسرد عليهم ذكريات سنوات البطاقة[2] أثناء الحرب العالمية الثانية حين شحت المؤن الغذائية وانعدم أكثرها ، وكان أبوها مستندا إلى الجدار يشارك في الحديث أحيانا ، وإن كان يبدو زاهدا

(١) العيال : الأبناء الذكور .

(٢) سنوات البطاقة : بطاقة التموين . وضعت الحكومتان ؛ البريطانية والأمريكية ، نظاما للدعم الاقتصادي وتوزيع الغذاء من عام ١٩٤١-١٩٤٣ عرف باسم مركز تموين الشرق الأوسط . وتولت وزارة الأغذية في دلهي تزويد مشيخات الخليج والمنطقة الشرقية ، وإمدادها بكميات من القماش والحبوب والأرز والشاي والسكر ، التي كانت ترسل مباشرة للحكام . ظهرت في قطر فئة من ==

فيه ، قد يصحح للأم أو يسأل باقتضاب عن بعض الأمور .

التفت أبوها إلى الخلف متبرما وقال : ما فاز بها إلا المدعاسي العود ، يهرّب التموين ويبيع العبيد على الشيوخ .

وأردف : جا الخير من الله . . وطلع البترول ولكن البيزات[١] في خزاينهم !

لم يزل أهل المرقاب فقراء ، ولم يزل المرقاب على حاله الكسيف[٢]! تذكر عائشة كلام جارتهم أم عبيد بأن هناك أناسا يحصلون على جواعد وأرزاق بسبب التصاهر مع أسرة الحاكم . في ذلك اليوم نظرت أم عبيد صوب عائشة وقالت : لو أن شيخاً يمر في

= المهربين وازدهرت تجارة تهريب المواد الغذائية التي كانت ترسل لتوزع حصصا متساوية على الناس . وكانت قطر تحصل على ١٥٠٠ كيس من الحبوب (القمح والشعير والدقيق) شهريا ، ويتم تصدير ٧٠٠ كيس تهريبا! وكانت حصة قطر من السكر ٢٠٠ كيس يتم تهريب نصفها ، وكانت حصتها من الأقمشة ٣٠ بالة توزع ٧ بالات ويهرب الباقي ، كان التهريب يجري يوميا بين قطر والبحرين عن طريق ٣-٤ قوارب محملة بالأكياس ، بل رصدت وثائق بريطانية ؛ أن شحنات خرجت من الهند في ٢٤ سفينة من أكتوبر ١٩٤٣- إلى اكتوبر ١٩٤٤ كانت متجهة إلى قطر ، ولكنها لم تصل أبدا إلى وجهتها بل وصلت إلى جنوب إيران بأوراق مزورة .المصدر :موزة الجابر .

(١) البيزات : الفلوس .

(٢) الكسيف : الحال الرقيق الفقير .

المرقاب ويخطب عائشة فهي بحق (مركوبة شيخ)[1] ، أشاحت عنها عائشة بوجهها ، وسبتها في سرّها سبا قبيحا ولو أنها التفت إلى أمها لرأتها تقلّب كفيها (دلالة الحسرة!!)

سمعت عائشة من صالح أيضا كلاماً عن إيراد النفط وما أحدثه من تغيير في أحوال الكويت ، وما جرى فيها من إصلاح! وعن حق الشعب المسلوب في الإيرادات التي تصب في الحسابات الخاصة ، وعن أمور أخرى سببت لعائشة هماً وكمدا ، وقد استعادت ذلك الحديث مراراً لاسيما عندما كانت تسمع والديهما يتجادلان ليلاً وإخوتها نيام!

سألها صالح مرة : هل تخافين يا عائشة ؟ ولم ترد عليه! لا يستطيع المرء حقا أن يخذل القلب الذي يحبه ويخلص له ، لاسيما إذا كان هو نفسه تحت رحمة الحب أيضا . عندما تلتقي عائشة بصالح متحينة الفرص المعدودة ، ومتجرئة على إرسال مكاتيب بيد طفل صغير أخرق هو جبر (فاهي[2] القلب) . فإن عائشة تجازف وبصورة يومية تقريبا بأن تصبح إحدى شخصيات الحزاوي التي ترويها أمها ، والتي غالبا ما ينتهي مصيرها دمويا ومأساويا!

ودت عائشة لو أخبرته بأنها عندما تلتقي به تنسى كل شيء ولا تسأل نفسها ما سوف يحدث لها! وأنها تحس بالحزن والموت عندما تفارقه!

---

(١) مركوبة شيخ : تليق بالشيخ بعلاً .

(٢) فاهي : ذاهل .

وأنها عندما تعود إلى البيت وترمي بنفسها على أقرب دوشق[1] فقد كانت تشعر حينئذ بالرعب يجتاح كل كيانها ، وتسأل نفسها كيف خرجت؟ وكيف تقوم بذلك العمل الجنوني وما عواقبه ، وماذا لو لمحها أحد من الحي؟ ماذا ستقول لأبيها ؟ ماذا سيفعل بها إخوتها عيسى وحمود وسالم ؟ وتسأل نفسها بأنفاس مبهورة هل أنا عاشقة ؟ وهل كان ذلك سؤالا أم عجبا ؟

بلى هي تخاف! وتكره عائشة خوفها وتتعايش معه ، ولكنها تحتمي بوجود صالح وحديثه وأفكاره وأحلامه ، وتخاف أن تخسره ، وتخاف أن يرى خوفها في عيونها فتخسر نفسها!

فتح لها صالح كوة على العالم خارج المرقاب ، وبدأت الكوة تصبح نافذة وتتسع ، وبدأت الفتاة الصغيرة تكبر وتطول قامتها وتطل على ما حولها بفضول وجذل . أصبحت تضع ساعديها على النافذة التي تحولت إلى شرفة ، وتطيل النظر بلا حذر ولا ارتواء .! لقد انتقلت اليها «العدوى» مما حولها! المرقاب كله يفور ويمور بالحركة ، والمظاهرات تقطع هدوئه بين الحين والحين .

لقد تغير قلبها وتغيرت حياتها وتغير العالم من حولها واتسع ، وأصبحت تسأل عما يحدث ؛ لأن ما يحدث هناك في قناة السويس أصبح مهما ومؤثرا هنا في قطر .

---

(١) دوشق : مرتبة أو فراش .

غياب الشهود

لم يتطوع جبر للقيام بدور (المطراش)[1] غير الرسمي في المرقاب، ولكنه خلق لذلك الدور.. تقريبا! وهناك سواه من الأطفال الذين (يسعون) في خدمة أهلهم لكن جبر كان مختلفا! لقد كان مجندا لتلك المهمة وكان أبرعهم! (بسبب طفولته وبسبب تلك البلاهة البادية على كامل هيئته)، ولو لم يكن جبر مطراشا فماذا كان سيفعل عوضا عن ذلك؟

حتى صالح كان يرسله بلفائف وكتب إلى عائشة، ويرسل معه منشورات وأوراقا إلى رفاقه، وكان صالح يجزل لجبر العطاء ويكافؤه على كل توصيلة يقوم بها. لم يُر جبر قط إلا لائثا[2] في الطرقات أو لاطيا بقرب المقبرة الشرقية فيناديه صالح ويعطيه (الأمانة). يساعده في دسها تحت ثوبه المتسخ ويقول له: هله هله[3] بالأمانة وبياض الوجه.

دخل جبر بيوت أهل المرقاب كلهم، دخل حجراتهم واطلع على ما فيها، ورآهم في كل أحوالهم. يدخل متلصصا أو هابطا من السطح أو متسللا. وإذا كان أهل المرقاب يعجزون عن صد القطط عن دخول بيوتهم فهم أكثر عجزا عن منع أولاد الحي من الدخول والخروج من بيوت مشرعة الأبوب نهارا وخالية من أهلها تقريبا حزة

---

(١) المطراش: المرسال.

(٢) لائثا: هائما متجولا.

(٣) هله هله: الله الله.

الضحى ، فالرجال في السوق ، والأشغال والنساء مستغرقات في الحديث أو النوم تعويضاً عن قيام الغبشة[1] أو مشغولات في بعض العمل المنزلي الذي تقوم به عادة أكبر البنات في الأسرة .

إذا لم يسمع أهل البيت صراخ العيال أو أصوات خطواتهم في تحارشهم ومطارداتهم فما يدريهم بوجودهم ؟ إنهم كالجن ، غير أنهم ينشطون في النهار ، ولم يكفهم شرور أولئك الشياطين الا المدرسة التي افتتحت حديثا ، فجعلت من المرقاب مكانا هادئا في رابعة النهار .

يعرف جبر أحوال أهل المرقاب ويطلع على أسرارهم كلها يوميا! لكنه لا يدرك حقا معنى ما يحدث أمامه! لا يعرف ماذا يدور ولا يفكر فيه ، ولا يبالي بالحديث عما رأى أو سمع ، كما أنه لا يحفل كثيراً بالدخول من الأبواب بل يتنقل بين الأسطح لأنها تسليه أكثر ، وتكفيه شر السباب والضرب من الكبار ، فالفرجة آمنة من أعلى أحواش البيوت المتلاصقة .

قد يتلصص أحيانا وبعفوية تامة ، وقد يبصبص فيضع عينه على الشقوق في البيبان[2] الخربة (لأن الثقوب موجودة وتغري بالنظر من خلالها) ، فيرى بلا تعمد ولا غرض الكثير من عورات البيوت التي يجب ألا يراها أحد . قد يكون جبر طفلا وأبلهاً في نظر البعض ، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يستشعر الضيق من بعض

---

(١) الغبشة : قبيل الفجر .

(٢) البيبان : الأبواب .

الأمور! ومن بعض الناس! فيتجنبهم ولا يدعهم ينفردون به ؛ لأن لمستهم قاسية ، ولأن نظراتهم حادة .

لم ترسله أمه إلى المدرسة بالرغم من أنه تجاوز السابعة ، قالت بأنها تخشى عليه من العيال الكبار وبأنها تحتاجه! يبدو جبر طفلا هادئا ومختلفا عن سواه ، فهو لا يجاري الأطفال في لهوهم ، يوحي منظره بأنه طفل متأمل ولكنه كان طفلاً مهملاً ومنزوياً ومتروكاً! تحتضن أمه طفلاً رضيعاً وتنتظر آخر قادم في بطنها المكور ، يجلس جبر قرب أخته شروف[1] وهي ترتق عباءة أمها حزينة ساهمة شبه غائبة عما حولها ، ثم يروح إلى أمه التي تجالس النسوان كل ضحى ، فتطرده لكيلا يطيح في طبق صغير أعدته لجاراتها من الكرثي[2] ، وينهره إخوته الكبار بعيدا ولا يعدمون سبباً لكي ينال من أحدهم (طرقاعة)[3] على رأسه ، ثم تنهال عليه الأسئلة «وين رايح القايلة[4]؟ وش كنت تسوي عند دكان عبدول ؟ ليش واقف تكلم المصبنة[5]؟ متى بتصير رجال ؟؟ روح! راحت روحك» .

كانت علاقته الأقوى بمقبرة المرقاب الشرقية ، ففي النهار تغدو المقبرة مكانا ساكنا يأوي إليه جبر ليأكل ما حصل عليه أو سرقه

---

(١)شروف : تصغير شريفة .

(٢) الكرثي : الأقط .

(٣)طرقاعة : ضربة .

(٤) القايلة : القائلة .

(٥) المصبنة : المقصود شلة غير محمودة الأخلاق .

من زبيب أو كسرة خبز أو برميت[١] نفحته إياه عائشة .

كانت المقبرة تستره وتحميه وتواسيه ، فحولها سور مجصص ، خرق فيما بعد في كلا جانبيه ليتسنى للعابرين اختصار الطريق أو ربما لاستخدام المقبرة في أغراض خاصة! يقطع جبر المقبرة متحرزا أن يدوس على رفات المقبورين ، فقد كان ذلك حراما ، أما في المساء فلم يكن يقرب المقبرة بعد المغرب حتى في الليالي المسفرة . يأتمر جبر بما يقال له ما دام يتقاضى كروته[٢] ، ولا يدرك فحوى الأمر ولا أهمية ما ينقله ، وذلك جزء من دوره اليومي في طرقات المرقاب ، ولا أقول إنه يحسن أداءه بل يكاد يوفق أحيانا ويفشل في أحيان أخرى .

أرسله صالح مرة إلى عائشة فوصل بيت أهلها ، ودز[٣] الباب (المردود)[٤] ، ودخل بخفة مستطلعا فإذا بعائشة جالسة أمام طشت[٥] الغسيل تغسل ثوب أحد إخوتها .

ولما رفعت رأسها ورأته التفتت حولها قبل أن تنهض وتمسح كفيها في ثيابها متشوفة إلى استلام مكتوب[٦] . اقتربت منه وهمست :

---

(١) البرميت : الحلوى .

(٢) كروته : أجرته .

(٣) دز : دفع .

(٤) المردود : الموارب .

(٥) طشت : طست .

(٦) مكتوب : رسالة .

- معاك شي ؟

-لا

- ليش جاي ؟

- لج

قالت بلا صبر

-زين! واشتبي؟

- يقول لك صالح . .

- ايه

- يقول لك . . . . نسيت!

- وشو اللي نساه ؟

- لا . . انا اللي نسيت واش قال لي .

احمر وجه عائشة وتمالكت نفسها ودفعته نحو الباب

- رح انشده[(١)] وتعال خبرني . . عجّل . .

هز رأسه بالإيجاب وخرج جبر مسرعا حتى إنه وضع طرف ثوبه في ثناياه وانطلق عائدا إلى صالح .

عاد جبر بعد قليل غير أن عائشة لم تكن حينئذ وحدها ، أبصرها تعصر الثياب وأمها قد عادت من جولتها الصباحية ، وحتى أبوها كان حاضرا يتقهوى[(٢)]! تجمد جبر في مكانه ينقّل عينيه بين القوم الذين التفوا جميعا إليه . قالت الأم مخاطبة عائشة : ماعون

---

(١) انشده : اسأله .

(٢) يتقهوى : يشرب قهوته .

أم أحمد خذوه ذاك اليوم ؟

قالت عائشة متقطعة الأنفاس :

- ايه يمة . يمكن يبون شوية ملح والا بزار .

اقتربت عائشة من جبر ونترته من كمه وهي تقول له بصوت مسموع :

وش قالت لك أمك يا جبور ؟

- هاه ؟

جرته عائشة نحوها وهمست

- قل! اخلص! واش عندك ؟

وأسر لها شيئا في أذنها

كانت عائشة قد حضرت (خطاً)[١] أخرجته بخفة من عبها وأودعته كف جبر ثم اغلقتها . قالت عائشة بصوت يشوبه بعض الاضطراب : امه مطرشته تبغي ملح .

ردت عليها أمها :

- اشعاد .

أعطته عائشة مخروطا ورقيا ملأته ملحا ورافقته حتى الباب ، سمع جبر صوت أمها يقول : سلم على أمك .

ولكنه لم يستطع أن يرد لأن عائشة أغلقت دونه الباب .

كانت ليلة حالكة الظلام عندما انقطعت الكهرباء مجدداً في صيف المرقاب الطويل ، وذلك في أواخر الستينيات ، وأرسل بو

---

(١) الخط : الرسالة .

فلاح جبراً بفنر كاز إلى زوجته الجديدة . هل كان الفنر غير محكم الإغلاق ، أم أن جبراً الفاهي لعب به أثناء خببيه ؟ النتيجة واحدة وهي أن الكاز انتثر على ثوب الصبي ، وعندما وصل عتبة البيت تعثر فأمسكت النار بكمه ، ثم شبت في كامل ثوبه وسمع المرقاب قاصيه ودانيه ، شرقيه وغربيه ، صراخا لم يطل . مات جبر ودفن في المقبرة الشرقية ؛ المكان الذي آواه كثيرا في حياته! مات أهم الشهود وأخطرهم ، وماتت معه أشد أسرار المرقاب حلكة . . وقبحا .

***

كحصت[1] شريفة فزعة من نومها . لم تخبر أمها بحلمها كالعادة! رأت الحلم نفسه الذي لاحقها منذ ليال . سمعت تهامس عمتها لأمها . شعرت بانقباض كبير في صدرها . لم تحب شريفة عمتها بعدئذ حتى توفيت تلك العمة ، بعد ذلك بأكثر من أربعين سنة!! لأنها ربطت بين صورة عمتها وبين تعاستها بصورة أو بأخرى!

رأت ثعبانا كبيرا يتلوى ثم يلتف حول جسدها ، ويتسلل إلى تحت ثيابها ثم يدخل في ثقبها بقوة وصرخت . في صباح ذلك اليوم ؛ يوم عرسها ، قالت لها أمها : اقعدي يا شريفة لا تشتغلي اليوم . أطاعت دون أن تسأل . تعودت شريفة البنت الكبرى أن تطيع ولا تسال ، لاسيما عن تلك الأمور التي تشعر بانها تعني أمراً غير عادي . كانت تخشى من الجواب أكثر من فضولها لمعرفته . لم

---

(١) كحصت : فزّت .

تخبر أمها بحلمها ، أحست بالخوف وخشيت أن يكون له تفسير مخجل! الأحلام لا تحكى لكيلا تتحقق .(ولكن ذلك الحلم تحقق بالرغم من كتمانه) .

تغدّت ذلك اليوم في صحن منفصل عن إخوتها وحتى أخوها الصغير جبر منع من الدخول عليها! أما في عصر ذلك اليوم فقد أدخلتها أمها الحجرة التي أعدت منذ أيام وأغلقت عليها الباب . جاءتها أم فارس ودون أن تتكلم معها قامت بازالة الشعر الزائد (في الأماكن التي سمحت لها شريفة بالوصول إليها) ، ومشطتها بعد أن دهنت شعرها ووضعت الحناء في يديها ومسحت باطن قدميها .

ثم دخلت عليها خالتها وقالت لها كلاماً عن البنت التي تكبر وتعرس وترزق بعيال ، وكيف أن تلك هي سنة الحياة ، وعليها أن تبيض وجه أهلها وتستر كل ما يجري بينها وبين رجلها ، وتصبر وتحتسب عند الله .

لا تدري لم أحنت رأسها طوال الوقت . جاءتها أمها وحدثتها بصوت مهيب ورقتها[1] وأخذت توصيها : (توضئي وضوئك للصلاة ، ادفعي عن نفسك ما وسعك ولكن لا تصرخي ولا تؤذي نفسك يا ابنتي! إذا غالبته وغلبك فقد كفيت والله يعينك على اللي بعده . أليني نفسك وعضي على طرف فرشتك والله يجعل بكرك ولدا) ، ثم شرعت تقرأ المعوذات وتنفث في باطن كفيها المضمومتين ، وتمسح بهما على رأس شريفة وأجزاء من جسدها .

---

(١) رقتها : أخذت ترقيها بالرقى .

كان قلب شريفة يدق بعنف واعتراها خوف شديد ، ولكن لم تقو على السؤال ولم تعرف ماذا تقول! بل أحست بالخجل .

لم تقاوم شريفة! لقد تركت وحيدة في ظلام الحجرة تنتظر غولا أو مجهولا سيان ، وكانت تتوقع أن يخرج رأس الثعبان الضخم ثم يزحف نحوها كما جرى في حلمها ، تكومت في طرف من الحجرة ودست رأسها عندما سمعت الباب يفتح ويغلق ، وسمعت حسيس ثوب يقترب . لم تدر كم مر من الوقت لأنها أغمضت عينيها واستسلمت ولم تع حتى صرختها التي خرجت من فمها ، فقد انفصلت منذئذ عن جسدها وصارت تكرهه وتكره كل ما يفعل به .

لامت شريفة نفسها دائما لأنها لم تقاوم في تلك الليلة! لم تخبر أحداً بما حدث ، لكنها شعرت بأنهم جميعا يعرفون ما حصل ويعرفون ما حل بها! لقد كان أمر المقاومة في الحقيقة إلهاءً للعروس لكي تغفل! ولكي تتخفف من خوفها أكثر منه تحريضا لها وتوقعا لنصر محتمل! فالمعركة محسومة منذ البداية ، ولكن يروق الأهل أن يخرج العريس صباح الدخلة مخمش الوجه مجروحاً ويحمل آثار عض أو كدمات ، الأمر الذي يشهد ببسالة العروس ويبين عزم العريس وظفره بمبتغاه برغم الصعاب .

هل نسيت شريفة ليلة عرسها ؟ ربما غاصت كالحجر الثقيل في أعماق لاوعيها ، ولكنها تسمرت هناك في منطقة مركزية وتحكمت في كثير من مشاعرها وتقلباتها ومعاناتها اللاحقة . فات شريفة أن تقاوم حسن في ليلة العرس ، لكنها عزمت - لاشعوريا - أن تقاومه

بقوة وعناد في بقية سنوات زواجهما الطويلة .

كم كرهت شريفة أم عبيد وتلميحاتها عندما زارتهم بعدها بيومين ، وغمزت لها بعين أطفا بريقها الرمد : (العرس زين يا بنت؟) وتلوت تلك الحيزبون متضاحكة بفم أدرد . تجد أم عبيد لذة لامتناهية في نفث ذلك السؤال في وجه شريفة كلما التقتها في الشهور الأولى من العرس ، وكأن عبوس شريفة وإشاحتها عنها ، يزيدها اصرارا وينخزها للمعاودة . صارت شريفة تختبىء عندما تسمع صوت سعالها أو خطوات نعلها وهي تدلف الحوش ، فتقترب أم عبيد من حجرة شريفة وهي تصفق وتغني :

شريفة من مثلها

تبي الباشا رجلها

لا تعرف شريفة لم يقدم الناس على ذلك (البلاء) ، وكيف تصبر النساء على ذلك (القرف) ، وتعجب من ذلك القدر الذي يلاحق الناس ويسيطر على حياتهم .

كرهت شريفة حسن وعجزت أن تجد تبريرا لتلك الكراهية . لم يكن حسن سيئا ولا قاسيا معها ، برغم برودها وصمتها في تلك الأيام الأولى من التقائهما على فراش واحد ، بل كان صبورا وراغبا . امتنع عن التدخين في البيت ، ارضاء لها ، كما أنه اجتهد في الاستحمام والعناية بلحيته التي ظن بأنها تتقزز منها (والتي لم تكن توازي لحية أبيها أو أخيها عليان طولا وسوءا ، كما كان يقول حسن في سره) ، أصبح حسن يحمل مشطاً صغيراً في جيب ثوبه ليشذب لحيته كلما نفرت زوائدها! أما كثرة الشعر في ظهره وصدره

وساقيه فلا يمكن أن تلومه عليها، لأنه لا يستطيع شيئا بشأنها. كرهت شريفة نفسها يوما بعد يوم، وبمرور الوقت شعرت بأنها لا تستحق حسن، وأن العيب فيها لا فيه، وأن الله سيعاقبها آجلا أم عاجلا!! لماذا هي ليست كسائر النساء! إن النساء جميعا لا يقرفن من ذاك (الشيء)، إنها تكاد لا تصدق أن أمها تفعل ذلك مع أبيها!

لقد صدمتها الاكتشافات المتعاقبة، وكانت شديدة الوقع على حسها البريء الأملس، لم تستطع التأقلم أو القبول! ودت لو يمكنها الاستيقاظ من ذلك الكابوس الذي استمر وانتهت حياتها الأولى فجأة وبلا رجعة. عاشت شريفة في كمد يومي دون أن تستطيع أن تعبر أو تشتكي أو تشير حتى للأمر أو تذكره أمام أحد لاسيما أمها، وليس لها من رفيقة فهي الصموت العبوس.

لقد جلست لماما إلى النساء لأن البنت العذراء لا تقعد وتستمع إلى حديث النسوان، وفاتها أن تستعلم عن تلك الأمور من رفيقات اللعب اللاتي كن يتساررن دونها بالكثير ويتضاحكن، وهي لاهية وساهية. لم تعرف شريفة شيئا من أمور الدنيا! لم تسمع من أمها شرحا ولا توضيحا (فالبنات لا تفتح أعينهن على أمور الكبار)، لم تسمع إلا تذمر أمها وشكاواها من بخل أبيها، ومن شدة العوز الذي يعانونه! لامت أمها أباها لأنه لم يصبر على شغل الشركة فلم يلبث ناطوراً في الشركة إلا شهراً ثم فنّش[1] وقعد في البيت كالنسوان. اعتادت شريفة أن تسمع أمها تنال من

---

(١) فنش: ترك العمل.

أبيها ، وكان ذلك يؤذيها لاسيما عندما تفشيه لجاراتها . لم تنتبه شريفة أن ذلك ما تفعله أكثر الحريم ؛ الشكوى من الرجال ، فالحال شحيحة والنساء يطالبن بحقوقهن وحقوق أطفالهن ، ولكنها لم تكن تهتم اذا دخل حسن عليها البيت بيد مملوءة أو بيد خالية ، على خلاف أمها وأبيها اللذين كانا يهتمان بذلك ، لأنه كان يقيم معهم في البيت . لم تكن شريفة تخشى سوى أن يرخي الليل سدوله ويحضر شيطان حسن .

لم تدرك شريفة أن علاقة الرجل بالمرأة تتجاوز تلك النجاسة ، فكل ما تعرفه ووعت عليه أن الرجل خطر قائم على شرف البنت! فقد قامت التربية والموروث بدوريهما لكي يضمنا سلامة البنت وعفافها ، فغرسا في نفسها أمرين ؛ الخوف والتقزز من الرجل (وخداعه وأسلحته وأعضائه .)

بالرغم من ضبابية الأمور وتميعها فإن الأمور كانت لصالح أفضلية الذكور ، فإخوتها من البنين نالوا أوفر الحظوظ في الراحة والإعفاء من الخدمة ، ولهم السهم الأوفى من اللقمة والكسوة والحرية ، فضلا عن الاهتمام والمحبة والتفضيل فلماذا تعين عليها اذاً ان تخاف مما لديهم ، بدلا من أن تحسدهم على أنهم ولدوا (به)!!

انتقلت مع حسن بعد ولادة طفلها الأول إلى حي الرفاع . استأجر حسن بيتا صغيرا لأنه ضاق ذرعا بمعاملة أبيها وتطفل أهلها وفضولهم .كادت أن تموت خوفا كسمكة أخرجت من بحرها إلى نهر . . لكنها لا تستعذبه! مرت عليها الأيام الأولى في قلق وتوجس ، تغلق بابها بعد خروج حسن فجراً إلى عمله في مركز

الشرطة ، وتبكي معظم الوقت حتى يعود (لأنها لا تجد ما تفعِله غير ذلك!) حتى قيض الله لها جيرة أم محسن ، كانت امرأة عمانية جذابة حكاءة مزاحة ، وبرغم قصرها وهزالها كانت لديها عينان حادتان ولسان ذلق ، تضايقت شريفة في البداية من فضولها ولجاجتها وحديثها المتدفق وزياراتها المتكررة ، بل إنها شعرت بالحنق والغيرة ؛ لأن حسن يتوقف للسلام عليها ويتبادلان حديثا غير قصير لا يخلو من الممازحة والتلاعب بالألفاظ!

تستغرب شريفة من هذه المرأة المطلّقة الوقحة ، ولكنها كانت تحسدها فحسب وكانت في الواقع تغار عليها لا منها ، فهي الصديقة الوحيدة التي امتلكتها على الإطلاق .

أثبتت أم محسن إخلاصها لشريفة بالمودة والنصح والمعاونة وبادلت شريفة - لأول مرة - شخصا آخر من البشر مشاعر الصداقة والمودة ، وإن لم تستطع أن تبوح بشيء من مكنونها ليس بسبب خجلها فحسب ، بل لأنها كانت عاجزة عن التعبير أصلاً عما في قلبها . توطدت بينهما المعرفة ولم تعد شريفة تستطيع الاستغناء عن أم محسن كل يوم تصبّحها وزوجها غائب نهارا في عمله ، وتمسيها عندما يخرج حسن إلى بعض أولاد عمه في مجلس قريب في أم غويلينة . كانت أم محسن ، بالرغم من قلة نصيبها من الجمال ، امرأة مكتملة الأنوثة ، تحب التزين لا تلبس من القماش إلا ما كان فاقع اللون ، وتتحدث كثيراً عن أمور المخدع بتحرر وجرأة غير معهودتين في محيط النساء في قطر!

في حين لم تكن شريفة الفتية سوى بنت عابسة بوجنتين

غائرتين ، لها ملامح دقيقة في وجه شاحب تطالعك فيه لأول وهلة عينان واسعتان في محجرين غائرين ، وشعر فاحم السواد منسدل على متن ناحل في هندام مهمل .

تدخل عليها أم محسن كل يوم في وقت الضحى الباكر وتصيح بها منذ أن يطل رأسها من فرجة الباب : شروف سرح رجالك؟[1]

ثم ترمي عباءتها قبل أن تتم طيها على أحد المساند[2] وتكشف غطاء القدر وهي تقول : وش طابخة اليوم ؟ تقولها كل يوم بالنبرة ذاتها وبشكل طبيعي بلا أدنى فضول . لولا مجيء أم محسن لظلت شريفة تلوب[3] وحيدة تعيسة بين قدرها على الكولة والحائط الملبد بالسناج ، بينما تعلق طفلها على خصرها مفشوح الساقين كانت شريفة تتأمل في وقتها المنساح ، أشكال اللطخات على الحائط وراء الكولة[4] فترى في كل مرة وجوها وصورا تستدعيها ذاكرتها من أيام اللعب على السيف ، وفي أزقة المرقاب .

وكان طفلها الرضيع لا يكاد ينام من فرط الآلام التي تسببها الغازات الحبيسة في بطنه ، وربما لم ينم بسبب جوعه لأن لبنها لم يكن يوما مشبعا . كانت شريفة تنتظر أم محسن بفارغ الصبر! لكي

---

(١) سرح : خرج صباحا .

(٢) المساند : ما يتخذ مسندا .

(٣) تلوب : تجول .

(٤) الكولة : موقد بالكاز .

تاخذ الصبي و(تمرخه) وتمسد بطنه بلمسة من زيت دافىء، ثم تبطحه على بطنه عاموديا على طول ساقيها القصيرتين، وتهدهده بأغنية يشبه لحنها الأنين

الله من واحدٍ عطاني عهوده
خوان عهد الله كذوب وعيّار
اقفت ركابه صوب سلْت الديود[1]
وعذره يدوّر حبارى وطيّار

ثم تجلس لتسرح شعر شريفة المنفوش وتضفره. كانت أم محسن امرأة خبيرة، امرأة كاملة، امرأة من طراز مختلف، ولكن رداءة حظها أوقعتها في زيجتين فاشلتين؛ الزوج الأول كان ضعيفاً ودمية بيد أمه التي سلطته عليها حتى طلقها، والزوج الآخر اكتشفت خيانته فطلبت الطلاق، ولما رفض أن يسرحها بإحسان هربت من بيته في أبو ظبي وراحت إلى أهلها في دبي وحلفت ما ترجع. كان لديها منه ولد، ربته في حجرها حتى بلغ السادسة ثم انتزعه أبوه لكي ينتقم منها ليس إلا!

جاءت أم محسن إلى قطر بسبب الفاقة وضيق ذات اليد في دبي، ونزلت عند أختها التي تزوجت قطرياً لذلك باتت شريفة تخشى أن تغادر أم محسن يوما إلى بلدها، فهي لا تتصور أن تفارقها يوما. أصبح دخول أم محسن عليها يحيي الموات في قلبها، وأصبحت المهام المنزلية المملة تسلية فائقة بمشاركة شخص ودود لا

---

(١) الديود: الأثداء.

تغادره روح الدعابة ، وصارت شريفة تتسقط منها أخبار (الفريج) ، حكت لها أم محسن عن جاراتها في الحي وعن تلك الفلسطينية التي نزلت جارةً لهم مع زوجها وستة من أولادها . عندما تجمعت بعض النساء في الحي ، عزمن على زيارة الجارة الجديدة . أخبرتهن المرأة الفلسطينية بقصة تهجيرهم ، وما فعله اليهود ، وما عانته الأسرة في ترحالها ، عبر الأردن إلى العراق ثم عودتها إلى الأردن ثم العزم على الانتقال إلى قطر ؛ لأن زوجها العبد وجد عملا عن طريق أحد أقاربه .

تلفتت الحريم نحو بعضهن البعض وسألوها باستغراب : العبد زوجك ؟

فأجابت : إيه! العبد زوجي! وواصلت سرد حكايتها!

لم تلحظ زوجة (العبد) بأن النسوان يتنهدن ويمصمصن شفاههن كلما أتت على ذكر زوجها العبد!

وذات يوم دخل إلى البيت رجل وصفق وتنحنح ، وعندئذ قالت لهن : ما عليكن! هادا زوجي العبد! فإذا به رجل يقطر البياض من صفحة وجهه! ما أكذب تلك المرأة! هل كانت تخشى عليه العين والحسد ؟

تخلت شريفة بمرور الوقت عن حذرها وأصبحت تترك الباب مواربا لكي تدخل أم محسن دون أن تصلاها شمس الضحى . وذات يوم شرعت أم محسن تتكلم بصراحتها المعهودة ، وأخذت تسهب في ذكر تفاصيل أثارت تقزز عائشة ، حتى إنها قامت حياءً من مكانها وتشاغلت بطي الملابس ، ولما أظلم الليل ورقد حسن

بجانبها ، طافت تلك الخيالات في ذهنها ، فلم تستطع منع نفسها من التقيؤ على الفراش! اصطحبها حسن في الصباح إلى المستوصف وأخذوا عينات للاختبار ، واتضح بعد أيام أن شريفة حبلى ولم تكن قد فطمت رضيعها بعد .

عندما كانت شريفة في العاشرة من عمرها مرت عليها صويحباتها نادتها سويرة[1] من وراء الجدار . وأرادت شريفة أن تخرج إليهن ، ولكن عليها أن تنهي ما في يديها من عمل ، وأن تعتني بأخيها الصغير ؛ لأن أمها خرجت وخلفتها وراءها . أطلت من فرجة الباب ووجدت البنات قد اجتمعن ، بنات المرقاب كلهن .

نادتها سويرة :

- شروف!

- لبيه .

- غربلج الله وش تسوين ؟ وش لابسه؟

- بخنقي[2]! أمي عزّمت علي ألبسه .

التفت سويرة حينئذ إلى الأخريات وقالت بصوت مسموع :

- بتقعدين في البيت يا معلوقي .

نكست شريفة رأسها منكسرة العين أمام بنات المرقاب .

أحست منذئذ أنها لا تريد أن تكبر!

وراتهن ينصرفن وهن يتضاحكن! عادت إلى الداخل وهي لم

---

(١) سويرة : تصغير سارة .

(٢) بخنق : ملبس قديم إضافي ، فوق الثياب ، له غطاء للرأس وضافٍ على النحر .

تزل تراهن في خيالها! يستدبرن بيوت المرقاب صوب (العسيري) ، سوف يسرن ويتبادلن السوالف ، والأخبار والحكايات ولن يوقفهن تعب ولا ظمأ إلا مواجهة البحر فحسب .

لم تكن شروف كما تدعوها رفيقاتها مسلية ولا فطنة ولا عذبة السوالف مثل سويرة ، مثلا تلك التي كانت كأمها تتبع السالفة بالأخرى بلا كلل وملل ، لم تكن تتوقف إلا لتبلع ريقها! تجلب سويرة أم العلوم معها المرح أينما سارت وفي جعبتها أخبار المرقاب من مصادرها مباشرة (من التصنت على سوالف أمها مع جاراتها) ، سويرة هي زعيمة البنات بارعة سريعة البديهة وقوية الملاحظة ، ترد على كل من يعترض طريقهم من رجل أو امراة بلسانها العضب .

بعدها أقعدت شريفة في البيت وتكور جسدها وتدوّر تماما كما توقعت أمها! وبعدها طرق الخطاب الباب وأبوها يردهم لصغر سنها ، فحتى الشيخ ابن جلمود لن يبرم عقد الزواج والبنت لم تحضْ بعدا! وأمها تتحسف[(١)] على الفرص الضائعة! وعندما تقدم اليها بو فلاح خاطباً ناحت الأم : بو فلاح ما ينعاف[(٢)]! زوجّه يارجال! وقل له يصبر عليها ؟ قال الأب بحزم : خلي بنتك عندك وبيجيها نصيبها ، وخطب بوفلاح عند غيرهم ودخل على زوجته الثالثة . لم تعلم شريفة بأمر الخطبة إلا عندما تشاجرت مع أخيها جسوم فقال لها :

---

(١) تتحسف : تتحسر .

(٢) ينعاف : يكره .

إن شـاء اللّه نفـتك[1] منك لين صـرتي عند رجلك! فنهـرته : اذلف[2] عني . لم ترد شـريفـة أن تغـادر أمـهـا وأباها وتروح إلى أغراب ، كانت تخاف الرجال وتحترس من الاقتراب منهم وتحذرهم ، ولكنها لم تع بعد أين مكمن الخطر .

عندما حبسوها عن المدرسة وعن الخروج مع رفيقات اللعب كادت شريفة أن تموت حزناً وكمداً ، وأحست كطير وقع في الفخ . ظلت تفكر في المدرسة في تلك النهارات الأولى الطويلة وكأنها تكافح لتكون موجودة هناك بروحها ، وتكاد تلمح ست آمنة[3] تسير الهوينى بهيئة مهيبة ، وبخطوات سريعة تتفقد البنات في صفوف مدرسة البنات في الدوحة . افتقدت كذلك الغداء اللذيذ (الخبز والبيض والموز) ، وافتقدت الدروس وسوالف البنات وضحكهن ، افتقدت كل شيء حتى وجوه الفراشات ورائحة المدرسة . صدقت شريفة خرافات الحكايا وسوالف (الأولين) وعاشتها في وجدانها . قالت لها أمها مرة :

- صه!
- وشو؟
- تصوّخي! تسمعين ؟
- لا

---

(١) نفتك : نتخلص .

(٢) اذلف : أغرب عن وجهي .

(٣) آمنة : هي آمنة محمود الجيدة رائدة تعليم البنات في قطر (رحمها الله) .

- ونين!

- من اللي يوّن ؟

اخبرتها أمها بأن الدنيا عجوز عمرها آلاف السنين ، ولو أصخنا السمع لسمعناها تئن ولو لمرة واحدة في حياتنا .

لم تسمع شريفة سوى أنين تلك العجوز يرافقها ويملأ أسماعها ، التي صمّتها عن سوى ذلك مما يجري حولها!

عاشت شريفة عازفة عن التفكير ؛ أي تفكير في أي أمر من الأمور(لم يستثرها في الحقيقة أي أمر للتفكير فيه!) لم تعرف أمورا كثيرة ولم تحفل بالسؤال عنها ، ذات يوم أحضروا ورقة إلى المدرسة وراحت المعلمة تسأل البنات واحدة تلو الأخرى ما مذهبك ؟ وتسجل الإجابة ، ولم تعرف شريفة ما معنى الكلمة ولا ما مذهب بيتهم! ولما رأت بعض البنات من بيوتات المرقاب الكبيرة اخترن مذهب ابن حنبل سارت على اثرهن فلابد أنه الاختيار الأصوب .

كانت شريفة حيية جدا ، الأمر الذي أسعد أمها فتركتها على سجيتها ، واطمأنت بالا ، فوجئت شريفة يوما بدم على سروالها في المدرسة ، فخرجت لا تلوي على شي مروعة هلعة ، ركضت أكثر من كيلومترين حتى وصلت بيتهم ، وألقت نفسها في حضن أمها وحينئذ أخبرتها أمها بأنه دم يعتاد النساء شهرياً ، وأعطتها خرقة وعلمتها أين تضعها . لم تعد شريفة إلى المدرسة في اليوم التالي ولا في الأيام التي تلت ذلك . أحست يومها بالهوان والخجل ، واختبأت عن عين أبيها طوال اليوم! وكأنما ارتكبت عاراً! لطالما حذرتها أمها من أمور معينة ؛ نهتها عن اللعب مع الأولاد ، وكانت

تطيع ولا تلعب مع الصبيان ، وحذرتها من القفز والتسلق لكيلا تتأذى ولم تعرف ما الأذى المخوف ، ولكن ها قد وقع الأذى! وقع بالرغم من الطاعة والحذر والحرص! وقع رغما عنها وعن إرادتها فجسدها لا يطيع ولا يراض! ان جسدها يتغير ويضطرب وتحس بافرازات غريبة كريهة . وعندما حل بها الحيض كأنما حلت بها مصيبة!

لم تعلم شريفة بأن الدم قدر المرأة ؛ في حيضها وليلة عرسها ، وفي مخاضها وفي نفاسها عاما بعد عام . عالم شريفة هو عالم الخوف من الدم! هو عالم مسور بالخوف ، فالجن تترصد لخطواتها ليلا ، وفي النهار يسرح شرار الإنس فضلا عن الجان الذين يتمثلون بصور الحيوانات ؛ أو تلك الشياطين المركبة من أجساد جن وأنس معا ، مثل أم حمار . امرأة لها حوافر حمار تظهر في وقت القوائل .

لطالما كرهت جسدها الذي لاحقتها أعباؤه طوال حياتها ؛ لقد أهملته وتجاهلته وقمعته ولكنه يصر على المثول أمامها ، ثقيلا في كل تفاصيل حياتها المديدة . كرهت في البداية نهديها اللذين بزغا بعناد وأصبحت تخفيهما بانحناءة كاد أن يتقوس - بسببها ظهرها - وتحتودب وأصبحت تلبس البخنق داخل البيت وتضفيه على صدرها -عارها البارز - ومحط أنظار الناس من حولها ؛ فالجميع ينظر اليه ؛ إخوتها وأقرباؤها والجارات الفضوليات .

لم تستطع شريفة لسنوات عديدة وطويلة أن تتصالح مع المعاشرة الزوجية ؛ فضلا عن أن تستمتع بتلك الأمور المقرفة التي

يزاولها الأزواج منذ عهد آدم وحواء!

وشعرت بالحزن مزدوجا فهي لا تستحق حسن ولا تصلح له ، ولا تصلح لأي شيء .

كان حسن يعاني الحسرة العميقة فقد طار فرحاً بخطبة شريفة ، وأحس أنه فاز بها بعد أن غلبه الخوف من فقدانها ؛ وقد أتى بسياقها فوق ما اتفق عليه ووضع مهرها كاملاً في يد أبيها . تربى حسن في بيت عمه بعد وفاة أبيه وزواج أمه مرة أخرى ، أخذه عمه إليه ، فهو ولي أمره ، وربّاه في بيته بين خمسة عشر ولدا . تلقى الضرب من كبارهم وتعين عليه رعاية صغارهم ، ولم تسعفه الأيام بحنان ولا رحمة ولا عدالة!

نافس على اللقمة عشرات الأيدي تتلاطم وتتصادم كل يوم في كل وجبة على صحاف لا تسمن ولا تغني من جوع . وكان عليه أن يصير رجلاً وهو ابن سبع سنوات . درس حسن حتى فك الخط وفك قيوده عندما التحق بالعمل في عيادة شركة النفط عند الإنجليزي . ولكنه لم يرتح لشغله بسبب الدوام وزي العمل (كان عليه أن يرتدي اليونيفورم[١]) ، وكره رائحة المستشفى التي التصقت به ، وتعيير أهله له بتسمية الكراني[٢] فالتحق بقوة الشرطة .

عاش حسن متحرراً من التكاليف والمسئوليات وترك بيت عمه وأقام في سكن الشرطة الداخلي (لاسيما أنه لم يكن يبات إلا

---

(١) اليونيفورم : زي العمل .

(٢) الكراني : الذي يكتب ويقرأ للناس بأجرة .

عند زليخة) ، ولذلك لم يصدق زملاؤه وربعه حين أخبرهم بأنه عازم على العرس . راقب حسن شريفة مرات عديدة وهي تلعب مع رفيقاتها . كانت أكثرهن هدوءاً ووداعة . لما سمع ذات يوم أن بوفلاح خطبها أسقط في يده! تكدر حسن وشعر بالخسران! تحسف كيف ترك الفرصة تفلت من يده ، وفرح لما درى بأن أهلها ردوا بو فلاح فلم يطق صبراً! أسرع إلى بيت أمه وأخذها من يدها إلى بيت شريفة خاطبا . قالوا : صغيرة . فقال أتملكها[1] والعرس بعدين . تردد أبوها! ولكن حسن أعلن بأنه : حاضر بالمهر واللي تطلبونه .

بعد أن تملكها أصبح يفكر في شريفة ، وتسرق لياليه وأيامه وتكبر في صدره وأحلامه . أمسك ليلتين عن زليخة ثم سرى إليها ليخبرها بالأمر .

دخل عليها وقال : عندك أحد ؟

وتبسمت زليخة بمغزى غامض وقالت : أتحراك يا نور عيني .

قال : وش دراك بجيتي ؟

أماطت المتكأ الذي يفصل بينهما وجذبت رأسه بقوة إلى حضنها . استسلم لها وهي تفلي شعره . لم ينتبه حسن إلى وجهها الذي اصطبغ بحمرة وصدرها المشحون بالانفعالات . حزم أمره واعتدل في جلسته وقال (أنا خطبت وباعرس) .

أشاحت بوجهها عنه : أدري يا غناتي!

من بين كل بائعات الهوى اللاتي عرفهن منذ يفاعته وأول

---

(١) أتملكها : أعقد القران .

غلمته ارتبط بزليخة وأخلصت له زليخة تقريبا (إلا من بعض العلاقات العابرة في النهار عندما تأمن عدم مروره) وعرف معها كل اللذائذ ، وأعطاها أثمن الهدايا التي يمكن أن تحصل عليها من قماش أو عطر! وربما أحبته زليخة أو فضلته على سواه لأنها ظنت أنه سيكون لها!

لقد تمسك بها حسن وعصى عمه عندما منعه عنها ، قال له الشيبة : (لا تروح للقحاب وانا حي ولا عاد يصلني علم انك تروح البيوت الغربية! الله يرحم ابوك! صدق من قال أن النار ما ترث الا الرماد .)

قام حسن وقبّل خشم العود كما كان يسميه وأعطاه عهداً ، ولكنه نقضه في الليلة التالية . لم يعاود العم زجره! هل صار حسن أكثر حرصا أم هل تعامى العم وتصام عمداً عن الأنباء (فلا يكاد يخفى أمر في المرقاب) لعله فعل ذلك لكيلا يقطع ما بينه وبين ابن أخيه! لقد علم (الشيبة) بأن الأمر ليس مجرد شهوة تكبح فحسب بل انها كرامة حسن وطبعه العنيد الصلب ؛ حسن الذي طالما عصى عمه لكي يستحوذ على اهتمامه ولكي يتميز عن أبنائه ، ولكي يثأر لنفسه من كل حرمان وضيم أصابه في دنيا الناس .

بإمكان زليخة أن تتظاهر بأن عرس حسن لا يعني شيئا! ولكن وجه حسن اليوم يقول شيئا لم ترد أن تفكر فيه!

قالت له : بالمبارك!

وعندما قام متوجها صوب الباب أدركت فجأة أنه يهجرها!

هي التي هدهدته ونام في حضنها سنوات سيتركها من أجل

فتاة غر فاهية . لقد تفرغت له وبذلت وما قصرت في إسعاده واشباعه ، والآن يرمي لها نوطا[1] تحت المسند ويقفي بلا وداع ولا تطييب خاطر!! صاحت فيه وقد دبّر عنها : بترجع يا حسون! فلم يلتفت وحينها . وثبت على ظهره كاللبؤة وأنشبت أظفارها في عنقه واضطر حسن إلى دفعها بقوة إلى الحائط وتملص منها وخرج إلى الطريق .

بينما كانت زليخة تسبه وتسفّل[2] سابع أجداده ، قعدت على قارعة الطريق تنهنه وتردد : «تعافني ترميني . . بكرة ترجع مثل الكلب» .

نسي حسن زليخة ولياليها ، نسي كل شيء في زحمة الانشغال بالاستعداد للعرس . بعد شهرين لم يستطع حسن صبرا فاستأذن من نسيبه في تعجيل الدخلة ، وشاور الأب أم العروس فأخبرته أن البنت حاضت! فأذن لحسن بإحضار الدزة[3] إلى بيت العروس ؛ طاقات من القطن والكتان وقطع من الحراير وعشر من العبايات الزري ، وأخرى عادية وعطور ودهن عود ومراود وكحل اثمد ومرشات وماء ورد وسراويل ، وملافع نقشة وبضعة أغراض أخرى ملأت (شنطتين) ثقيلتين ، أدخلها حسن بنفسه بمساعدة إخوة شريفة في وقت ضحى إلى حوش البيت . وانتقل الخبر عبر

---

(١) نوط : ورقة بنكنوت مالية .

(٢) تسفل : تسب بأقذع السباب .

(٣) الدزة : أغراض يجهز بها المعرس عروسه .

الصغار ونسوان الحي الطوافات على البيوت بصفة السياق[١] ومحتوياته ، وكان الحوار[٢] يرغي مربوطا في الحوطة[٣] ، وجاءت سيارة أنزلت منها خياش الأرز والسكر وكراتين شاي (بو وزة) و(قلال) التمر . دخلت عمة شريفة البيت كالعاصفة ، قطعت المسافة من بيتها إلى بيت أخيها هرولة ، انحسرت ثيابها عن سروالها وهي تنحني على الشنطنتين المبقورتي البطن وتفلي الاغراض تفلية .

وكلما أخرجت غرضا رمت به جانبا وهي تقول (وع! واش هذي الدزة) تفرش العباءة وتفل الطاقة وتتفحص قطع الأقمشة ، وتشتم العطور ، وتفتح المربوط ، وتكشف المستور ، معلنة في كل حركة ، عن عدم رضاها بزمجرة أو همهمة واضحة ، وكانت أم شريفة بقربها تنظر اليها بعينين لا تريمان دون أن تنطق بكلمة اما شريفة فقد أمرتها أمها أن تلزم الحجرة في الداخل (لأن الأمر لا يعنيها بعد) .

أما جبر الصغير فكان مأخوذا بمنظر العمة الحانقة على أمر لم يدركه ، وتعجب من مرآها تدوس الأغراض وهي تروح وتجيء مزمجرة (ما قربتوا إلا حسون الكراني ولد شيخوه ؟ وش

---

(١) السياق : ما يسوقه المعرس لوليمة العرس .

(٢) الحوار : صغير الناقة .

(٣) الحوطة : الحظيرة .

هالشماطيط[1]؟) ، ثم خرجت وهي تتحلطم[2] وعباءتها على نصف رأسها وقد جمعت أطرافها في قبضتها!

كان على الأم أن تنتقي أفضل ما في الدزة ثم ترسله فيما بعد إلى العمة لاسترضائها ، ولكنها لن ترضى أيضا! هل أثار غيظ العمة وغضبها أن حسن لم يخطب احدى بناتها السبع ؟ هذا ما تناقلته الألسن بعد توافد نساء الحي اللاتي تندرن بحال العمة وتشفين منها فقد آذت أكثرهن بلسانها من قبل .

سوف تقوم الأم لاحقا بتوزيع أكثر ما جاءهم من دزة شريفة على بيوت الأقرباء والجيران والحبايب من أهل المرقاب ، ولن يتبقى لشريفة الا النزر الهين! هذا ما جرت به العادات وهو التقليد المتبع!! ترى من أحق بالفرحة بالعرس أهل الحي أم أهل العروس !

وفي الأسبوع التالي أحضر سالم (كنديشن[3]) يركّب أول مرة في بيت شريفة في الخلة ؛ وهي الحجرة التي سوف يعرس فيها حسن ويقيم مع أهل زوجته لفترة من الزمن ، وكان لابد من عمل التمديدات الكهربية . كان حسن يدخل متنحنحا ومتطلعا في كل مرة أن يلمح شريفة (التي أصبح محظورا عليه أن يراها! أو أن تخرج من بيتهم حتى مع أمها) .

---

(١) الشماطيط : ما لا يسوى .

(٢) تتحلطم : تتشكى .

(٣) الكنديشن : مكيف كهربائي .

وكانت المشكلة الأخرى أن كوة المكيف تتطلب خرقا في الجدار ينفذ إلى حوش (بو فلاح) الذي خطب شريفة قبله وردوه أهلها ، وراح حسن يتبعه جبر الصغير يطرق باب بيت بو فلاح ، فجاءهم صوته الأجش مرحباً ودخل الجماعة للمعاينة .

قال بوفلاح في نفسه (امحق جار!) وقال لحسن (هذي الساعة المباركة) لم يكن له من حيلة ، فهذا حق الجار على جاره أن يثقب حائطه ويقض مضجعه بضجيج ماكينة المكيف الكهربائي ، الذي كان صوته أعلى وأسوأ من ماكينة موتور باص عمال الشركة ، الذي يوصل العمال إلى المرقاب كل شهر في وقت الأوف[١] .

لم يستطع الكنديشن أن يلطف الجو بين الزوجين . كانت شريفة يوما بعد يوم تنسحب إلى الداخل بصمت ، ولم تكن تطيق حسن! هذا ما لم يكن بالأمكان إخفاؤه ، ذات مرة اقترب منها وهي تبتعد حتى حاذت حافة الكرفاية[٢] وكادت تسقط فزجرها :

- واشبلاك ؟

- ما بلاي شي . قالتها جزعة

-تعالي دونك

اقتربت قيد أنملة

- أنا ما دخنت اليوم سيجارة انت قرفانة من ريحتي ؟

وجد حسن كل ذلك من شريفة ولم يفكر في زلوخ ولم

---

(١) الأوف : الإجازة الأسبوعية .

(٢) كرفاية : سرير خشبي .

يفتقدها . لقد وقع في شباك الغزالة البرية وعاف كل صنوف الملاعبة المصطنعة ، وألوان الغنج والدلال المصبوغة بالتصنع والفجور! لقد اكتفى من ذلك التكلف والتكسر والتنغم والتفحش واللهفة مدفوعة الثمن . ذلك التملق والسحر الذي تعرف زليخة كيف تمارسه ، ولا يعوزها أبدا وكأنها تغرفه بملاس[1] من قدر حاضرة . إن شاءت منعته وإن ارادت طبختـه على نار هادئة ، فإذا فتر زادت جذوته . تثقل نفسها إذا أبطأت العطايا وتسخو ما كان حسن سخي اليد .

لم تزل (زلوخ) تترصد أخبار حسن ، وربما عملت له عملا أو لشريفة . بعد شهور من الحرمان تسلل حسن ذات ليلة إلى (زلوخ) ، وقبل أن يصل أنبأها الصبي الفارسي الذي يعمل عندها بقدومه ، وقبل أن يطرق بابها كانت تفتح له شراعة الباب وتمسك بالمعضادة ، معترضة طريق دخوله بجسدها . قالت بعتب ولؤم :

- حيا الله من جانا

- اسم الله الرحمن الرحيم وش دراش بجيتي ؟

- جنية يا نور عيني . وش أخرك عنا ؟

- وخري عن الدرب

دفعها ودخل .

- يا جعلك تموت يا حسن!

وانهمرت دموعها وما أقربها!! ترى هل للعاهرة قلب ؟

---

(١) ملاس : مغرفة كبيرة .

لم تبد الأمور كما ظهرت عليه! إنها ليست أبدا كما تبدو!

كانت تلك السنوات صعبة وقاسية! ابتعدت عائشة، وغابت في بيت المدعاسي الكبير، وبعدها توافدت المصاعب إلى حياة صالح. استسلم صالح لأمه وخاله اللذين تآمرا معا لتزويجه من ابنة خاله، تعويضاً له عن رفض أهل الفتاة التي خطبها وردوه أهلها (وأهانوا الجيرة القديمة بين الأسرتين). كان خاله متحمساً بدرجة كبيرة لتزويجه من ابنته (سويرة)، وكانت أمه تريد أن تفرح به فهو الذكر الوحيد بين أربع بنات في بيت لا عائل فيه.. سواه! كان صالح كثير التغيب مستغرقاً في نشاطه الوطني في تلك السنوات الفائرة من الخمسينيات، بينما كانت أمه تلاحق زوجته الصغيرة؛ ابنة أخيها التي تغافلها لتخرج وتلعب مع صويحباتها على (السيف)! لم يحبسها ويمنعها عن لهوها الطفولي الضرب ولا التهديد ولا حتى إغلاق المزاليج، ولكن أقعدها (وحم) الحمل الذي أضعفها وأنهك قواها. وبعد ولادة (وسمية) مرضت سويرة مرضاً شديداً، نحلت واشتد هزالها وسعالها وخافوا أن تكون مسلولة، فعزلت عن باقي الأسرة وانتزعت منها طفلتها. تصر أم سويرة على أن ذلك الأمر الأخير قتل ابنتها، وأن حزن سويرة على فراق طفلتها قد أتلف كبدها! تربت وسمية في حضن جدتها وكانت تظنها أمها، لاسيما أن أباها صالحاً انضم إلى عمال الشركة في دخان وغاب عنهم حتى في الإجازات الأسبوعية. التقى صالح في معسكر دخان العمالي بلفيف من أهل قطر، قدموا من مناطق شتى، ومن كل القبائل والعائلات، تجمعوا وتآخوا وتضامنوا في عدة مواقف

وإضرابـات[1] نظمت تباعاً منذ الخمسينيات ، وفي دخان تعرف

---

(١) الإضرابات العمـالية : افتتحت الخمسينيات سجلا من الإضـرابات المتكررة للعمال القطريين في شركة نفط قطر . أول اضراب قام به العمال القطريون ضد الشركة كان في ٢ مارس ١٩٥٠ في دخان وامسيعيد ، وكان سببه عدم وفاء الشركة بالتزامها بزيادة أجور العمال ، وقام القطريون بالإضراب- وحدهم - دون اشتراك غيرهم من العمال من الجنسيات الأخرى ، ولكنهم تلقوا تأييدا ودعما من زملائهم العمال العرب (الفلسطينيين وغيرهم) . وتجدد الإضراب في ١٨ يناير . في عام ١٩٥١ أضرب العمال القطريون مطالبين بطرد العمال الظفاريين بسبب صدام بين أحد رجال الشرطة وهو ظفاري وعامل قطري . وفي يوليو من العام نفسه رفض (٩٠٠) عامل قطري العودة إلى أعمالهم بعد إجازة العيد بسبب اعتقال السلطات المحلية لستة من العمال كانوا يتزعمون الإضراب ، وفي هذا المرة تضامن معهم عمال غير قطريين كما أغلقت أسواق الدوحة أبوابها تضامنا مع العمال المضربين ، ولم ينته الإضراب إلا بعد الإفراج عن العمال المعتقلين وترحيل الظفاريين في ١٢ يوليو عام ١٩٥١ .

قام السائقون القطريون بإضراب في ٢٦ سبتمبر عام ١٩٥١ نفسه مطالبن بتحسين ظروف العمل ، واشتكوا من سلوك المشرفين البريطانيين معهم . تجددت صدامات العمال القطريين مع الشركة ، وخلال شهر واحد وقعت أربعة حوادث متفرقة في أكتوبر من عام ١٩٥١ . شهد عام ١٩٥٢ العديد من الإضرابات لأن الشركة لم تكن مستعدة للوفاء بوعودها للخارجية البريطانية ، وفي ١٠ اغسطس من عام ١٩٥٢ نظم إضراب قام به العمال القطريون والهنود في مسيعيد ، وانتهى باستجابة الشركة لمطالبهم . أعلن العمال في ==

صالح إلى سالم أهم القيادات العمالية وأكثرها تأثيراً في حياته .

ما لبث صالح أن عاد بعد سنتين إلى الدوحة ، ترك شركة نفط

== ٧ سبتمبر اعتزام الإضراب الذي بدأ مساء في مسيعيد ، وفي اليوم التالي أضرب عمال دخان مطالبين بزيادة قدرها روبية مع الحصول على وجبات مجانية و١٥ يوما إجازة سنوية مدفوعة الأجر . وفي ١٠ سبتمبر شمل الإضراب جميع العمال حتى الهنود ذوي الأجور الشهرية ، وكذلك الباكستانيين ، عرض الشيخ إحمد على العمال مقترح الشركة بمنحهم زيادة قدرها ٨ آنات ، ولكن العمال أصروا على زيادة روبية واحدة ، وهنا أعلن الشيخ أحمد- بمبادرة منه -بأن على الرافضين من القطريين أن يعودوا معه إلى الدوحة ، وأما العمال العرب فهددهم بالترحيل من البلاد ، فتم إجلاء ١٧٠٠ عامل قطري إلى الدوحة بإشراف الشيخ أحمد والمستر كوكرين رئيس الشرطة المحلية . في ١٩ سبتمبر اجتمع الشيخ أحمد مع المضربين وأخبرهم بأنه لاضمانات بشأن الزيادة ، وطلب منهم العودة إلى العمل ، وفي اليوم التالي تقدم المضربون بطلب الحصول على جوازات سفر لمغادرة البلاد ولكن رفض طلبهم ، وترتب على ذلك اندلاع اضطرابات في السوق ، وألقي القبض على المضربين واضطر عدد كبير من المضربين إلى العودة إلى العمل . جاءت إضرابات عام ١٩٥٥ عنيفة وقوية بسبب استمرار السياسة التعسفية وسوء الأوضاع .

وفي عام ١٩٥٩ أخذت إضرابات مايو وديسمبر من العام نفسه شكل عصيان مدني ، وكان على درجة فائقة من التنظيم ، وضم عمال شركة نفط قطر ، وشركة شل ، وعمال الدوائر الحكومية ، وعم الإضراب ولأول مرة كل ==

قطر والتحق مجددا بالمدرسة ، بتوجيه وتشجيع من سالم نفسه الذي واساه مودعاً : سنفتقدك لكنك ستنفعنا هناك . . وتنفع

== أنحاء قطر ، بل استطاع العمال منع الشيخ أحمد من دخول مسيعيد ، كما قطعوا المياه عن قصر الريان ، وعندما استخدم الشيخ أحمد حراسه الخاصين الفداوية في ضرب العمال في مسيعيد لم يزدهم إلا إصرارا وتذمرا .

٣ اغسطس ١٩٥٥ وقع إضراب في دخان ، ووقع صدام وقاموا بتوزيع ١٢ منشورا في ١٢ اغسطس يحث الشيخ خليفة على تبني مطالبهم وتأييدهم ، وفي ١٤ أغسطس قدموا عريضة بمطالبهم إلى الحاكم .

إضراب ١٦ أغسطس ١٩٥٦ ، خرج المضربون في دخان وامسيعيد في حشود ، وأرغموا الجميع على التوقف عن العمل ، وانتقلوا إلى الدوحة ، حيث اشتركوا في المظاهرات العامة التي خرجت مؤيدة لمصر . قامت الشركة باتخاذ أول إجراء من نوعه ضد المضربين ، بعد أن حصلت على موافقة الحاكم ، وهو حرمان المضربين من أجورهم عن أيام الإضراب .

إضراب نوفمبر في عام ١٩٥٧ في دخان وامسيعيد ، الذي استمر من ٢٣ إلى ٢٧ نوفمبر ، وطالب العمال بزيادة أسوة بزيادة الشركات الأخرى في أرامكو وكوك ، ورفض طلبهم ، وكان لرفض الحاكم تقديم العون والمساندة للعمال أبلغ الأثر في إنهاء الإضراب .

وقعت إضرابات مايو ١٩٦٠ بسبب سياسة الاستغناء عن العمال وإلغاء العمل بعقود العمل . في إضراب أكتوبر ١٩٦٠ تم احتواء الموقف بفضل الموقف الصارم للشيخ أحمد ؛ فقد قام حرسه المسلحين بقيادة السيارات الحكومية بأنفسهم وسجن خمسة من المضربين ، وكذلك في إضراب نوفمبر ١٩٦١ لم ==

نفسك . سمعت أن الشركة عازمة على تسريح بعض العمال ، وأنت ما زلت يافعاً! رح المدرسة تنتظرك .

في بضع سنوات فقط ، كبر صالح كثيراً ، وفي تلك الفترة من عمره سيعيش صالح أطول مما عاش في سواها ؛ لأنها السنوات التي أصبحت محوراً لحياته وذكرياته وعلاقاته وشخصيته التي عرفها ويذكرها الناس عنه!

عندما قرر صالح قبل ذلك ، أن يترك المدرسة ويعول أمه وأخواته ، كان مثل الكثيرين الذين اجتذبتهم فرص العمل في شركة نفط قطر . وفي تلك الفترة لم يقبل أكثر الفتيان على التعليم لأنهم كانوا يعولون أسرهم أو لأنهم لم يأبهوا بالتعليم ؛ فقد وصل بعضهم إلى سن البلوغ وخط شارباه على وجهه وأغراه العمل لدى الشركة بسبب الحصول على أجور . وعى الفتى صالح ولأول مرة ما يسمى مطالب الحركة العمالية في نادي عمال النفط في دخان ، من خلال الأحاديث والنقاشات والمجلات العربية اللبنانية ،

== تتم الاستجابة لإجراء مفاوضات مع العمال ، بل أصدر الحاكم الشيخ أحمد بيانا شديد اللهجة ، وأعطى الشركة تعليمات صريحة باستخدام القوة ضد المضربين ، وأذعن العمال وعادوا دون شروط ، إلا أن الإضرابات استمرت ، وكان آخرها إضراب ١٩٦٩ ، حيث أضرب عمال شركة شل مطالبين بزيادة الاجور ووضع سياسة لتدريب القطريين وإحلالهم محل الأجانب . المصدر: أطروحة للدكتوراة للباحثة موزة الجابر بعنوان (التطور الاقتصادي والاجتماعي في قطر ١٩٣٠-١٩٧٣)- مركز الوثائق والدراسات الإنسانية الدوحة ٢٠٠٢ .

والمصرية . انخرط صالح في الحركة العمالية منذئذ ، في الوقت الذي صعد فيه نجم عبد الناصر وبزغت الحركة العربية القومية . وعندما اندلعت حرب السويس في ١٩٥٦ كان صالح على رأس المشاركين في المظاهرات التي قدمت من مناطق النفط حتى وصلت إلى شوارع الدوحة ، ومشى في مقدمتها يهتف في طرقات المرقاب ، وسارت المظاهرة المتعاظمة صوب السوق ، وقام المتظاهرون ، وهم في مقدمة الركب ، بحثّ أصحاب الدكاكين وتحريضهم على الإغلاق ، تضامناً مع المظاهرات التي غمرت البراحة والشوارع الضيقة كالسيل ، وسرعان ما تجاوب أصحاب الدكاكين والمحال ، وحتى النساء خرجن إلى الطرقات ينظرن بتعاطف وفضول ، واعتلى بعضهن رؤوس الأسطح .

عيّن صالح في البداية متدرباً في مدرسة الشركة ، ثم أصبح مساعداً لأمين المخزن في مسيعيد[١] ، وقد أصبح فيها ميناء لتصدير النفط . لم يكن صالح وقتها يعود إلى المرقاب في (الأوف) الأسبوعي . ثم ما لبث أن أصبح نائباً منتخباً لرئيس نادي العمال في مسيعيد ، وشارك بهمة في جميع النشاطات الثقافية والاجتماعية التي يقوم بها النادي .

اشتغل القطريون في أعمال متواضعة في الشركة ، فهم عمال عاديون وغير مهرة (عمال مستشفى وخفر ونواطير وسائقون ومساعدو ميكانكيين وبرادون ودهانون وحدادون) ، وتقاضى

---

(١) تبعد مسيعيد (٣٠) كيلو مترا عن الدوحة .

المياومون أجراً يومياً لا يتجاوز الروبيتين ، بينما حظي العمال الشهريون ببعض العلاوات برغم قيامهم بالعمل نفسه . وكانت ظروف العمل والحياة سيئة بكل معنى الكلمة ، فمياه الشرب لا تكفي ، والطعام كذلك ، وقد تعرض العمال القطريون للفصل التعسفي ، وكانوا يقيمون في أكواخ رديئة وقذرة ، بحجة أن أعمالهم مؤقتة وغير ماهرة ؛ كانت أكواخاً من الباراستي barsti ، يقيم في الكوخ (٨) أفراد ، أحيانا يطبخون وينامون ، وبعضها كان في حالة يرثى لها . وكانت الشركة تدعي بأن القطريين يفضلون أكواخ (الكولان) على البيوت الخرسانية! بينما كان العمال الشهريون يقيمون في بيوت أفضل ، كما كانت بيوت العمال المهرة من الهنود والباكستانيين جيدة ، بينما أقام كبار العاملين في الشركة في مساكن توفرت فيها أجهزة التكييف ومغاسل ومكتبة وألعاب بلياردو وكروكيه وتنس وألحق بمساكنهم مستشفى للخدمات الطبية يعمل فيه طبيبان بريطانيان .(١)

(١) شكل القطريون أنذاك حوالي ٥٠٪ من إجمالي القوى العاملة بالشركة ، بيد أن معظمهم يعمل بنظام درجات المياومة ، وكان الهنود يشكلون ما نسبته ٢٨٪ أقل من نصفهم في الأجور الشهرية ، والباقي فئة الأجور اليومية .ثم بدأت الشركة تستغني عن العمال بعد اقامة المنشآت الأساسية في البنية التحتية . فانخفض عدد العمال القطريين منذ عام ١٩٥٠ وازداد عدد العمالة الأسيوية ، لاسيما الهنود ، فمع بداية العمل الاستخراجي كانت الحاجة إلى الأيدي المدربة ، كما كان العمال الاسيويون أكثر اطاعة لتعليمات الشركة . المصدر : أطروحة الدكتوراة لموزة الجابر .

ولم يكن العبيد[1] قد أعتقوا في منتصف الخمسينيات فالتحق بعضهم حينئذ رجالا وصبيانا بالعمل في الشركة . أما فيما بعد - في أوائل الستينيات- فلم يبق عبد في ذمة عمه ، وتزامن ذلك تقريبا مع قرار الملك فيصل في عام ١٩٦٢ (عندما كان وليا للعهد في السعودية) ، وفي البحرين حرر (الإنجليزي) العبيد قبل ذلك! وربما شرد بعض العبيد من أعمامهم إلى البحرين ، لاسيما

---

(١) ظلت تجارة الرقيق تمارس سرا حتى بداية الخمسينيات ، وأرادت بريطانيا القضاء المبرم على تلك التجارة المحرمة ، عن طريق اعلان الغاء الرق . في حين رأى الحاكم في قطر الاحتفاظ بحق إعتاقهم لنفسه ، استنادا إلى مبدأ التعويض عنهم ، فقد كانت هناك معارضة من الأسرة الحاكمة التي كانت تملك اكثر من نصف عدد العبيد في قطر ، لذلك برز مبدأ التعويض ، وكان الحاكم على استعداد لدفع ربع مبلغ التعويض من جيبه الخاص ، تلافيا لمشاكل إعلان إلغاء الرق ، لاسيما بعد أن التحق الكثير من العبيد بالعمل في شركة نفط قطر ، بناء على طلب مالكيهم ، وأصبح المالكون يتلقون دخولا منتظمة ، الأمر الذي اعترضت عليه بريطانيا في عام ١٩٥٠ ، فأصدر الحاكم مرسوما يسمح باحتفاظ العمال العبيد بنصف أجورهم (ثم استطاعوا بعدئذ الحصول على نسب أكبر من أجورهم تدريجيا) ، وأعلن الشيخ الحاكم في أكتوبر عام ١٩٥١ الوفاء بتعهده ، بتحرير كل العبيد في قطر بعد تعويض مالكيهم ، لاسيما بعد زيادة العائدات وضغوط بريطانيا المستمرة عليه (وقد تم إصدار ٤١ شهادة إعتاق ، وعتق خمسة من أصحابهم بواسطة المعتمد البريطاني ، وأرسل ٩ إلى البحرين والشارقة لإعتاقهم) المصدر : أطروحة الدكتوراة لموزة الجابر .

المثقلين بأعباء العبودية ، ويقال بأنهم أصبحوا أحراراً عندما بلغوا البحرين ، وأمسكوا بعصا ركزها الإنجليزي في الأرض ، فمن بلغها وأمسكها أصبح (زبين) البريطاني وليس لأحد ولاية عليه ، بل قيل بأن العديد من البنات هربن من كنف أهاليهن وأمسكوا بعصا الإنجليزي وخرجن من الوصاية ، وفعلن كما يحلو لهن!!

عاد صالح إذاً إلى المدرسة في الوقت الذي كان فيه الكثير من الطلاب يتركونها ليلتحقوا بالشركة ، بسبب ظروف أهاليهم الصعبة ، وكانت المدرسة آنذاك تبحث عن الطلبة وتستقبلهم في أي وقت ، ولذلك تم قبول صالح قبل امتحان نصف السنة بأيام قليلة ، وألحق بالصف السادس الابتدائي بسبب عمره .

كان طلبة المدرسة في الدوحة يجتمعون وينغمسون في الروح الوطنية انغماسا ، مثلهم مثل عمال الشركة ، ولم تزل أصداء حرب الاستنزاف تتردد في الأجواء في النشاط الصباحي ، ومواضيع الإنشاء والنشاط الصحفي ، وكان الأستاذ زياد خطيبا مفوها ومثقفا قوميا يأخذ بمجامع قلوب الطلاب في إذاعة الصباح .

وكان من المخطط تنظيم مهرجان بعد انتهاء امتحانات نصف العام في عام ١٩٥٧ ، ولما علمت إدارة التعليم بالأمر ، وأن صوراً لجمال عبد الناصر سترفع أثناء المهرجان ، قامت قيامتهم ، فقد كان الأخوان يتركزون في مكاتب إدارة التعليم ويسيطرون عليها .

تباحث الطلبة مع بعضهم البعض ، واقترحوا أن يذهب وفد من الطلبة لمقابلة وزير المعارف . في ذلك الضحى المشهود مر صالح على رفاقه الذين ارتدوا غتراً وعقلا غير منسولة ، قد استعاروها

غالباً ، وكانوا خمسة تعاهدوا أن يمثلوا أكثر من مائتي طالب كانوا ينتظرونهم عندما عادوا من مهمتهم ، فحملوهم على الأكتاف ابتهاجاً بالظفر لما دخلوا حوش المدرسة . عندما دخل الخمسة على وزير المعارف دعاهم بأسمائهم ، واستمع إلى حديث رئيس الوفد الذي اختتم كلمة قصيرة بقوله : يا طويل العمر هذا مهرجان أبناء الأمة العربية ، ولابد لنا من رفع صورة الزعيم عبد الناصر . فقال لهم وزير المعارف(١) : توكلوا على الله وارفعوا صورة جمال . وخرج الطلبة ليقولوا لرفاقهم بأنهم شعروا بأن الشيخ خليفة كان مؤيداً للناصرية في مواجهة الإنجليز .

انشغل صالح ورفاقه الطلبة بالأنشطة الوطنية معظم أوقاتهم ، وأرادوا جمع تبرعات لثورة الجزائر ؛ فقال له أحمد : لن نجمع شيئا! الطلبة لن يأتوا بشيء يذكر من بيوتهم . واقترح فهد أن ينطلقوا إلى البيوت ويحثوا الناس على التبرع . فقال سلمان : كيف نطرق البيوت! وأيدّه سعد : عيب علينا! ليس في البيوت إلا الحريم . . بل نروح للرجال في المسجد . وبدأ الشباب ينشدون خطبا وقصائد وطنية في المساجد ، كما زاروا بعض مجالس الأعيان والتجار للحث على التبرع للجزائر . وتذكر أم صالح أن النساء تبرعن بحليهن القليلة من خواتم وسلاسل (رموها لكي تتحرر الجزائر) من الأجنبي ؛ الجزائر التي ما سمعن بها من قبل ، لكنهن اليوم

---

(١) كان الشيخ خليفة بن حمد ال ثاني وزيرا للمعارف انذاك .

يعرفونها ، ويعرفون أن فيها الأحرار والشرفاء والبطلة جميلة بوحريد .

نظم الطلاب في الدوحة مظاهرة وهتفوا بالشعارات المناهضة لعبد الكريم قاسم والمؤيدة لعبد الناصر ، إلا أن صالحا ورفاقه لم يفلحوا في ذلك الوقت في تأسيس ناد كانوا ينوون تسميته بنادي الوحدة ، تيمنا بأنباء الوحدة بين جمال عبد الناصر وحزب البعث . انخرط صالح تماما في نشاط الحركة العمالية والشعبية ، وتشابكت المطالب العمالية لعمال شركة نفط قطر مع مطالب التحرر ونصرة القضايا العربية .

لم يهمل صالح الدراسة لأنه كان متأخرا - بالفعل - عن سلم الدراسة الاعتيادي . وفي العام التالي اجتاز الصف الأول الإعدادي ، وسافر صالح إلى مصر(١) وألحق بالصف الثالث الإعدادي فوراً ، وحصل على الشهادة الإعدادية من جمهورية مصر العربية ، ثم عاد صالح ورفيقه سلطان إلى قطر في أوائل الستينيات ، اشتغل سلطان في البنك العربي ، ووجد صالح عملاً في وزارة التعليم .

عندما التقى سلطان بصالح في المدرسة الثانوية الليلية اشتكى سلطان من عمله في البنك العربي ، فضلا عن خلافه المستمر مع مدرسين بعثيين جدد قدموا من سوريا في تلك الفترة* للتدريس في المدرسة الثانوية الليلية .

---

(١) لم تكن هناك مرحلة إعدادية بعد في قطر ، والطلبة القطريون القلائل الذين يصلون إلى تلك المرحلة يرسلون إلى مصر .

قال سلطان : انت تعرفني أحب عبد الناصر وهولاء لا يقرون توجهاته الثورية ولا تحركاته! لا أعرف كيف تتعامل أنت معهم ؟

قال صالح :

- ماذا يمنع أن تكون على وئام مع البعثيين وغيرهم؟

قال سلطان :

- قل لي هل تميل إلى هؤلاء أم أولئك!

- أميل إلى العمل الوطني ، وهو يجمعنا كلنا وأنا أحترمهم ، وهذا ما أقدر أقوله عن (بو درياه)[1] .

كان بودرياه المقصود هو الأستاذ محمود في ادارة التعليم الذي ناصب صالح العداء ، وحاول الدس عليه مرات .

قال صالح : إنني أنشد التحرر الوطني والعدالة الاجتماعية . . وأموراً أخرى سنتحدث فيها عندما تزورني الليلة بعد المدرسة وتتعشى من يد الوالدة .

قال له سلطان : عشا حقيقي والا عشا قومجي فول وطعمية وحمص .

- يا متخلف هذاك فطور ما يتعشون به!

وعندما عادا تلك الليلة لم يكن لدى أمه ما تصنع به عشاء ولا حتى مرقة تصنع منها ثريداً ، فأتوا بالحليب (حليب عنز دسم مفوح بالهيل ، ومضاف إليه السكر والشاي) ، وجعلوا يغمسون فيه

---

(١) بودرياه غول بحري أسطوري عدو للغواصين .

الخبز الإيراني الساخن . وعلى غفلة طرق الباب وجاءهم من بيت الجيران صحن صغير من البلاليط ، فوقه نزر يسير من بيضة حمست بالسمنة وخيوط الزعفران ، وخصتهما أمه بالصحن الصغير ، ولن يسد جوعهما ، بينما أخذت أخواته يتلمظن ويكتوين بالحسرة .

تحدث صالح وسلطان عن أمور كثيرة عن الوحدة بين مصر وسوريا ، وعن الإنجليزي في قطر ، وعن الهجرة الإيرانية الكثيفة إلى الخليج ، وكانت هاجساً ملحاً آنذاك ، وكانت بتشجيع من الإنجليز . وقال سلطان : تعرف التكروني ؟ يقول إنه شاف بعيونه يدللون على الجواز القطري! يباع بخمسة روبيات في المرقاب على الشارع!

وأخبره صالح بما سمعه من بعض الأصحاب ؛ أنهم ينوون تأسيس نادٍ ثقافي ؛ فذّكره سلطان بما حصل منذ سنوات مع نادي المكتبة الإسلامية(١) ، وتحدثا طويلا حتى غلبهما النوم في المجلس واستيقظ سلطان فزعاً على صوت مؤذن الفجر ليكتشف بأنه لم يبت في بيتهم ، فأطلق ساقيه للريح عائداً لا يولي على شيء .

---

* تولى ادارة التعليم في الفترة ٥٤-٥٧ عبد البديع صقر ، واصطبغت الهيئة الإدارية والتعليمية باتجاه ديني محافظ . ثم تولاها عبدالله عبد الدايم ٥٧-٥٨ واستدعى مدرسين سوريين من حزب البعث العربي الاشتراكي .

(١) نادي المكتبة الإسلامية ، ناد مهم عكس حركة ثقافية في قطر ، تقدم عدد من الشباب في عام ١٩٥٣ بطلب افتتاح ناد ثقافي فرفض طلبهم ، ثم قاموا ==

حوصر بالدبابات . .

لم يستمر نادي الطليعة الثقافي أكثر من عام ونصف ، حظي ذلك النادي بمسرح ، وقدمت فيه ندوات ثقافية ومسابقات شعرية وأصدر مجلة للحائط . واجتذب النادي المئات من الشباب وكثيراً من الأساتذة العرب والموظفين ، وذاع صيته وغص المكان بالرواد كل مساء . حصل النادي على الكثير من التبرعات لاحتياجاته من أثاث متواضع وبعض المستلزمات . أما الإخوة العرب فقد زودوا مكتبة النادي بأهم مقتنياتها ؛ الدوريات والكتب . وتدفق الشباب للاستعارة فخشيت الإدارة على الكتب ، فأصبحت للمطالعة فقط ، وربما نشبت بعض المعارك النقاشية ذات الطابع الشخصي في أعقاب تلك الخلافات والمشادات المستمرة بين البعثيين والناصريين من الشباب ، ولكن سرعان ما يتم تطويقها ويتصالح أصحابها ويتصافون ، فلم يكن ثمة غنائم يتنازع عليها الفريقان آنذاك ، وإنما هو تناصر وحمية ، وكانوا يغادرون معا إلى بيوتهم مشيا على الأقدام .

وفي يوم من الأيام أهدى أحد الأساتذة العرب إلى النادي

== بتعديل الطلب باسم ترخيص المكتبة الإسلامية ، فتمت الموافقة على الطلب باعتباره المكتبة وليس ناديا . من ضمن أنشطة النادي) ، الذي كان مكتبة فقط ، إلقاء بعض المحاضرات التي تناولت نقدا للأوضاع وضرورة الإصلاح ، ضم النادي مجموعة من الشباب المتعاطف مع ثورة يوليو في مصر والمتحمسين للقومية العربية . درس بعض المؤسسين للنادي في البحرين ، وكانوا متأثرين بالتيارات والأجواء السياسية التي في البحرين . أغلق النادي في عام ١٩٥٦ .

تمثالاً نصفياً لجمال عبد الناصر ، فانطلقت الإشاعات من بعد صلاة المغرب بأن النادي فيه أصنام ، وجاء بعض الرجال يتقدمهم إمام المسجد يطرقون الباب وهم يتعوذون ويبسملون .

ولكن في أحد الأيام ، داهمت الشرطة النادي بعد أن حوصر بالدبابات واعتقل كل من فيه! لم يكن السبب اقامة المسرح! بل كان الاتهام هو أفكار شباب النادي وأنشطته التحريضية وكان الأدهى اتهام المؤسسين بتطوير متفجرات .

لقد حوصر النادي بالدبابات!! فلا عجب أنه كان آخر النوادي الثقافية التقدمية في قطر!

قال لهم الضابط الإنجليزي : فيم تنوون استخدامها ومتى؟

نظروا مبهوتين إلى بعضهم البعض! أية متفجرات ؟

وضع الضابط أمامهم الدليل القاطع ؛ قصاصة كتب عليها (تجربة علمية لمحمد يوسف طالب إعدادي) ، تلك مقالة نشرتها مجلة النادي ، وقد صمم الطالب محمد قطعة صفيح مملوءة بالبارود العادي ، وقد انطلقت في التجربة إلى مسافة عشرة أمتار ونشرت مجلة النادي صورة لها!!

في الأسبوع الأول من السجن تعرض الشباب المعتقلون ، للضرب المبرح بالخيزران ، والفلقة والوقوف لساعات طويلة ، كما منعوا من الكلام وحظرت الزيارات . وفي الأسبوع الثاني ساءت أحوال الكثير منهم بسبب الضرب ورداءة المكان وقذارته! فجاءت فكرة الإضراب عن الطعام بعد اليوم العاشر .

لم يشارك حسن في ضرب الشباب من معتقلي نادي

الطليعة ، ورفض كثير من أفراد الشرطة أن يشاركوا الفداوية في ضرب أولئك الشباب ، فكيف لهم أن يواجهوا بعدئذ أهلهم وجيرانهم!! وقد بذل حسن ما بوسعه لإيصال أخبار المحبوسين إلى أهاليهم بطريقة «غير مباشر» ، ولكنه لم يشاطر أولئك الشباب قناعاتهم ولا شعورهم بإمكانية التغيير ، في عالم محوط بالفقر والظلم والتسلط .

كان على حسن أن يقاوم كل ضعف وخور في العزيمة ليمضي إلى هدفه في تكوين نفسه ومستقبله ، لكي يعرف الآخرون من هو حسن! وكيف سيرتقي به الحال بفضل عصاميته وحدها ، ولن يحتاج إلى أحد بل ستدعوهم الحاجة إليه!

«وسوف يرون!»

خرّ بعض الشباب على الأرض اعياءً بسبب الإضراب عن الطعام ، والبعض الآخر لم تبد عليه آثار التعب والجوع فقد تبين أن عدداً منهم قد تلقى أطباقاً من الطعام أتت به بعض الأمهات مستوراً تحت العباءة!

لم يتوقف سيل الزيارات إلى السجناء من الأهالي والجيران وشبان الحي والأصحاب ، حتى ممن لم يكن لديهم أولاد محبوسون أو يعرفون أحدا من شبان النادي ، وعلا تذمر الناس لأنهم لم يرضوا بما يحدث لعيال البلد ، لاسيما عندما نقل عدد من المضربين إلى المستشفى في الأسبوع الثالث من الإضراب ، وازدادت التشفعات في سبيل إنهاء الإضراب فأصر المضربون الثلاثة ، الذين نقلوا إلى المستشفى على توفير محاكمة لهم إذا ما

استمر سجنهم، في مقابل إنهاء الإضراب. أطلق سراح الشباب بعد ثلاثة أسابيع وعادوا إلى بيوتهم ليتقدموا لامتحان الشهادة الثانوية الذي حل أوانه في ذلك الوقت!!

وبالرغم من التعهد الذي كتب والتوضيح الذي قدمته ادارة النادي، والشهادة الطيبة، فإن الحكومة رفضت إعادة إفتتاح النادي وصادرت ممتلكاته وأهمها تلك المكتبة العامرة.

وقع اطلاق نار على المتظاهرين في الدوحة ومات أحدهم(*) انتقلت الأخبار إلى العاملين في شركة نفط قطر، واندلعت المظاهرات وأعقبها الاضراب(١) الشامل. قدمت المظاهرات من مسيعيد جنوبا، ومن دخان غربا، وتعاقبت الحشود القادمة من الوكرة والأخرى من الشمال، ونزلت جميعا إلى شوارع الدوحة.

(*) أسس نادي الطليعة في عام ١٩٥٩ ورئس النادي علي خليفة الكواري. أقيمت فيه محاضرات لأساتذة ومعلمين من ذوي الاتجاه التقدمي، وتمت دعوة محاضرين من الخارج. أغلق عام ١٩٦١ بعد أن حوصر بالدبابات واعتقل ١١ عضوا لمدة ثلاثة أسابيع، وتعرضوا للضرب ثم أفرج عنهم بعد أن اعلنوا إضرابا عن الطعام.

(١) في ١٧ ابريل ١٩٦٣ انطلقت المظاهرات تؤيد إعلان الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق، واشترك اليمنيون المقيمون في الدوحة في المظاهرات، مطالبين حكومة عبد الله السلال الاشتراك في الوحدة، بعد أن وجهت مصر الدعوة إلى اليمن والجزائر للانضمام. اعترض ابن أخ الحاكم المتظاهرين بسيارته، وبعد نقاش حاد معهم أطلق النار عليهم، وأدى إلى مقتل أحد المتظاهرين. بعدها تداعت القوى التجارية والعمالية والقبلية إلى الاجتماع ==

أغلقت المحال والدكاكين في السوق، وأخذت المظاهرات تخرج من (الفرجان) والأحياء، وتحركت في كل أنحاء قطر. كان المتظاهرون يحملون صوراً لعبد الناصر، ومشاعل ولافتات، وحمل بعضهم كذلك مجسمات لرؤساء العرب الخونة، وقاموا بإحراقها في الساحات والشوارع.

في ذلك اليوم استقبل سالم زواراً مفاجئين، جاءه وكيل الشيخ ومعه أحد الفداوية، وطلب منه المثول فورا أمام الشيخ. كان سالم وحيداً في وقتها وليس معه أحد من زملائه، فخرج مع مرافقيه يجر قدميه جراً وفي صدره بعض الوجل. اقتاده الرجلان إلى حيث المجلس، وعلم سالم بما سوف يطلب منه قبل وصوله. في أثناء الطريق أجال النظر في الأمر ولم يحتج طويلا إلى التفكير، سوف يرد على الشيخ بالرد الوحيد الذي يملكه: ما أقدر أوقف الإضراب!!

استأذن سالم وخرج بسرعة، ولكن لحقه أحد الاشخاص من خلفه، ناداه فتوقف سالم مسلماً أمره لربه، قال له وكيل الشيخ عندما حاذاه بأنه يرغب في أن يتمشى معه قليلا بعض الطريق!

= والتظاهر والإعلان عن تشكيل جبهة الاتحاد لوطني، التي ضمت عناصر قبلية وتجارية وعمالية وسائقي العربات، تحت زعامة قطبيين هما ناصر المسند وحمد العطية. قامت الجبهة بتنظيم مسيرة الوحدة الوطنية، ودعت إلى الإضراب العام لمدة أسبوعين؛ ثم أصدرت الجبهة بيانا عاما حددت فيه مطالب العامة لكل فئات الشعب. المصدر: أطروحة الدكتوراة لموزة الجابر.

قال له بعد صمت : يا سالم! أنت معك جيش والا دبابات والا سلاح ؟

نظر إليه سالم وقال : لا .

- إذن مالك ترد على طويل العمر هذا الرد ؟ يقول لك وقف الإضراب وتقول له : لا . فقال سالم : يا بو خلف ما بيدي شيء!

- بيدك لو أردت .

ربما كان ذلك الحوار وتلك المشاعر والأفكار التي اعتورت قلب سالم وعقله وراء عزمه الذي عقده فيما بعد على صياغة مطالب* الجبهة الموحدة وتقديمها على ذلك النحو! لطالما فكر سالم في تلك المطالبات ورتبها وناقش بعضها في حجرته في معسكر دخان العمالي ، مع زملائه من العمال العرب والقطريين . واليوم صعّد ذلك الحوار قلقه ومخاوفه! شعر سالم بأنها فرصته لتقرير تلك المطالب وإعلانها ، وعوضا عن جمع التواقيع ونظراً لإلحاح الحاجة إلى السرعة وقضاء الحوائج ، قام سالم بتذييل تلك المطالب بالعشرات من أسماء الشخصيات من الأعيان والتجار وغيرهم ؛ لان تلك الأسماء بمجموعها ستكون سنداً ودرعاً لمن ليس لديه

---

(١) كانت المطالب العامة هي خفض الامتيازات لآل ثاني - تنمية الخدمات الاجتماعية - محاكمة مرتكبي الحادث - خفض العمالة الأجنبية - تسديد ديون التجار - انتخاب مجلس بلدي ممثل لجميع فئات الشعب- الاعتراف باتحادات العمال والاتحادات التجارية - السماح بإنشاء دار للسينما والإذاعة - وضع ميزانية للدولة . المصدر : أطروحة الدكتوراة لموزة الجابر .

سلاح ودبابات! بيد أن تلك الأسماء (ومنها من لم يعلم بأمر المطالب أو الجبهة ولم يفكر بالانضمام إليها)، قد تعرض أصحابها بسبب ذلك إلى الاعتقال والإقامة الجبرية، والبعض إلى الإبعاد. هل صاغ سالم مطالب حركة إبريل عام ١٩٦٣ من وحي شعوره بالضرورة فقط؟ وهل قوبلت تلك المطالب برد حكومي تلاها بأيام قلائل، وبصياغة لا تقل براعة وفناً[(١)] من منطلق الضرورة ذاتها!!

في كلتا الحالتين كانت الصياغة افتراضية، وغير مطابقة للواقع المعيش، وفي كلتا الحالتين كتبت الصياغة بما ينبغي أن يكون، فقد كانت المطالب تشرئب إلى عالم غير مكتمل بعد، وباسم جبهة لم تتحقق جديا على أرض الواقع، وقد أعلن الرد على المطالب في (البيان الإيضاحي لمنهاج العمل الشامل لتقدم البلاد)[(٢)]، ويقع في حوالي ست صفحات تحرت الرد على كل مطلب على حدة، وبصورة مفندة واستجابة إيجابية! في الوقت الذي قامت فيه

(١) كان السيد حسن كامل مستشار الحاكم منذ عام ١٩٦٠.

(٢) جاء في مقدمة البيان على لسان الحاكم: «في يوم ٤ ذي الحجة ١٣٨٢ هجرية الموافق ٢٨ ابريل ١٩٦٣ أذعنا بيانا على الشعب القطري، ذكرنا فيه أن الوقت قد حان لبدء الخطوات التنظيمية لمنهاج العمل الشامل الذي عقدنا العزم على تنفيذه؛ لإقامة صرح ذلك المجتمع الرفيع الذي نصبو إليه جميعا؛ مجتمع العدالة والمساواة والنظام والإنتاج»، المصدر على خليفة الكواري - تنمية للضياع أم ضياع لفرص التنمية.

الحكومة بأشرس حملة[1] من الاعتقالات والفصل والإبعاد ، وقطع البعثات الدراسية ، والمنع من مزاولة العمل الحكومي . يرى أحد الباحثين القطريين أن ذلك البيان الإيضاحي في الرد على المطالب كان جديرا بتأسيس نوع من العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكومين ولو مبدئيا ، بيد أن ما تم تدشينه بالفعل انطلق لأسباب وأغراض أخرى في السبعينيات (إبان الطفرة النفطية الأولى) وكان أقرب منه إلى روح المنح والمكرمات من العقود الملزمة ، إلا أن قائمة التضحيات التي قدمتها (حركة) إبريل ١٩٦٣ خيمت على كل اهتمام صرفته الحكومة لاحقا نحو مساعي التخطيط والتنمية والاستثمار ، وإشاعة روح الإصلاحات ، بقطع النظر عن نتائجها وحصادها النهائي .

كادت عائشة أن تقع مغشيا عليها عندما سمعت جارتهم أم عبيد تعدد أسماء الشباب الذين أخذوا إلى مبنى الأمن ، ومنهم صالح بن أحمد ، وأخوها سالم ، وعدد كبير من الطلبة والعمال ، ولأن النسوان اجتمعن في الدور يبكين شباب المرقاب ، لم يتبين أحد على من كان بكاؤها وعلى من كان حزنها! هل كان على

---

(١) قامت حكومة قطر باعتقال الموقعين علي عريضة الإصلاح في ١٩٦٣ ، وعلى رأسهم حمد العطية ، وناصر المسند ، وأتبعتهم بسجن وإبعاد كل من أيدهم حتى بلغوا حوالي خمسين شخصية من الوجهاء والتجار خلال النصف الثاني من أبريل - نيسان ١٩٦٣ . هذا بالإضافة إلى فصل عدد من العمال والطلاب والشباب عامة . (مقتبس عن مقال منشور للدكتور علي خليفة الكواري) .

أخيها فقط أم على عيال المرقاب كلهم! كانت تبكي عزيزا (ما تبكي عزيّز[1]) كانت أشدهن حزنا! هذا ما لم تستطع أخفاءه حتى إن زوجها جابر بن سالم أخلى سبيلها ورخص[2] لها أن تبات ليلتين عند أمها المكلومة باعتقال ابنها سويلم!

لم تؤثر تلك (الهوجة) كثيراً في حياة شريفة! لم تزل تعيش في عزلتها، ولم يزل حسن يطلب حقوقه الزوجية عندما يعود من عمله، بينما عانت عائشة الأمرين؛ لاعتقال صالح مع عدد من العمال والشباب، وعاشت كابوسا مريرا ولكنها لم تعرف بعد بأن أسوأ كوابيسها وأكبرها لم تزل بانتظارها!

سرعان ما استسلمت عائشة لوتيرة حياتها في بيت المدعاسي بعد انقضاء أحداث إبريل عام ١٩٦٣ . وما فتئت تزور أهلها في تلك الأيام العصيبة . جلست بقرب أمها ذات يوم وأمها تهدهد

---

(١) أرسل الهلالي أبو زيد عزيزا إلى معشوقته مي لكي يحل محلها في ليلة عرسها فتخرج هي إلى لقائه . ولما دخل عريس مي على عزيز، تعذر عليه أن يمسك بعروسه!! تلقى عزيز ضربة سيف في يده من عريس مي الذي أرادها علامة لكي يستبين أمر عروسه (شديدة البأس) في الصباح . ظل عزيز ينزف ولم يغادر لكيلا يفتضح أمر مي، فلما رجعت قبيل الفجر تبادلا الأمكنة، وجرحها عزيز جرحا سطحيا في يدها ثم عاد لكي يموت متأثرا بجرحه المكين . حزنت مي لما علمت بموت عزيز، وأرادت أن تبكيه فدفعت ابن (عبدتها) الصغير عزيّز في البئر وجعلت تنوح وتبكي عزيزا الآخر .

(٢) رخص : سمح لها .

بكرها أحمد في حضنها وتغني له :

جميلة[1] العفيفة

جميلة الشريفة

قتلوها الأعادي

وقالوا جميلة ما يوجد سواها

كلنا جميلة كلنا فداها

تتذكر عائشة دخول والدها عليهما ممتقع الوجه .جلس قبالتهما وأخبرهما بأن حمد العطية[2] مات في السجن ، وبكى حينها الثلاثة الكبار ، ونام الصغير .

كانت هناك ثمة موسيقى خافتة مستمرة في أعمق جزء من وجدانها ، وكانت عائشة قد آذنت بانفصال عن العالم في الخارج ، وانسحبت إلى داخلها تنصت لذلك الغناء الخافت الشبيه بصوت ناي منفرد حاد ، قد تصحبه أحيانا همهمة تبعث على الوجد والحنين . كانت عائشة في منتصف الطريق تتوق إلى الولادة من جديد ، بيد أن الباب أغلق فجاة بقوة وفظاظة . . وساد صمت شامل .

وكان حال الدوحة مثل حالي شريفة وعائشة ، غارقا في الحزن والعتمة ، تلبدت أجواؤه بالمرارة والخيبة والفشل . لم تعرف شريفة

---

(١) جميلة بو حريد المناضلة الجزائرية .

(٢) حمد العطية : أحد الإصلاحيين والمتزعمين لحركة ١٩٦٣ الوطنية ، وعلى رأس الموقعين على العريضة ، سجن ومات في زنزانته .

ما الذي يحدث في الخارج ، ولم تكد تخرج من بيتهم إلا وشعرت بأن الوجوه من حولها قد ازدادت قتامة ، وغاضت منها الحياة وغيبها التفكير والهموم .

اصطحبت الأم شريفة لأول مرة بعد زواجها لزيارة بيت خالها بعد اعتقال ابنه ، كانت عاصفة رملية تغطي كل شيء في المرقاب بطبقة من التراب ، وغابت الشمس وأعتمت الدنيا .

سارت شريفة خلف أمها بعكس اتجاه الريح التي كانت تنفخ ثوبيهما ، قبضت الأم على عباءتها وهي تحرض ابنتها أن تفعل الشيء نفسه . جلست الأم إلى أم جاسم تواسيها ، وتبادلتا الحديث همسا! دخل خالها (بوجاسم) بعد أن تنحنح وسلم ، واتكأ على مسند قرب الباب بوجوم! ثم انطلق لسانه بصوت غاضب : خلو السرسرية والقوادين وخذوا عيالنا! لابوهم . . لابو ديرة الفقر والضيم . وتهجد صوته ، فزعت شريفة ودمعت عيناها . قالت أمها :

وكل الله يا بو جاسم!

وسكت بوجاسم ووكل الله .

(البيب) فاض ومنقع السيل لبنان
وأهل الملاهي من غديره يغرفون
سلطان بن علي العلي

عانى أهل قطر من توابع زلزال ذلك اليوم ، ترويعا وإجراءات فصل وتأديب وملاحقات ، ولكن الأحوال لم تتغير ولم تتحسن أوضاع الناس! لم يرتفع سيف الفقر ولم تأت السعة بعد الضيق . وبعد جلو إحدى الفخائذ القطرية إلى الكويت ، تسامع الناس بـ«رغد العيش» الذي يتمتع به من حط رحاله في الكويت ، الأمر الذي أغرى الكثير من أهل قطر بالهجرة إلى الكويت أو التفكير في ذلك .

دخلت الأم ذات ضحى على عائشة في البيت الكبير لآل المدعاسي ، وبقدر ما فرحت عائشة برؤية أمها بقدر ما ارتاعت عندما سمعت من أمها أن أباها يريد أن ينتقل بأهلها إلى الكويت ، وكأن نصلا انغرس في قلبها!

- وتتركوني وحيدة ؟

سمعت آهات أمها ونشيجها وهي تقول :

- قلت له رح بروحك! خلنا عند أهلنا وين بتودينا بلاد الغربة!

واش يودينا مع الجالين[١] ؟

تردد(بوعيسى) بوقت كاف لوصول أخبار جديدة تقول بأن شيخ الكويت أخذ يرد من جاءه لاحقا من أهل قطر!

كان عدد من الطلاب القطريين قد أسسوا في القاهرة ما يدعى بـ مجموعة نادي الطليعة . ودعا طلبة القاهرة إلى اجتماع ، وقاموا بالاتصال بزملائهم في بريطانيا ، وقرروا اتخاذ موقف موحد بعد اعتقال الحكومة في قطر لعدة شخصيات ، بسبب تقديم مطالب وطنية في عام ١٩٦٣ . وصدر بيان مشترك من طلبة القاهرة وبريطانيا بإعلان التضامن مع المعتقلين ومطالبهم . سعى الطلبة إلى نشر البيان في بعض الصحف العربية ، مع ذكر مطالب المعتقلين في قطر[٢] .

---

(١) قررت قبيلة المهاندة التي ينتمي لها أحد زعماء حركة إبريل ١٩٦٣ ناصر المسند بالجلاء إلى الكويت ، فغادرت عام ١٩٦٤ ، وبقيت هناك لمدة سنتين تقريبا ، ثم هددت قبيلة البوكوارة بالرحيل بسبب خلافات مع أحد أفراد الأسرة الحاكمة ، وتدخلت جامعة الدول العربية وعدد من الحكام لإقناع حاكم قطر بضرورة إطلاق سراح ناصر وعودة قبيلته إلى البلاد . المصدر : أطروحة الدكتوراة لموزة الجابر .

(٢) بعضها يطالب بإلغاء امتيازات ورواتب الأسرة الحاكمة ، وبعضها الآخر يطالب بالخدمات والامتيازات التي حصل عليها شعب الكويت ، من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . فضلا عن تأييد الوحدة الثلاثية التي أعلنت بين مصر وسوريا والعراق .

ثارت ثائرة الحكومة عليهم ، ففصل عدد من طلبة القاهرة من البعثة الدراسية ، ممن تزعم ذلك النشاط السياسي ، وسعت الحكومة لدى بعض الدوائر المصرية لإبعادهم عن مصر ونجحت مساعيها .

وفي قطر تعرض الضالعون في الإضراب العمالي للسجن والفصل من شركة نفط قطر ومنع بعضهم من العمل ، وقطعت منح دراسية وفصل طلبة من بعثاتهم الدراسية ، وفتحت ملفات سياسية للبعض الذين وضعوا في قائمة المنع لسنوات طويلة ، برغم تغير العهود والحكام ، وذلك بسبب نشاطهم السياسي والتحريضي ودورهم في أحداث عام ١٩٦٣ .

لم يستطع صالح بن أحمد العودة إلى جامعته في القاهرة بعد قطع البعثة الدراسية ووجد أمامه المنع من التوظيف الحكومي في قطر فاشتغل في أعمال حرة متفرقة ؛ سائقا لشاحنة ، ومشرف عمال في مصنع ثلج محلي . ولان صالح احتفظ بعلاقة طيبة بأوساط القوميين العرب لاسيما من الأساتذة العرب الذين اشتغلوا فترة في قطر ، ثم عادوا إلى بلدانهم وشغلوا مناصب سياسية في مجالس مهمة ، فقد جاءه القبول عن طريق احد الأساتذة وحظي بمنحة دراسية جامعية على نفقة احدى البلاد العربية فرحل عن قطر إلى جامعته .

انتهت حركة ١٩٦٣ وشيكا!

كانت ثمة تغيرات أكثر عمقا، لم تزل كامنة، وتعتمل بهدوء وخفاء ومرارة في داخل المجتمع الصغير الهادىء، لم يلحظها أهل قطر ولم يفطنوا إليها في حينها، حتى صارت الأمور إلى انقلاب معاكس، بعد ذلك بعقد من السنين، عندما استيقظ الناس في الدوحة، فوجدوا المذياع يعلن أنباء الانقلاب الأبيض، ووجدوا عبارة (الحركة التصحيحية) ترش بسخاء على الحيطان. حاول الصغار تهجئتها ولم يعرف (الشيبان) معناها بعد!

كان تأثير «العريضة» الأبلغ هو، ذلك الأثر الذي لم يقع أبدا؛ إنه التأثير الذي توقعه الناس وانتظروه واستحقوه ولكنه لم يتحقق.

ثم جاء ما سمي بـ (الحركة التصحيحية) بعد عشر سنوات من (حركة) العريضة، في فبراير عام ١٩٧٢ في الوقت «المناسب» تماما، لاحتواء المجتمع وتسكينه، واستيعاب جيش كبير واعد من المتعلمين والخريجين. وقام «العهد الجديد» لاحقاً، بطرح ما سماه الخطة الخمسية للتنمية، وأنشئت وزارات وإدارات متكثرة ومتضخمة لتستوعب كل القطريين، باعتبارهم موظفي دولة، وبدأت الأحوال الاقتصادية تنتعش لشرائح من الأسر القطرية بطريقة أو بأخرى، وبطرق متعددة من طرق توزيع الدخل الوطني، وجاء ذلك كله «على قدر» مع الطفرة السعرية الأولى للنفط في عام ١٩٧٣.

في مجتمع محكوم بالعرف والتقاليد، تدخلت بريطانيا العظمى منذ الخمسينيات بمبادرة واضحة لإقامة حكومة مستقرة وإجراء إصلاح مالي، كما دفعت في سبيل حل مشكلة الخلافة

المعلقة في بيت الحكم . لقد استشعرت السلطات المحلية ، الخطر على مركزها ، ولمست قوة الهبّة الشعبية ، فوعدت بعد أحداث ابريل ١٩٦٣ بإجراء إصلاحات ، من خلال اصدار (البيان الإيضاحي لمنهاج العمل الشامل لتقدم البلاد) ونفذت عدداً محدودا وجزئياً منها[1] .

لم تحمل الرأسمالية العائلية التجارية الحاكمة ، روح المشروع الرأسمالي القائم على التنظيم والتجميع والتراكم والتوسع وتحمل المخاطر ، بل اعتمدت على وفرة مالية ونفوذ وسلطة وتمركز ، وروح المضاربة والاحتكار والكسب السريع .

والتفّت حولها فئة طفيلية من التجار ؛ كانت تلك الفئة (البرجوازية الريعية من السماسرة والمضاربين وأصحاب التوكيلات) ، وكانت تميل بطبيعة الحال إلى استقرار النظام السياسي الذي تستفيد منه ، وبرغم تراجع دور أولئك التجار فإن أرباحهم كانت معقولة ومضمونة وقابلة للتوسع .

ثمة فئة من الشباب ، من جيلٍ شهد (الحركة) الوطنية في

---

(١) في عام ١٩٦٤ صدر قانون بمنح محدودي الدخل القطريين الأراضي والقروض ، وتم إنشاء لجنة عمالية لتلقي شكاوى العمال ، وسمح بوجود شبه تنظيمات عمالية في القطاع النفطي سميت باللجان العمالية ، وأصدر الحاكم في١٩٦٤ قانونا يقضي بإنشاء مجلس للشورى يرأسه الحاكم ، ويتم اختيار أعضائه الخمسة عشر من الأسرة الحاكمة ، ولكنه لم ير النور ، ثم افتتحت الإذاعة في عام ١٩٦٨ ثم التلفزيون ودار للسينما في ١٩٧٠ . المصدر : أطروحة الدكتوراة لموزة الجابر .

عام ١٩٦٣ ، اهتمت بالأفكار التحديثية والإصلاحية ، وبحثت عن دورها فلم تجده! فحاولت أن تستمد «ميزةً» من موقعها في البناء البيروقراطي في جهاز الدولة المستحدث ، وانتهى بها المطاف إلى التنافس على الوظائف الكبيرة ، بعد أن أودى بآمالها وتطلعاتها في التغيير ، تراجع المرحلة في السبعينيات (فترة انحسار التيارات والأفكار الراديكالية وبزوغ شمس أخرى لاتجاهات فكرية مضادة) ، وحتى العرب الوافدون في تلك الفترة كانوا على خلاف من سبقهم في الخمسينيات والستينيات ؛ أولئك كانوا عماد الحركة القومية العربية ، وأما من خلفوهم فقد جاؤوا بهدف جمع الثروة (لا لنشر الثورة بالطبع) .

وكانت هناك شريحة وسطى واسعة في طور التبلور ، وكانت مستعدة ومهيأة لتولي الجهاز الإداري المتنامي ، في سياسة التحديث البيروقراطي التى انتهجتها (الحركة التصحيحية) ، وأصبح بعدها الجميع مرتبطين بحبل سري موصول بالنظام ، وأصبحت الدولة دولة موظفين .

شكلت بداية ظهور ملامح قيام «دولة حديثة» ، معلماً مهماً ، واستطاع العهد الجديد (آنذاك) أن يتخذ منه نقطة تفاوضية لصالحه ، ويستوعب القوى الجديدة من (الشرائح الوسطى والتجار) ؛ وهي قوى مجتمعية بمواصفات معينة تتناسب ومعايير الحقبة المستمرة للمجتمع القبلي ، وقد قُضي تماماً على القوة العمالية التي تم بالفعل تفكيكيها بتعمد ، وبفعل عوامل اقتصادية مساندة .

لئن كان قيام الدولة التي تسمي نفسها «دولة ناشئة

حديثة» ، يعد في حد ذاته إنجازاً لا يقبل التشكيك به ، فإن تلك الدولة لم تكن على كل حال إفرازاً حقيقياً للمجتمع ؛ فقد قلبت الظروف الاقتصادية الآية وعكستها ، وفرضت على المجتمع أن يكون تابعاً للسلطة وتحت وصايتها الكلية ، وأصبحت كل الهياكل القائمة والتي أنشأتها الدولة ، مجرد وسائل تنظيم وضبط تمارسها السلطة لصالحها . وهذا يعني أن طبيعة الاقتصاد الريعي ، قد حوّلت البنية السياسية في البلد ، إلى الطبيعة الاحتوائية ؛ التى لا تحتمل مشاركة شعبية حقيقية ولا تسمح بها ، ولا ترى لها من ضرورة ، بل انها طبيعة تؤدي إلى إلغاء العملية السياسية والاستغناء عنها ، والاكتفاء بالتحالفات التقليدية القديمة ؛ بما أنها قادرة على توفير الاستقرار والاستمرارية ، للقوى الجديدة المستفيدة من حالة توزيع الأنصبة غير المتساوية .

لم يقض تماما على نظام الإقطاع! ولم تقم رأسمالية قوية ومعافاة ، وراءها قوى تجارية أو صناعية ، بل إن الرأسمالية التابعة اليوم هي وليد خديج تمثله توكيلات مالية وعقارية (غير إنتاجية) قائمة ومستمرة ، من زمن النظام الإقطاعي المستمر لذلك فهي متصالحة معه ولا تضاده ولا تلغيه ؛ وهو الأمر الذي تجلت مظاهره في الثقافة والأنماط السلوكية وأساليب التفكير ، التي راوحت مكانها ؛ فهذا المجتمع لم يزل فى مرحلة الإقطاع ، وعلى سطحه فحسب قشرة رأسمالية طفيلية استهلاكية . ولا يمكن التسليم بقدرية ذلك الاقتصاد بالطبع ، ولا حتمية مخرجاته ومضاعفاته ؛ فالاشتباك القسري للاقتصاديات في عالم اليوم يفرض بالضرورة

أبجدياته وشروطه وضغوطاته ، ويتداخل فيه الاقتصادي مع الثقافي والإنساني .

لا يؤمن جانب الاقتصاد الريعي ؛ فهو معرض بلا شك للاهتزازات البنيوية ، ولضغوط المستجدات ، بحسب تبدل الظروف والأوضاع ، (والتي لا يمكن التنبؤ بها جميعاً) وهذا يعني إمكانية «توفر» فرص مؤاتية ، وربما أيضا إمكانية اغتنامها أو على الاقل استغلالها جزئياً! لاسيما في حال تعرض المجتمع إلى اختناقات وانسدادات متتالية ، بفعل تلك المشكلات المتشابكة والمتفاقمة ، وبسبب نشوء أسباب وعوامل طارئة ؛ من قوى جديدة وشرائح مضطهدة وذات مطالبات معينة .

وإذا كان المجتمع اليوم يفتقد القوى الفاعلة ، والقادرة على الضغط ، والواعية لأحقيتها في اغتنام الفرص (سواء تحينها أو تمييزها) ؛ فإن ذلك المجتمع قد يتوسل سبل العرائض ويلجأ اليها مرة بعد مرة ، برغم تعسف ردة الفعل وشراسته ، باعتبارها إمكانيةً وقناةً وحيدة للتعبير ليس إلا!

فالعرائض ليست بقادرة ، في حد ذاتها ، على دحض أو إنتاج أي معرفة ، ولا حتى التلويح بالقدرة على استدعاء قوى اجتماعية لخلق تسويات أو توازنات سياسية ؛ لوقاية المجتمع من المزيد من الإيغال في التخلف أو تجنيبه صداماً محتملاً في المستقبل .

حركة وطنية وعريضة ومذكرتان

قبل نشوء فكرة العرائض ، كان زعماء القبائل ووجهاؤها ،

يتخذون الوسيلة الشفوية وشكل المطالبة المباشرة وجهاً لوجه ، طريقةً مثلى للتفاوض حول مطالبهم ، وإذا تأزمت الأوضاع قد تكون ردة الفعل مواجهةً عنيفة بالقتال أو سلميةً بالجلاء وعدم الخضوع للأمر الواقع!

قد يعد ظهور «العريضة» المكتوبة والمذيلة بالتواقيع ، مؤشراً لمستوى من التحول الاجتماعي ، إلى مرحلة أكثر تعقيداً للمجتمع ، ولكنها مرحلة أشد تعثرا لإمكانات تقدمه ونضجه كذلك .

لو كانت مطالب عام ١٩٦٣ (وهي بلا شك مطالب عامة) ، قد قدمت من قبل جبهة قوية موحدة ، وراءها حركة عمالية مكتملة (أو شبه مكتملة) ، تحظى بدعم منظم من التجار والطلبة ، لأمكن أن يسمى ما حدث في عام ١٩٦٣ ؛ حركة مطالب حقيقية ، ولأمكن أن تتمتع تلك «الحركة» بمستوى معين من التنسيق بين القوى القائمة في المجتمع! ولو كانت كذلك لاستطاعت أن تحسن تنظيم نفسها وأداءها إلى حد ما ، وأن تمثل فعلياً القوى الاجتماعية ، وأن تكون قادرة على فرض مطالبها أو دعمها والدفاع عنها!

لو تقلد التجار دورا جديدا !

لو كان التجار هم من تولى تبني المطالب العامة ، باعتبارهم قوة اجتماعية جديدة تناطح قوة تقليدية (هي رؤوس القبائل) ، ولا تمثل مصالحها فحسب ؛ بل تقود المجتمع وتتحدث باسم المصالح العامة بما قد تملكه من رؤية وما يتاح لها من خيارات تحددها المعطيات

والظروف من حولها ، لكانت مطالب عام ١٩٦٣ تتويجا فعلياً لـ «حركة» حقيقية وقائمة ، وليس فوراناً واعتمالاً في أحشاء مجتمع لم تتضح معالمه! يتكىء على ظروف حقبة قومية ، وعلى نشاط عمالي وطلابي يستمد عنفوانه ووعيه من سياق تلك الحقبة ومعطياتها .

لو مثلت شريحة التجار آنذاك ، فئة جديدة في المجتمع ، أدركها الميل واشرأب بها التطلع إلى ما حدث في الجوار الخليجي ، لطرحت تلك الفئة مسألة تحديث المجتمع مبكراً ، لولا أنها فئة ضعيفة ومحجمة لم تستطع أن تبدي رأيا عندما كانت (القبائل) تقف خلف الشيخ الحاكم في الاعتراض على دخول البرق والبريد وسائر التحديث والإصلاح! وأدى ذلك إلى تأخر قطر عن الخطو نحو العصر الحديث كمثيلاتها من المشيخات ، إلا أن تدفق النفط وتصديره في عام ١٩٤٩ جعل بريطانيا تضغط في سبيل إنفاذ معاهدة ١٩١٦ ، ووفر إيراد النفط ، الوسيلة التي ألانت المعارضة ، فكانت عائدات النفط مصدراً للعطايا والتعويضات والتسويات ، بيد أنها لم تستطع بالطبع أن تخلق وعياً بأهمية الأدوار الاجتماعية وضرورة التنظيم ، بل إن عائدات النفط ذاتها هي التي خلقت فئة تجارية عائلية احتكارية شرهة بلا تطلعات ولا أدوار ، سيطرت وكبحت منذئذ كل خطوات التقدم والتحديث والإصلاح .

لقد أرادت السلطات المحلية في البداية استغلال ما سمي بالحركة العمالية ، سعيا للضغط على شركة نفط قطر ، في سبيل التوصل إلى زيادة العائدات ، وكذلك حققت أرباحاً من توظيف

العمال[1] ، وشكلت الإضرابات العمالية في حد ذاتها بطاقة ضغط قادرة على استدعاء إسناد مجتمعي من الطلاب والتجار والأعيان ، وزعزعة هيبة السلطات المحلية ، من خلال إضرابات جيدة التنظيم ، في وقت كانت الإضرابات أسوأ كابوس يقض مضجع السلطات البريطانية ، خشية أن تتوقف العمليات الإنتاجية في حقول النفط ، ثم جرى سريعا وحثيثاً ، تفكيك القوة العمالية الجديدة ، بسبب خطورتها التي أثبتتها سنوات الخمسينيات ، لاسيما ثقلها ودورها في أحداث ابريل ١٩٦٣ .

لم يعد بمقدور مجتمع الـ«موظفين» في السبعينيات أن (يقف) وراء تقديم أي عريضة نخبوية أو شعبية ، وبطبيعة الحال فإن العرائض ذاتها ليست سوى التماسات ومناشدات في الشأن العام ،

---

(١) كانت العملية تتم عن طريق مقاول محلي هو ممثل الحاكم وسكرتير الحاكم ، وهما من أبرز وكلاء توظيف العمال ، وكانت رسوم التسجيل تقتطع من أجور العمال القطريين ومن الوافدين من مناطق الخليج للعمل ، في مقابل منح مستند من ممثل الحاكم يثبت أنهم قطريون ، فقد كان ذلك شرطاً للعمل ، ثم اتبعت الشركة برنامجاً لخفض العمالة على جميع مستوياتها ، وقد كانت هناك عملية نمو واسعة شملت البنى الأساسية ، فاستوعبت العمالة المسرحة من الشركة التي كانت تفضل الأجانب لتفادي مخاطر الإضرابات . وقد قامت السلطات المحلية بمواجهة الحركة العمالية بحزم وقوة منذ الستينيات ، حتى إنها قامت بحملة اعتقالات واسعة في صفوف العمال بعد إضرابات ١٩٦٩ ، وأبعدت بعض العمال خارج البلاد . المصدر : أطروحة الدكتوراة لموزة الجابر .

وتتطلب عرائض المطالب «العامة» بعض التنازلات والتضحيات!

لم يعقب (حركة) إبريل ١٩٦٣ أي (حركة) أخرى وطنية حتى يومنا الحاضر! قد يصف بعضنا تأثيرها (بالعاطفي)! وقد انتهى الحراك بعدها تماما! ، وبوسعنا أن نعلن الآن بأن ذلك يعد نتيجة طبيعية لضعف المجتمع والتصاقه بكيان «النظام» ، اعتمادا وتغذية واستمرارية!

لقد عبر عدة باحثين قطريين عن أن التأثير القومي الناصري في تلك المرحلة كان من القوة بحيث جعل أهداف الأمة فوق كل هدف ، ولكنه ارتبط بالشخصية الكارزمية لعبد الناصر! ولما هبت الرياح العاصفة على منطقة الجزيرة بأكملها ؛ انشطرت بيوت الحكم وتحركت عزائم النخب ، وانتفضت شعوب من أغلالها ، ولكن بغياب شخص عبدالناصر وجملة من الظروف المتعاضدة التي مر بها العالم أجمع ، أسدل الستار على تلك الحقبة بأكملها ، فما حدث قد انقضى ، وما حدث وقع نتيجة تأثيرات خارجية فحسب ، ولم يكن يوما تحولا بنيويا داخليا ، يعتد به أو تتراكم أسبابه .

لم تظهر في الثمانينيات سوى (مذكرة) واحدة في قطر قدمت في عام ١٩٨٤ ورفعت إلى مجلس الشورى المعيّن[١] ثم قدمت

---

(١) سبب المذكرة نقلا عن موقع المنبر القطري لصاحبه عبد الرحمن بن عمير النعيمي (أنه في عام ١٩٨٤ تقريبا تقرر نقل الطلاب والطالبات إلى مبنى الجامعة الجديد (الحالي) ، وكان البناء لا يوجد به فصل بين الطلاب والطالبات ، فتناقل الخبر أبناء قطر الغيورون وحدث جدل في المجتمع حتى زار المبنى ==

(المذكرة) الأخرى التالية إلى مجلس الشورى المعيّن كذلك في عام ١٩٩٨ وكانت مثل الأولى ، ردة فعل لمستجدات معينة[(١)] وتعبر - تحديداً- عن رفض لتغيير «وضع المرأة» في المجتمع ؛ وقد رفع ممثل عن التيار الديني خطابه إلى مجلس الشور ،ى وهو مجلس صوري معيّن لم يتجاوز قط مرتبة «الاستشاري» ، ولم يكتسب أبدا شرعية تمثيلية بعد أن قام بجمع عدد من التواقيع .

= ثلاثة من شخصيات المجتمع ، وهم الشيخ عبدالله بن زيد آل قاضي البلاد ، وعبدالعزيز بن خالد الغانم رئيس مجلس الشورى ، والشيخ عيد بن محمد الثاني ، واتضح الأمر وتقرر أن يبنى جدار للفصل بين مبنى البنات ومبنى البنين ، ويكون هناك طريق منفصل إلى جامعة البنات بعد أن كان المدخل واحداً . . . . كيف تعامل المجلس مع المذكرة ، فقد انقسم المجلس إلى مؤيد ومعارض ولله الحمد كان المؤيدون هم الأغلبية ، وتبنى المجلس الموضوع حتى تم تنفيذ التعديلات على المبنى) .

(١) جاء فيها نصاً : (انتشار الخمور والرقص والحفلات الماجنة ، والألعاب الرياضية النسوية ، فبالإضافة إلى تحريم ذلك شرعاً فإنه عامل من عوامل هدم الاخلاق الفضيلة وانتشار الفساد . فتح المجال للمرأة على مصراعيه للمشاركة في جميع الأعمال بلا استثناء ، مما يسبب الاختلاط المحرم ، ويؤدي إلى خسارة المجتمع لدور المرأة الحقيقي . تولي المرأة الولاية العامة في الدولة مما ينتج عنه ولايتها على الرجال ، ولذلك تتجه النية لدخولها الانتخابات ، وتعقد الندوات والمؤتمرات من أجل إعدادها لذلك الأمر) .

عريضة[1] ديسمبر ١٩٩١

من المفارقة أن الاشخاص الذين تنادوا إلى تقديم عريضة ١٩٩١ كانوا يعتقدون بأن التوقيت كان مهماً وممتازاً لرفعها في ذلك الوقت بعد تحرير الكويت! وكان الظن بأن المنطقة التي خاضت حالة من الانشطار والفرز والتكتل ، كانت أحوج حينذاك إلى تهدئة الروع بتوفير ضمانات أساسية للإصلاحات الضرورية ، وتلبية المتطلبات ، لاسيما بعد حالة من تخلخل وتجاذب شديدين! وكانت المسألة بلا شك مرتبطة بحالة عامة شائعة تحدث في منطقة الخليج ، مصحوبة بوعود أمريكية تلوح في الأفق ، بالمساندة وحث الأنظمة على التوجه ديمقراطياً لتخفيف الاحتقانات المزمنة (وقد طرح آنذاك مقترح بالدعوة إلى الإصلاح السياسي والاقتصادي ، من خلال منتدى أو ملتقى للنخب الخليجية) ، وجاء في نسخة عن العريضة اللاحقة وفي أول فقرة منها : إنه (بتاريخ ١٩٩١/١٢/٢١ تقدم

---

(١) أخبرني أحد الشهود أنه كانت ثمة عريضتان ؛ الأولى قدمت في أوائل عام ١٩٩٢ وتضمنت حوالي ٥٦ توقيعا والاخرى في ابريل ١٩٩٢ . اشتملت الأولى على المطالبة بتطبيق الدستور (النظام الأساسي المؤقت المعدل) فيما يتعلق بإنشاء مجلس شورى منتخب ، وتحسين أوضاع التعليم والصحة . أما العريضة اللاحقة فجاءت مؤكدة للأولى ومطالبة بإطلاق سراح من اعتقل من الموقعين على العريضة الأولى ، وعدم مضايقة بقية الموقعين من قبل المخابرات والأجهزة الأمنية .

عدد من أبنائكم المواطنين برسالة إلى سموكم وضعت بين يديكم ما يلاحظونه من عقبات تعترض مسيرة الوطن . . .الخ) وقد وقع عليها ٢٢ شخصاً .

فيما يخص مذكرة عام ١٩٩٨ التي رفعت إلى مجلس الشورى القطري ؛ فإنها كانت كتاب مناصحة قدمه أحد الأشخاص ، بعد أن جمع بعض التواقيع ، وافتتحت المذكرة بقوله : (رأينا أن نتقدم بخطابنا هذا ليتم رفعه إلى مقام حضرة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني) ، وقد تضمن مسائل ذات صبغة دينية ، وصفت بأن لها (آثاراً سلبية في الفترة القصيرة الماضية ، ولها آثاراً مدمرة على المدى البعيد) .

من الواضح أن مذكرة عام ١٩٩٨ كانت تعترض على توجهات معينة ، ترى بأنها غير مقبولة (دينياً واجتماعياً) ، ولم تحدد المذكرة موقفها من الانتخابات البلدية ذاتها ، ولم تسجل ثناء عليها ، ولم تبد اهتماماً بها في حد ذاتها . وقد خاطبت المذكرة مجلس الشورى المعين (ممثلاً في رئيسه وأعضائه) ، بيد أنها كما صرحت في الفقرة الأخيرة - تسعى إلى مخاطبة سمو أمير قطر ذاته حيث جاء : (هذا ما أردنا أن نبينه لسمو الامير حفظه الله ومجلسكم الموقر) .

وتقول المذكرة (ولا يخفى عليكم ما يواجهه المجتمع القطري من تحديات عظيمة ؛ فالاقتصاد العالمي متذبذب ، وأسعار النفط غير مستقرة ، واحتياطه قد أزف على النفاد وسيل عارم من الأخلاق المنحلة والعقائد المنحرفة ، كل ذلك يتطلب توحيد الجهود لتشكيل تيار مخلص يحمل هم دينه ووطنه) . ذلك الخلط بين الشأن العام

وربطه بطريقة غامضة بالجانب الديني والأخلاقي قد ينبىء عن تحرز من توجيه الخطاب المباشر، والحذر من ملامسة الشأن الأكثر خطراً سياسيا واقتصاديا .

لا شك بأن الفقرة الأخيرة تلمح إلى طلب الاستشارة في القرار السياسي (ليس شعبيا بل نخبوياً)، وعن طريق مناصحة أو(تشكيل تيار مخلص)، لعله الاقتراح هنا باستشارة تيار معين وليس إشراك التيارات كافة في الاستشارة!

أو لنقل في هذه الحالة هو طلب تقريب التيار التقليدي المحافظ وترجيح تفضيلاته ونظرته إلى الأمور، ولا نقول رؤيته وبرامجه لأنه لا يملك مشروعاً بديلاً .

لا تعدو تلك المذكرة كونها موقفاً ضيقاً وجزئياً انتفض لأمر يخص النظرة الدينية المحافظة والتقليدية، فيما يتعلق بالاختلاط ودور المرأة في المجتمع، وحدود نشاطها، دون الإشارة إلى ضرورة الإشراك الشعبي في القرار السياسي، وهو الأمر الأكثر إلحاحاً ومركزية .

وبالرغم من ذلك فإنه لم يزل الكثير من الناس يتعاطفون مع تلك الدعوة التي عبرت عنها المذكرة، برغم كل قصورها وسطحيتها، وذلك (لأن المجتمع في حاجة ماسة لمن يصنع فيه أدوات المقاومة وآليات الدفاع ؛ فهو أعجز من أن يأتي بها بنفسه وبتلقائية طبيعية)، على حد تعبير أحد الباحثين القطريين .

تختتم المذكرة بالقول (لقد كان لدعوة الأمير لأبناء شعبه لإبداء الرأي والمشورة وسعة صدره لسماع رأي أبنائه، دافع لنا

لنتقدم بهذه المطالب)[١] .

كان التوقيت - من إحدى زوايا النظر - مهماً وحرجاً ؛ يكاد يكون توقيت عريضة التسعينيات قدرياً يرجح ضرورة طرح المطالب السياسية على الطاولة آنذاك ، ولكن دون أن يحقق المعادلة كاملة . وكانت الدعوة إلى بدء التحول الديمقراطي والإصلاحات مطروحة على مستوى المنطقة المتضعضعة بعد حرب تحرير الكويت ، وكانت مدفوعة بتطلع النخب وليس الشعوب على كل حال ، إلى الإصلاح السياسي ، دون أن تملك تلك النخب أية قدرات تفاوضية . عوّل صاحب مذكرة ١٩٩٨ بلا شك على تعاطف المجتمع إن لم يكن دعمه ، وربما ظنت نخبة عريضة ١٩٩١ كذلك بأن التعاطف الشعبي ، كفيل بحماية ظهرها واستنقاذها عند الضرورة! ورجحت بأن الضربة التي تلقتها الكويت ، وتحريرها وعودتها بتلك الطريقة الدرامية قد أسهم في إحداث توعية وتحذير ضرورين في المنطقة ، كما بعث فيها حراكاً وراءه مخاوف وانسدادات طال عهدها .

توجهت كل من عريضة ١٩٩١ ومذكرة ١٩٩٨ كليةً إلى السلطة وحدها للاضطلاع بمسؤوليتها ، سواء في الإصلاح السياسي (عند أصحاب العريضة) أو في ضرورة حماية سور الدين والأخلاق

---

(١) صرح صاحب موقع المنبر القطري على موقعه الإلكتروني بأنه (صدرالأمر باعتقالي لمدة (١٠٢٧ يوماً) ثلاث سنوات تقريبا في سجن انفرادي ، وخرجت ولم يبين لي السبب ، إلا أنه بلسان الحال وليس المقال أنك لا تسلك هذا الطريق) .

في المجتمع (عند أصحاب المذكرة) .

ولم تركن العريضة ولا المذكرة كثيرا أو قليلا إلى أي مساندة أو دعم فعلي متوقع من المجتمع ، بل قدمت كل منهما نفسها بوصفها كلمة غيورة لمناصحة ومناشدة ولي الأمر .

خاطبت عريضة عام ١٩٩١ السلطة مباشرة ، باعتبارها نخبة تمثل صوت المجتمع وضميره ، وقدمت مطالبة واضحة ومباشرة بحقوق سياسية ومدنية سمّتها وحددتها ، منطلقة من الأساس الدستوري ومفهوم المواطنة .

أما المذكرتان الاخريتان (١٩٨٤ - ١٩٩٨) فانطلقتا من الفهم الديني المتشدد لمسائل تمت معالجتها من منظور معين ، ووسمت بالتحريم شرعا ، ووصفت بأنها مؤثرة أخلاقيا في الأساس الاجتماعي ، وبالرغم من أنها نافحت عن الدين إلا أنها مثلت في الواقع فهماً دينياً محدوداً وضيقاً ، وقد تناولت المذكرة الأولى في عام ١٩٨٤ بالانتقاد الشديد شخصيات من الكادر الجامعي (قطريين وغير قطريين) ، واتهمتهم بصورة مضخمة بالإساءة إلى المجتمع والأخلاق ، واقترحت عزلهم ، وكان ذلك لأسباب ظرفية وبسبب تعبيرهم عن آرائهم فحسب .

وقد كانت ردة فعل السلطة عنيفة تجاه عريضة ١٩٩١ التي قدمت إلى الحاكم ، وكذلك كانت إزاء مذكرة ١٩٩٨ التي رفعت إلى مجلس الشورى المعين .(١)

---

(١) بعد أسبوع من تقديم المذكرة ، اعتقل ابن عمير وسجن لثلاث سنوات تقريبا في زنزانة انفرادية ، دون توجيه أي تهم إليه ، كما هو مذكور في موقعه الإلكتروني المنبر القطري .

وقد انفرد أصحاب التوجه الإسلامي بمبادرتهم في مذكرة ١٩٨٤ ، التي قدمت إلى مجلس الشورى ، وكذلك في المذكرة التي تلتها في عام ١٩٩٨ ووقع عليها (١٤) شخصاً فقط!

كما سجن بعض الموقعين على عريضة ١٩٩١ فترات مختلفة ، ومنع البعض الآخر من السفر لسنوات ، فضلا عن أمور أخرى .

ويُعتقد بأن تلك المذكرة الأخيرة قد لاقت تحريضاً وتأييداً (خفياً) من بعض أعضاء المجلس الشوري المعين نفسه ، الذي أحجم عن تقديمها بنفسه (!!!) ثم تنصل منها تماما عندما قدمها السيد عبد الرحمن بن عمير علانية وقد عرف عنه بأنه شخص مقرب من السلطة ، الأمر الذي قد يفسر جزئياً عدم حرصه على تقديم المذكرة بسرية فقد فاجأهم الأخير بالحضور في أحد اجتماعات المجلس العلنية ، ووزع نسخاً على الأعضاء ومحرري الصحف ، ثم قام بقراءتها على الجمع الحاضر ، وعبر ابن عمير عن حجم تلك المفاجأة بقوله - كما جاء في موقع المنبر القطري - أن النسخ سقطت من أيدي البعض! وبعدها شاع الخبر بين الناس .

وفي كل الأحوال فإن السلطة تعامل الأشخاص الذين يقومون بتقديم العرائض - على اختلافها - باعتبارهم أفراداً من رعيتها ، يمثلون أنفسهم فحسب ، ولا تلجأ مثلا إلى قبائلهم كما قد يتوارد إلى الذهن ، وقد ينسجم مع العرف القبلي السائد في المجتمع ، وكان حرياً برؤوس القبائل وزعمائها أن يقوموا بتأديب «أولادهم» وردعهم ولو بالقوة ، بيد أن السلطة لم تشأ أن تدخلهم وسيطاً ، ولا أن تعترف بهم طرفاً في الموضوع ، ولا أن تعطيهم شأناً أكبر في

المسألة ، فالدولة الراعية المسيطرة منذ السبعينيات قد حيّدت القبيلة ، وحصرت المسؤولية في يدها وحدها ؛ لئلا تكون هناك أصوات متعاطفة أو متضامنة مع أولئك الأفراد في محيطهم القبلي والاجتماعي ، ولئلا تتدخل عاطفة الدم والقرابة والنسب وتختلط الاوراق كما حدث بالفعل سابقا .

الجزء الثالث

الدكتورة منيرة

هم بروني وأنا عـودي رفـيـــــــع
يا علي مـثل مــاتبـرى اليـــراع
طوعوني وأنا مـاكنت اطيــــــــع
واغلبـوني وانا قــرمٍ شـجـــاع
ابن لعبون

هل كان ثمة شخص في الدنيا يسعه الارتياب في أن الدكتورة منيرة تعيش تلك العلاقة المحيرة البلهاء! كانت علاقة مخجلة وتسبب لها كل ضروب الهواجس وملازمة الشعور بالعار ، وبالرغم من أنها لم تتصور في وقت ما أن تفترق عن يوسف ؛ فإنها تتساءل اليوم كيف استطاعت أن تحبه على الإطلاق ، إذا سلمنا بما يقوله بعض علماء النفس من أن الحب ليس شعوراً غامضاً بعيداً عن مستوى وعي الإنسان واختياره ؛ فإن على الدكتورة منيرة أن تعرف ، إلى حد ما ، لم وقعت في حب شخص مثل يوسف بن عمران!

لم تكن ثمة لحظات حاسمة ولا أحداث دراماتيكية في علاقتهما ، ولم يكن هناك ثمة شيء في الحقيقة يجعلها تلتفت إليه وتقول إنه أثر في نظرتها وأثار إعجابها فيه ؛ لذلك فإنها تأسف

عندما تعود بذاكرتها إلى تلك السنوات (وكان ذلك بحد ذاته أمرا مهينا وقاسيا) ؛ بإمكانها أن تقول لنفسها بأن الحب أعمى! ولكنها شعرت بسخافة التبرير ، لماذا يتعامى المرء ولأي غاية وأية مكاسب يحصل عليها ؟ هذا ما كانت تفكر فيه في نهاية المطاف : المكاسب! ولم يكن هناك أية مكاسب متحصلة تستحق الالتفات اليها . كانت علاقة تثير الشفقة ، وبالكاد تحمل صاحبها على تذكرها واستعادة أي لحظة من لحظاتها . واليوم بالذات تنفجر تلك الألغام الواحد تلو الآخر في وجهها ، وكأنما وراءها تدبيراً وتآمراً . لماذا ؟ ما الذي حصلت عليه منيرة ؟ خيل لمنيرة أنها ستحصل على التقدير دون أن تطلبه ، ولكن ذلك لم يقع . وظنت أنها تستطيع أن تتجاوز ذلك! إن الإخفاقات في حياتها جعلتها تنظر إلى هذا الأمر مخرجاً وملاذاً . إنها تريد أن تجابه الآخرين بانتصارها المظفر والمستحق ، ولو كان متأخراً . لا تريد المنصب في ذاته ، ولا تريد الامتيازات ، ولا تريد ظهوراً أو شهرةً أو منافع من أي نوع . لم ترد إرضاء أحد . كانت تريد أن تثبت للآخرين أنها تستطيع أن تحصل على ما تستحقه ، وبعدها سترمي كل شيء في وجوههم وتغادر المسرح . لن تنتظر التصفيق ولا تحتاجه!

لا تأبه الدكتورة منيرة للعالم المهووس بالمراتب والنعوت والمظاهر ، والخالي تماما من المواقف والمعاني والتقدير . يكافح أمثال منيرة ليثبتوا لأنفسهم قدرتهم على الصمود والاستمرار ، في زمن لم يعد زمانهم (لأنهم في زمانهم لم يتح لهم أن يكونوا ما يحلمون به) . كانت منيرة تقاوم أمراً أشد من الموت ، تقاوم الفناء .

لم تحسن الدكتورة منيرة أمراً في حياتها بقدر ما أحسنت التصنع والتظاهر، وبإمكاننا إجمالاً وعموما القول بأنها تجيد الكذب أكثر قليلاً مما نجيده جميعا، وهذا الأمر متأت وميسور لأي أحد، ولكنه يحتاج إلى لمسات «إبداعية» وإلى شيء من الضعة!

الجميع يضطر إلى الكذب ويحتاجه من وقت لآخر، ولكن إلى أي حد، وإلى أي مدى يحسن بالمرء أن يلجأ إلى الكذب؟ تحسن الدكتورة منيرة الكذب على نفسها وعلى الآخرين، إلى الحد الذي تكون فيه صادقة تماما (نعم إلى ذلك الحد!!). يجب أن أعترف بأن الدكتورة منيرة ليست لها حقيقة لكي تشعرنا بأنها قد انحرفت عنها؛ فهي عندما تكذب - إن كان يصح تسميته كذباً - إنما تحاول أن تخترع حقيقتها ليس إلا!

وعندما يتطلب الأمر أن تخترع شيئا مقصوداً به إيهام الغير بشيء لهدف معين فإنها - ياللمفارقة- تكون عاجزة تماما عن الكذب! إنها بالكاد تحاول أن تفعل ذلك! لأنها تقف لائذة بالصمت ومصابة بالعي الكامل؛ فلا تحير جواباً كأي امرأة صادقة تعجز عن المراوغة حول مبتغى واضح!

أستطيع أن أرى بوضوح ما لم تتمكن منيرة من رؤيته (أو الاعتراف به)، إنها تظن أنها أوتيت فرصة، وأنها تستطيع أن تصنع بتلك الفرصة فرقاً، بل إنها تظن أنها بأخطائها وخطواتها تصنع «منجزات» مهمة. مهما اختلفنا حول الدكتورة منيرة فإنها سوف تضع اسمها مع الصنّاع وليس مع المتصنعين (المتصنعون هم أولئك الذين يملأون بمؤخراتهم الكراسي الوثيرة، ويصرون على إزاحتها من

الصورة بمزاعم شتى) ، يقولون عنها بأنها لم تنجز أبحاثاً ذات قيمة ، ويقولون بأنها فوجئت بالمنصب على حين غرة ، بسبب علاقات معينة ، لكنها لا تأبه بما يقولون! إنها تؤمن بأنها سوف تسهم في أهم تغيير في مجتمعها ، وهي موقنة بأن ذلك ما يثير حفائظ ويحرك أحقادا قديمة . . وجديدة .

هل يتعين على المستقبل أن يقهر الحاضر ويتناقض معه ، أم هل يجدر بالاثنين أن يتوافقا ؟ لا معنى لأي مستقبل من دون وجود الحاضر قبله ممهداً وسابقاً ، فلماذا يصر أبناؤها - إذا- أن يكونوا ضدها . . كالآخرين ؟

هدى تصر على الاقتران بشخص أمريكي ، وطارق غادر مبتور الساق إلى مكان لا تعلمه ، ويمارس نشاطاً لن تقره غالبا ، ولديه أبناء لا تعرفهم ، بالرغم من أنهم أحفادها بل لم ترهم قط . أما عبد الله فيريد أن يرث مالها وهي على قيد الحياة ، ولكن أقسى ما واجهته منيرة وصارعته في حياتها هو تصنع الحب .

عندما غادر يوسف إلى نيويورك فجأة كادت أن تهلك في حينها ، بيد أنها شعرت بعدها بسنوات بأنها لم تحبه قط . لم تدّع ذلك لأنها تتمناه فحسب ، بل لأنها شعرت بالفعل بأنها لم تحب شخص يوسف بل أحبت الحب ذاته! لقد تصنعت حبه ، تصنعت أوجاع الحب كلها ، لسنوات ، (وبدتِ أوجاعا حقيقية في حينها ، حقيقية بشكل كاف!)

كل ذلك انتهى الآن! لم يبق منه سوى خيوط منسولة من نسيج مهترىء لذاكرة الدكتورة منيرة ؛ وهي ذاكرة موصدة في وجه

الذكريات البشعة . إن اقتران الحب بشخص بشع يشوه صورة الحب ، ويدمغه بالقبح والنقص . أحقا أحبت منيرة شخصا بغيضا أنانيا تافها وسطحيا كيوسف ؟

الحب المشوه

عندما تحاول منيرة أن تسال نفسها هل كان ذلك حباً ؟ كانت تشعر بأنها تحمّل تلك العلاقة أكبر مما تطيق! كانت (علاقة) تقتلها وتهدم عزيمتها على الحياة! لم يعد يوسف بمرور الوقت يعني لها أي شيء ، باعتباره شخصاً ، ولم تعد تعرفه! غاصت بعيدا في علاقتها به في عقلها ، حتى أصبحت العلاقة ذاتها كاللعبة التي يمارسها المرء ذهنيا مع نفسه . لطالما شعرت منيرة برغبتها في الانتقام لكرامتها أكثر من رغبتها في المصالحة ، وكان يوسف على الطرف الأقصى من النقيضين كليهما ؛ كان مثاليا أكثر مما يُحتمل ، وأكثر خساسة من أن يسمى حبيباً ، لكنه لم يكن أكثر سوءا من معظم الأشخاص حولها! البعض منهم يثير الشفقة ، والبعض الآخر يثير الازدراء ، وأكثر الناس لا يساوون التفكير فيهم!

لقد قسمت منيرة الناس في عصرها إلى صنفين رئيسين : صنف دنيء وعملي يملك بعض مؤهلات الصعود ، ولكنه يخفق في تطويرها لأنه بلا محفزات ، ولا يتمتع أساسا بفرص الانتقال من مستوى إلى آخر ، ومن طبقة إلى أخرى ، كما أنه يجبن عن المحاولة ويتردد في مغادرة مركزه ويقنع به! تحتقر منيرة ذلك الصنف وتستهزىء به ؛ لأنها تراه (متمسكناً) غير أنه خبيث ، ولو أمكنه أن

يثب إلى درجة أعلى فوقك لوطأك بقدمه . أما الصنف الآخر فليس أفضل حالاً منه ، الا أنه على قدر من الوضاعة والبلادة ، بحيث يبدو أقل خبثاً ودناءةً وطموحاً ؛ وهو صنف هش وضعيف أمام الإغراءات السهلة ، لكنه غير مؤهل لأن يبلغ أبعد مما هو فيه . لا تصنف منيرة نفسها مع هؤلاء ولا أولئك ؛ بل تحب أن تظن بأنها أعقد قليلا من القابلية للتصنيف! هناك بالطبع الأصناف البينية الأخرى من الناس ، إلا أنها كانت دون مستوى اهتمامها .

لم تألف الدكتورة منيرة الخلطة بالناس ، وأعطاها ذلك منظورا تأمليا للأمور وللناس من حولها ، فقد كانت تراهم دائما عن بعد ، ولكن ذلك حرمها ميزة الاحتكاك بأصناف متعددة من البشر لم يكونوا ضمن محيطها ، ولم تسع إلى معرفتهم ؛ لأن منيرة كانت تعوزها تلك المهارات الأساسية للتعامل مع الناس ، على اختلافهم ، فقد كانت تخشى افتضاح أمرها إذ إنها لا تحسن الحكم على الأشخاص .

اعتادت منيرة ، عبر منظورها التأملي ، أن تكوّن أفكاراً مثيرة للجدل ، بيد أنها لحسن الحظ لم تكن تناقشها إلا مع قلة من المقربين ، وفي حدود ما يتسع له المقام كانت تقول : (لا يمكن للمرء أن يصرح بأفكاره في مجتمع أحادي كهذا المجتمع لا يحبذ الأفكار المغايرة ، ولا يعترف بالتعددية ولا الاختلاف ، بل يدينهما ويقدس التماثل والتجانس ضمن السائد) .

في كل مرة تصاب فيها بحالة اكتئاب كانت تنسحب من الاجتماعات وتعتذر عن عدم المشاركة في (السيمنارات) ، وحتى

عن حضور المناسبات العامة ، لأنها (هي المتصنعة الكبيرة) لا تجيد إخفاء مرارتها وكآبتها ، ويصبح (الظهور) أكبر عقوبة تواجهها ، مما قد يضاعف تلك الأعراض العصابية التي تعاني منها في إحباطها المركّب ؛ وهو مركب لسببين ؛ بسبب شخصيتها ، وبسبب تلك الرتابة التي يسبح فيها الفكر المعاد المكرور ، وتعتاش عليها الأحاديث التافهة حول الفرص الذهبية والتنابز والدسائس وتحقير الخصوم . إنه بعبارة واحدة : عقم يحيط بالأشياء والأفكار والنهايات والاحتمالات .

بقي (أناها) مائعاً ومعلقاً وماثلاً أمامها طوال عشرين عاما قضت أكثرها في أروقة الجامعة الوطنية ، لم تتقدم بحثيا بسبب تلك المحاذير التي يضعها الجميع نصب أعينهم (وربما أيضا جزئيا بسبب قصورها المنهجي!) ، لم تتسلم منصبا برغم الوعود ، وبرغم تغير الإدارة مراراً ، وعانت باستمرار من تلك «الكائنات» التي تسكن دهاليز علمية بمسوح مزيفة ، وتجتمع في نفوسها كل غوغائية التحاسد والوشاية والرذائل الشائعة بين العوام .

قابلت الدكتور راشد وهو خارج من قاعة المحاضرات ، نظر إليها مستطلعا ، وربما مؤنبا ، لأنها لم تعقب بشيء على محاضرته التي ألقاها توا في القاعة . شعرت بالذنب ، ولكن الشعور بالذنب لا يدوم طويلا لحسن الحظ ، فحين يقترف المرء رذيلة جماعية كاللامبالاة بالشؤون العامة يستطيع أن يفلت بسهولة من العقاب . ما قيمة أن تسانده ؟ قالت له دون أن يسألها : إن الأشخاص الذين يتنطعون لمساندتك في فكرة معينة سوف تجدهم يخالفونك في

جملة أفكارك ، لا يمكن لأحد أن يحسب أي أحد في زمرته!

- وانت في أي زمرة . . الآن ؟

شعرت أن في عبارته وقاحة عارية من أي دعابة! دائما يشيرون إلى تقلباتها وكأنما يطاردونها بحكم لا يسقط بالتقادم . قالت : لا أؤمن بالتصنيفات المبتذلة! هذه طبيعتي!

وأردفت :

- انت عارف! يصعب التعقيب في مناخ مشحون بالعدائية والجهالة! يستشفون من كلامك ما يريدونه ؛ لأنهم سبق أن صنفوك وعلقوا عليك label! أنت تعرف ذلك! أنت جربته!

- لذلك يقول نيتشه (إن الأخلاق والدين يستندان كلية على سيكولوجية الخطأ) ففي الحالتين تختلط العلة بالمعلول!

كانا يقفان على المدخل لم يتحركا لاستكمال الحوار (لم يرد أي منهما استكماله) ، وكان هناك من حولهما ضجيج وتحايا وتعليقات مرتفعة وهامسة . تركته الدكتورة منيرة وانطلقت إلى الردهة لتصادف الدكتور الشاب جابر محييا ، باسماً في مشروع ضحكة :

- ما هي سالفة الأقنعة يا دكتورة ؟ نظرية مثيرة!

وهز مقالها المنشور في يده . قالت :

- أها! قرأت المقالة ؟

التفتت تبحث بطرف عينها عنه . كان الدكتور راشد واقفا على مقربة منها . تحلق حوله أربعة أو خمسة أشخاص . أحست باضطراب وشيء من الحسد من راشد وكاريزميته اللعينة .

انضم الدكتور راشد إلى هيئة التدريس منذ سنوات ، وكان

يبدو جامحا في أفكاره وفي مناقشاته الجانبية ، وفي «قفشاته» إلى أبعد الحدود ، بيد أنه كان شديد الحرص والتكلف كذلك . كان أكثر تكتما من كل من صادفتهم الدكتورة منيرة من الأساتذة القطريين في الجامعة الوطنية . لم تفارقه أبدا روح النكتة والسخرية (الكلبية) ، وسرعة البديهة ، وهالة المثقف العضوي .

تذكر الدكتورة منيرة يوما مضى ، في تلك المرحلة «الخضراء» التي لبست فيها النقاب ، تصادفا عند بوابة مبنى كلية البنات ؛ فألقت عليه السلام ، ولما سمع صوتها التفت وراءه ثم نظر صوب تلك المنتقبة أمامه بتمعن وتمهل ، قبل أن يقول متسائلا : من ؟ الدكتورة منيرة ؟

قالت : لبيه .

بدا مصدوما ومعقود اللسان قال :

- عذرا ما عرفتك مع هذا ال . . . منذ متى ؟؟

- نعم الحمد الله تنقبت .

- آه الحمد الله . . على كل حال . أين غطست ؟

We haven t seen much of you lately

ثم أردف بسرعة بعد ضحكة مقتضبة

I mean we still don't

لم تلتقط منيرة إلا الجملة الأخيرة من كلام الدكتور جابر ، ذلك الشاب المتحمس ، الواقف أمامها وسمعته يقول :

- لكن تلك المقابلة التي أجريتيها ، بعيدة في نظري!!

- كيف ؟ ألا يتماثل الفكر الصحراوي مع تلك الروح الجمعية

البدائية التي تتحرك بدوافع الفضائل والرذائل الجماعية ، وبعيداً عن مبدأ المسؤولية الفردية المليئة بالمتناقضات!

نظر إليها الدكتور جابر فاغراً فاه تقريبا فشرحت :

- أقول إننا نود أن نكون متماثلين مع بعضنا البعض ، وبالتالي مقبولين وأن نتجنب المساءلة الشخصية ، بل نريد أن ننال الحظوة الاجتماعية . ما علينا إلا أن نعيش في تكيف مصطنع بلا تناقضات ولا تعقيدات شخصية ؛ لأننا نعيش (جمعياً)!

- أوف!! هذا جحيم!

- بالعكس هو الفردوس بعينه! لذلك نحجم عن مغادرته إلى جهنم تطور الشخصية الفردية وافتراقها عن روح القطيع . تلك الروح الجمعية قطيعية بكل معنى الكلمة! ولا تعرف سوى ندرة من النماذج العبقرية والفائقة الفرادة ، وعبقرية تلك النماذج على وجه الخصوص تتجلى في قدرتها على التنازل لتلك القطعان عن «منح» محدودة : من توسيع المشاركة ولو شكليا ، وتوزيع جزء من الدخلً على سبيل المكرمة ، وتحرير هامش من السوق المحتكر من باب التنفيس والإلهاء .

قال جابر : الشخصية الكاريزمية العبقرية النادرة أثبتت دائما محوريتها في التاريخ العربي الحديث بالذات .

- نعم الشخصية النادرة التي تلعب على أوتار التوازنات ، تتكرر في التاريخ ، ويعود إليها شخصيا الانفراد بالقيادة ، والفضل والمجد جميعه ، لذلك ليس هناك حدث مؤسس في التاريخ بل شخص المؤسس فحسب!!

- وما سر تلك الشخصية ؟ هل تشق الأرض وتطلع؟ أهو القدر؟

- انها شخصية تأتي على قدر مع الظروف من حولها ؛ لا بد أنه القدر إذاً يا دكتور جابر! فنحن (نماذج) فريدة ومستقلة بذاتها ، لا تخضع مثل غيرها لنظريات وأسس فلسفية غربية! لهذه المنطقة قوانينها وسننها الخاصة ومنطقها الخاص! إذا أردت أن تطبق عليها مناهج من خارجها سيكون عملك دجلاً وتزويراً .

قال جابر بأسى : من يعرف حقا ماذا حصل ؟ كلها قراءات تعتمد على معطيات متذبذبة مفهوميا ووقائعيا! تفاصيل وأقاويل متضاربة ، بعضها يُروى تفسيرا وبعضها تبريراً خالصاً ، وكثير منها تكنهات وأوهام وتوريات! هناك أحداث خافية ومستبعدة وستظل تحت الغطاء .

قالت منيرة برقة : باعتبارك باحثا نزيها . .عليك أن تكون متشككاً وانتقادياً للغاية .

- ولكن متى عسى أن يكون التاريخ تاريخاً ؟

- عندما نصنعه بأيدينا ، ونكون قادرين على تفكيكه بصورة مفتوحة ، وعندما لا يعتمد على الروايات والمصادر الرسمية المسموح بها فقط ، والتي قد لا ترمي سوى إلى التضليل أو التمجيد فقط .

تتأرجح الدكتورة منيرة بين الحب وحالة اللاحب ، وإذا اختارت الحب فإنها ستختار يوسف! لطالما سألت منيرة نفسها هل الحب اختيار ؟ وهل اختارت قط ؟ يبدو - إذاً- أن الأقدار أرحم وأكثر حكمة من اختياراتنا الشخصية! انتظرت منيرة طوال عمرها

(يعني أكثر من خمسين سنة) أن يحدث لها شيء ما ، أن تلتقي بشخص معين ، أن تحدث انعطافة في المجتمع ، أن يقع انقلاب أو أمر جلل وتتغير الأوضاع!! مرت سنوات! وسنوات! وقعت أحداث ودشنت عهود ، وطرأت مستجدات وارتفعت شعارات ، ولكن لم يقع تغيير حقيقي في حياتها أو في بلدها! لم يتبق لها إلا أن تتشبث بوهمها ، وأن تؤمن بأنها التقت بالشخص (المعيّن)! ما عليها إلا أن تغمض عينيها وتقبل بالواقع كما هو!

قررت منيرة أن تذوب وأن تضمحل طواعية في يوسف ، وكأنما لتتحرر من ثقل جسدها ونفسها ووجودها الزائد الزائف ، أرادت أن تغيب عن وعيها ، بوعيها به ، أي في وعي شخص آخر ، لأن ذاتها لم تكن أبدا اختيارا قائماً ولا قادراً على الصمود! ولم تأت الهزيمة من الخارج! لم يحطمها رفض يوسف لها ورحيله المباغت (والذي توقعته على الدوام) ؛ فقد كان يوسف محميا بأنانيته دائما ؛ وكان يوسف وعداً بلا أمل منذ البداية ، ولكن أصابتها حالة من الرعب ؛ لأنها واجهت نفسها بعد رحيل يوسف . هل كان الحب حالة عبودية فرضتها منيرة على نفسها ثم اكتشفت أن السجان ترك المفتاح وغادرها بلا جلبة!! أصبحت منيرة فجأة بلا قيود . . وبلا حب .

تحررت - بعد رحيل يوسف- تلك الطاقة بداخلها ، ولكنها لم تجد موضوعاً ولا هدفاً ولا طلباً عليها! ولم يمثل ذلك تجربة استنارة أو اهتداء إلى ما هو خارج ذاتها! لم يقدها ذلك إلى تفسير أو نتيجة أو لأي شيء من الأشياء من حولها ؛ فكل شيء أمسى برحيل

يوسف . . مفقودا .

لقد تمسكت منيرة بفرادتها إزاء علاقتها الإذلالية بيوسف ، وبالرغم من أن منيرة كرهت يوسف (والكراهية نوع من العاطفة أيضا) ، فقد كانت ترفض حبها له بشتى الصور وتقاومه . هل كانت تعرف منيرة بأن يوسف كان يقاوم - بدوره - سعيها لإثبات أنه الجانب الآثم في تلك العلاقة الشائهة ، التي انبنت على ضعفيهما معا ؟

وبقدر شدة مقاومته ، لجبرية علاقتهما ، كانت منيرة تمتلك الموهبة والقدرة معا على إطلاق وخزات مستمرة لأضعاف عزمه وتخطئته . مهما احتمت منيرة وراء ستر موضوعية في نقاشاتهما فإنها كانت تبذل محاولات محمومة لعزله في الجانب الخاطىء . لم يعرف يوسف لماذا تتصرف منيرة على ذلك النحو الثأري ، ربما عزاه إلى مزاجية أو غيرة أنثوية لامرأة عاشقة تملك طاقة مدمرة . . لكليهما .

كانت منيرة امرأة قلقة ونزقة (ككل النساء في نظر يوسف) ، ولكنها امراة غاضبة بلا سبب! لماذا وجب عليها أن تطارده بهوس ، وأن تبحث عن نقاط ضعفه؟ لماذا تصر على مجادلته حتى في أوقات ضيقه وضجره ؟ فات يوسف أن يرى في تصرفات عاشقته الخرقاء أنها كانت تريده أن يغدو متفوقا وقويا ومتعاليا .

كانت تدفعه دفعا ليستخرج أفضلية (قد لا يتمتع بها) ، كانت كمن يضع شخصا في موقف بطولي لم يكن متأهبا له فيوقعه في العجز التام . كانت تلعب معه لعبة تديرها وتستمتع بها(بطريقتها

الخاصة) ، وهذا معناه أنها لم تكن تقبله كما هو ، وهذا أكبر خرق لأهم شرط في الحب! وأي شيء يدل المحب على صدق حبيبه إلا أن يقبله كما هو .

كم هو قاس أن يتباهى المرء بموضوعيته وسعة معرفته ، ولا يعي بأنه يعيش حياة مغلفة بضباب التعامي عما حوله من وقائع بسيطة وواضحة لغيره! وبمرور الوقت تختفي كل الستر التي أقامها المرء بينه وبين نفسه وبين الآخرين ، وإذا به يجد نفسه بمواجهة نفسه . . وحيدا!

بالرغم من أن كل تلك الأمور كانت تشبه إلى حد ما المرحلة الأولى من ظهور المرض العقلي ؛ فإن الدكتورة منيرة استمرت معدودة في العقلاء حتى وفاتها .

هل يحل الغرام الإشكالية التي يعانيها الفرد بصورة لاواعية ؟ كلا إن الغرام يتجسد ويتمظهر في صورة تلك الإشكالية ذاتها بصور مموهة . تشعر الدكتورة بالاتضاع والإذلال يوما بعد يوم في علاقتها بيوسف .

ليت الحب كان يتعلق بطموح معين! ولكن الدكتورة منيرة تعلم بأنها لن ترتقي إلى مكانة أرفع بحبها ليوسف ، ولن تحقق أي مقصد سام (أو غير سام) ببلوغها أي ذرى (أو انحطاط) في ذلك الحب! أما السعادة فأي سعادة متحصلة من حب كذاك الحب! ليس هناك هدف أسمى من تحقيق الطمأنينة عند المرأة . وذلك أمر لن يتأتى من أبواب الرفاهية أو النجاح الشخصي أو الحصول على ثروة أو مكاسب مادية . تعتقد الدكتورة منيرة بأن التطلب المتزايد

لدى النساء للعاطفة في حياتهن يشي بضعف أساسي ورئيسي في تكوينهن النفسي! وتكره الدكتورة منيرة ذلك الجانب الأضعف في شخصيتها وشخصية كل امرأة!! يبدو أن السعادة في نهاية المطاف مرتبطة بأوهام حول الامتلاء والإشباع والتحقق .

تحتاج المرأة إلى العاطفة المشبوبة لكي تحس بأنها مرغوبة وإلا فإنها لن تشعر بالأمان . لن تشعر بنفسها وبأنوثتها ، ولن تشعر بالحياة من حولها!

وسوف تتبخر ثقتها بنفسها ، وتخسر كل سعادة محتملة ، مهما كانت المرأة مخفورة ومخدومة ومستغنية!

قد يسمي البعض ذلك حباً للذات عن طريق الآخر ، أو بعبارة أخرى تحقق «مثال الأنا بالوكالة» ، أي أن تحب المرأة (أناها) من خلال اندماجها في الآخر ؛ وهو اندماج ضروري للمرأة قد تعتوره مشاعر الهيمنة والغيرة وحب التملك والرغبة في وهب الذات لمن يرفضها أصلا . تدرك الدكتورة منيرة بأنها مدفوعة بنزعة خفية إلى الامتزاج بيوسف ؛ لأنها تحتاج أن تصبح (واحدا)!!

تريد الدكتورة منيرة أن تفنى في الحبيب ولكنها- عمليا- لا ترى إلا الحب وحده (تريد أن تختبىء وراء الحب!) والحب - وليس يوسف - هو أكبر طموحها . قد يقال بأن الحب في اصله (إن كانت هناك حقائق مقررة عن الحب) يزيح الذات جزئيا أو كلية ، ويوجه الأولوية في الاهتمام إلى الآخر ، باعتباره موضوعا للحب ، وأن من يحب ينبغي أن يتخلى عن طموح «الأنا المثالي» ، ويقبل بالآخر كما هو ؛ أو لنقل أن «الأنا الآخر» يصبح محورا للتوق والإكبار (إذا

كان الحب عاشقا مولها وأعمى)! ، ولكن ذلك كله لا يجعل من الأنا الآخر بالضرورة «أنا» أفضل أو متفوقاً على الأول ، فالحب لا يدوم (وهذه حقيقة لا يود أحد الاعتراف بها!) ، هل يستحق الآخر (وهل سيظل مستحقا) ، كل ما مُحض به من حب وإيثار وإخلاص وتنازلات ؟

إذا كان منشأ الحب هو دوافع «الأنا» (أي مخاوفها وأوهامها وتخيلاتها) ؛ فإن الحب يخضع تماما لإرادة تلك «الأنا» وقواها وعملها السري ، الذي لا يكف عن عقد التسويات والتحالفات ، وإيجاد التعويضات ، فضلا عن التقلبات الظرفية!

لا يمكننا أن نفهم أو نبرر مدارات الحب التعيس لأشخاص مثل الدكتورة منيرة شخصية تتعاقب عليها نزوات ونزعات مستمرة ، محورها التأثم والعقاب الذاتيين بصورة واعية ولا واعية . لدى الدكتورة منيرة خطة محكمة الخطوات ، وكلها تصميم على بلوغ نهاية محددة ، لأنها متأكدة من استحالة نجاح أي تجربة ، فضلا عن علاقة مأزومة ومشحونة بالنقائض . تجزم منيرة بأن علاقتها بيوسف سوف تستحيل إلى إخفاق وفشل ذريعين ، وسوف تثبت منيرة لاحقا بأن كل مخاوفها في محلها ، وأن نظرتها كانت صائبة .

لا يمكن أن ينجم مثل ذلك التوقع إلا عن تقويم وضيع للذات . ربما تستطيع جلسات تحليلية نفسية طويلة أن تسترجع ذكريات امرأة مثقفة مثل الدكتورة منيرة تحيا في نسق اجتماعي ميت ، وتعيش وضعا ميئوسا منه ، فلا يمكنها إلا أن ترى الحياة بمنظور فرويدي على أنها : (ليست سوى اضطراب من أجل السكون الأبدي ، لا يتحرك

فيها المرء إلا بناء على حاجة للعقاب الذاتي)

وقد يكشف ذلك الأمر نفسه ، عن موقف نمطي لشريحة عريضة من النساء المثقفات يمارسنه بإخلاص وإتقان ، دون أن يعين ذلك تماما أو يكنّ قادرات على التعبير عنه أو تبريره لأنفسهن .

لقد أظهر كل من الدكتورة منيرة ويوسف بن عمران(هذين الشخصين المثقفين الراقيين طبقيا) ، أسوأ ما لديهما في علاقتهما الخاصة . كانت تخاصمه وتثأر منه ، ولا تتورع عن تجاهله إذا اتصل ، بينما تقوم بالاتصال به ليعلم بأنها ستلاحقه وتفسد عليه أي متعة وراحة . كانت تغضب وتفتعل الشجار لكي تدفعه إلى أحضانها مجدداً مذنباً ومعذباً . تدفعه عن طريق الابتزاز العاطفي إلى الشعور بالذنب! تلومه لأنه يجبرها على فرض نفسها عليه! تكرهه لأنه حوّلها إلى جريئة متسلطة نزاعة إلى الاستقواء ، وهي لا تشعر إلا بالاضطهاد من أغلال حبه! تعلم منيرة بلا شك أن الرجال لا يحبون ذلك في النساء ، ويوسف على وجه الخصوص يمقت عبوديته لأهل زوجته ، ويشعر بأنه قد باع نفسه لنسيبه! فلماذا يقسرها إذاً أن تؤدي دور القاسية وهو جلادها ؟

كم تعهدت أمام نفسها بألا تكون هي البادئة في علاقتهما! وأن تلغيه من أيامها وتفكيرها ومشاعرها! لا تريد أن تكرهه! كلا ، لا يستحق يوسف ذلك القدر من الاهتمام ؛ إنها تريد أن تسقطه من حسابها! ألا تبالي به! من يكون يوسف من دون منيرة ؟ لا شيء .

ولكن سرعان ما تتغلب عليها طبيعتها النزوية (يعوزها الشيء الكثير من ضبط النفس في الحب!) وتعزو ذلك إلى عدم ثقتها

بحبه (لا يحبها ، لا يحبها ، لا يحبها) ، ولا تملك القدرة على استمالته ، ولا تملك أن تلقي عليه اللوم! فهو لا يريدها! لا تهمه! لن يفتقدها!

وتتصل به لتعتذر وتتذلل لكي تعود إليه ، تقول في نفسها (ها قد اكتشف ضعفك مرة أخرى!!) وهكذا ستنقلب عليه بعد مدة وجيزة ، وستتحول إلى المنتقمة مرة أخرى ، وسوف تعاقبه بشدة (يحطمني . . يقتلني! هذا الشخص خطر على حياتي) . فعلا لم تعد منيرة قادرة على مواصلة حياتها! تراجع عملها البحثي بل توقف تماما ، ولم تعد تواظب على دوامها! أصبحت تشعر بصورة متزايدة بأنها أصبحت محط حديث الجامعة ، يتهامس حولها الأساتذة ، وتنظر إليها الطالبات بإشفاق ممزوج باحتقار ، وحتى محاضراتها في مبنى الطلبة لا تخلو من التوتر (إنهم يعلمون ، يتناقلون الحكي عنها) حتى الجدران تنظر إليها! أصبحت تنظر شزراً لأي حركة أو التفاتة غير واضحة!

تكره يوسف الذي يتظاهر بالإذعان لكنه يمعن في الانسحاب ، وحتى عندما يبدو متسامحاً ومتسامياً تزداد نقمتها عليه (ما أشد بروده) ، باتت تصرخ في وجهه وتنعته بالصفات المعهودة (أناني ومتحجر وبارد ، ما يهمك إلا نفسك! هل تشعر بي ؟) ، وكان يوسف يتركها ويهرب فحسب! تتصل فلا يرد! ترسل إليه فلا يجيب .

ثم تهدأ وتسترجع ما حدث فتجد بأنها هي التي صرخت وجرحته وأهانته! ترسل إليه معتذرة (لا أدري ما حل بي) ، ويقول لها «لا تفكري بما مضى!» لم يغضب حتى! ولم يتأثر! لأنها لا

تهمه لو كان يحبها لاستشعر الألم ، لكنه دائما بعيد وباردا!

لم تستطع مرة واحدة أن تسحبه إلى أرضية الجدل والنقاش حول وضعهما وعلاقتهما . يقول لها «الحب لا يناقش بل يعاش» ، حتى عندما يتذمر من ملاحقتها (بوصفه الطرف الأضعف بالطبع) ؛ فإنه نادرا ما يبدي الألم ، بل كان منزعجاً ومزدرياً لمشاعرها وجنونها ، كان يأسف لأنها «تعاود إيلام نفسها» ، على حد تعبيره .

لم تؤذ منيرة إلا نفسها!! وبالرغم من انه يؤكد لها في كل مرة «تعذبين نفسك بلا طائل» ؛ فإنه لم يسع قط إلى منحها بعض الطمأنينة ؛ ولم يحاول إطلاق سراحها ومنحها حريتها . . منه! كان بإمكانه أن يتركها أليس كذلك ؟ لم تفهم منيرة لماذا لا يتخلى عنها بدلا من تعذيبها! تمنت كل يوم تقريبا أن يتركها (كان ذلك يظهر اهتماماً بها وبمشاعرها) ، لا تستطيع ان تقدم على ذلك الأمر! (لا تستطيع أن تتركه) ، ولو كان «يحترمها» لتوقف عن إذلالها ، لتركها ، لأوصد بابه دونها ، لغيّر رقم هاتفه! لاختفى من حياتها! لكنه لم يفعل ذلك! كان يسامحها ويقبل أعذارها ، وكأنه حريص ألا ينحل ذلك الرباط الأخرق بينهما! لا ، لم يكن حريصاً عليها بل كان يبتعد في فترات كثيرة ، ويقول لها إنه يحتاج لمساحة للتنفس!! وتعرف بأنه يتشاغل عنها ويتهرب! وكانت تنتظره!

كان يوسف يضع نفسه في محل الحبيب الأرفع مقاما ؛ إنه الشخص الذي يولع به جميع من حوله من أفراد عائلته . كان الطفل الأثير من يوم ولادته . وهو الشخص الظريف في محيط الزملاء والأصحاب في العمل والبزنس . أما المناسبات فهو نجمها !

وبرغم ذلك فهو شخص يحب ان ينفرد بنفسه ويعتزل الاخرين وقد يسافر لوحده لانه يجد الراحة في الاستقلالية عما يشعر به الآخرون نحوه لانه يشعر بأنهم يُملون عليه أن يكون شخصاً معيناً ويفرضون عليه - مقابل محبتهم له - أن يكون الشخص الذي يتوقعون!

حرمته أمه متع الصبيان عندما كان صغيراً خوفاً عليه ودفعه أبوه مبكراً إلى عالم التجارة والأعمال وأحاطه برغبته في الابن الكامل ولم يسمح له بالوقوع في الأخطاء الطبيعية (التي أرهق نفسه في اخفائها عن علم أبيه) رغبة في اشباع غرور «الشيبة» ومداراة لخاطره وبعد موت أبيه لم ينته الكابوس بل استمر مع عمه ثم نسيبه أب زوجته!

كلهم يتوقع منه أن يكون يوسف المطلوب! عندما تعرف إلى منيرة أراد أن يكسر تلك الدائرة (بوصفه الحبيب المقبول على علاته) لكنه فوجيء بشخصية منيرة المتصلبة والمعيارية والمقتحمة . وجد أمامه «الزوجة» مرة أخرى في مسلاخ حبيبة (بل تتصرف أسوأ من اي زوجة في الحقيقة!) كان يتوقع أن تحرص عليه وأن ترضيه وترضى به في الحدود والشروط التي يضعها هو اذا كانت تحبه كما تقول !!

«لو كان ذلك الحب حبا!!»

هكذا كان يفكر يوسف . انه يحبها على طريقته! الطريقة التي لم تفهمها منيرة ولم تقبلها ولم تعتد بها (اي حب هو ذاك؟) تتهمه بانه لا يحب الا نفسه ويتوقع ان يحبه الناس على هواه ومراده!

عندما يقع بينهما الخصام وتتبعه قطيعة قد تستغرق أسابيع أحيانا ثم تعود المياه إلى مجاريها ، لا يشعر يوسف بأي شيء يلزمه بإعادة توثيق الحب أو تجديد عهوده ؛ لأنه ينظر إلى علاقتهما باعتبارها أمراً مسلماً به ، وامراً اعتيادياً أيضا ، وكأنه أمر «متحقق وممنوح» ، لا يتحدث يوسف عن الحب في حين لا تنفك منيرة تفكر في حبها له! اللحظات الوحيدة التي يأتي فيها على ذكر الحب عندما يكون حانقاً مغتاظاً ، وهي لحظات قلائل ومعدودة يخرج فيها عن هدوئه المعتاد ، ليقول بأن الحب شيء آخر غير ما تتحدث عنه منيرة!

لا ينكر يوسف الحب بل هو يدحض فحسب طريقة تفكير منيرة وأسلوبها في الحب! ومنيرة ترى أنه يرفض حبها .

الناس يعرفون الحب بكل الطرق ويسمونه حباً في النهاية ، فهل ما يدعونه حباً ليس حباً على الإطلاق؟ أم أن الحب يكون موجوداً فقط عندما يعترف به كلا الطرفين معا ، وكأنه عقد لا يصلح بغير رضاهما (فإذا قبله أحد الطرفين ورفضه الآخر أصبح باطلا !)

ما الحب ؟ كيف يراه يوسف ؟ أهو نوازع وحاجات أنانية وعيوب ذاتية ، ومخاوف أي بكلمة واحدة ؛ ارتكاسات! إن فهمنا لطبيعة المحب لا تجعلنا أقل نقمة على الحب والحبيب معا ، ولا تجعلنا أقل تطلبا لما ينبغي أن يكون عليه الحب - المثال الذي نريده والذي نحتاجه! وهناك وقائع لا تتفق مع تطلعاتنا ، ولكن ما الذي يجعلنا مجبرين على قبولها ؟ ألا يجب أن يسمو طموحنا على وضاعة الواقع ورداءته ؟ أليس من أهم اشتراطات الحب أن نسمو به

ونسمو معه ، وأن نكون متطلبين إلى أقصى حد ؟

لم يكن أمام الدكتورة منيرة إلا تعاقب يوسف وقد فعلت . . مرارا! لن يحصل يوسف على ما لم تستطع نيله منه . سوف يعاني فورات غضبها ، وسوف يواجه صعوبات مستمرة في التعامل معها ؛ لكي يوقن بأن حبها مشروط وليس مضموناً ، وحب ممنوع وليس متاحاً ، وحب مقيد وليس مطلقاً! .

قالت منيرة لنفسها : «لو كان حباً»! لا لم يكن حباً! ولا قريبا من الحب . يتعلل يوسف بأن للحب طرائق وأساليب ، وليس ذلك منه الا تبريرات ومزاعم سخيفة يكررها ليهينها! ترى لو قررت منيرة أن تحبه «بطريقته» في الحب ، ترى هل سيجدها عندئذ طريقة محايدة . . وظريفة ؟؟

تود منيرة أن تصدق يوسف حين يقول لها إنه يحبها ، ولكنها تتساءل ماذا يعرف يوسف عن الحب! انه يحب نفسه في انعكاس مشاعرها! لا يمكن أن يوجد تصنع أكثر من تصنع الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يعيشوا بلا حب ، حتى انهم يضطرون إلى اختلاقه . نعم إنهم يخترعون حباً ذا مأساة محورية ، ويتخيلونه شامخاً سامقاً ويستحوذ على حياتهم بالكامل ويخضعون له رغباتهم ، ويضحون بمصالحهم ولا يملكون التحرر منه بالرغم من أنه . . «صنيعتهم» .

أرادت الدكتورة منيرة أن تغرق في ذلك الحب ، وأن تفنى فيه ، وأن تستدبر كل شيء وراءها! وتمنت أن تموت عندما تركها يوسف (وكان ذلك سيكون نهاية منسجمة ومتوافقة مع مشاعرها) ، ولكن

لم يعد الناس يموتون بسبب الحب في هذه العصور المتأخرة لسبب أو لآخر .

نعم كانت منيرة مستعدة ألا تتحرر من أغلال الحب ، وأن تعيش أسيرة إذلاله يوما بعد يوم ، مستسلمة - قدريا- لعذابات مستمرة بلا انقطاع! ولكنها لم تكن مستعدة أبدا أن تتعذب من أجل أبنائها مثلا!!

لقد باتت تشعر أكثر فأكثر بأن كل ما حولها يخنقها ؛ أولادها وزملاؤها ومجريات الحياة وتطرفات الحياة نفسها! كل شيء يخنقها! ولا يسمح لها بالتنفس ، إنهم يصرون على تدميرها! أبناؤها الذين لم تعد تعرفهم! أولئك الذين يصرون على أن يسلكوا طرقا بعيدة ، وأن يخلصوا لخيارات لامعقولة ، تدفعها تصرفات أبنائها وخياراتهم إلى مراغمة سطح الحياة ، وهي تريد الغوص إلى الأعماق الهادئة ، تشعر منيرة بقوة بأن العالم يناهضها وينزع منها الاكتفاء والراحة والأمان ، من دون أن تحسن تحديد لماذا وكيف ؟

أما حبها ليوسف فهو وقود حياتها ، يغذي شعورها المتحفز لمقاومة الشعور بالفناء (عن طريق الفناء في الحب) . سوف تحب يوسف! سوف تحبه كما هو! (دون أن تتبين من هو!) لكنها ستحبه ، لأنه شخص متطلب وضاغط ومعذّب فتلك السادية في علاقتهما تدفعها لكي تكون المحبة المعطاءة المثالية! كانت تقول لنفسها : أين سيجد مثلي ؟ لا يمكنه إذاً تركي! لكنه تركها ، ولكن بعد أن منحها فرصة أن تصبح شهيدة الحب! وفي تلك الشهادة المتوقعة والمستحقة تحصل الدكتورة منيرة على بعض ما تريده في حياتها .

هل هناك الكثيرات من أمثال منيرة في محيطنا ممن قد يتمنين أن يكنّ على علاقة شائكة مع حب مستحيل ؟ قد لا يسعين إلى ذلك أو يطلبنه! ولكنهن سوف يحتجنه بأكثر من صورة ، وعلى أكثر من مستوى ، وسوف يتخيلن حتما إمكانية وقوعه بأكثر من وسيلة! والأهم من ذلك أنهن يرين فيه أمرا طبيعيا يضفي على تفاهة حياتهن ومصائرهن العبثية ظلالاً من السرية والغموض والنكهة المميزة . هناك الكثير من النساء في كل مكان ممن لا يجدن في جفاء الحياة وسطحيتها وخوائها ما يشبع تطلعاتهن إلى ما يعتقدن بأنه متاح لسواهن . الكثيرات من تلكم النساء لا يملكن فرصا لزواج أو تقلد منصب أو ممارسة نشاط أو امتلاك أي هدف يذكر! تتفتت حياتهن إلى ملايين الدقائق البائسة المنقضية في مراقبة قصص وحوادث تقع دائما . . للأخرين . ولذلك حملت د . منيرة في داخلها اعتقاداً جازماً وغير مبرر بأنها مميزة بوجود يوسف في حياتها (على أي نحو كان ذلك الوجود!)

كان الحسم مقدماً ومرجحاً في أكثر قراراتها الإدارية! كان يجب أن تُري الآخرين بأنها لن تتوانى عن التصرف كرجل تقريبا! وعندما تقول الدكتورة منيرة «كرجل» ، فإنها تعني كشخص يتخطى أوهام المثالية ليكون نفعيا تماما! تحرص الدكتورة منيرة أن يُنقل إلى من هم في «الأعلى» أنها قادرة على الإمساك بزمام الأمور ، وأنها سوف تتخذ القرارات الضرورية ، وتعمل على إلزام المرؤوسين بتنفيذها . لن يحركها الآخرون كالدمية ، ولن يثنوها عما انتوته ، ولن يتلاعبوا بها لأنها امرأة! كما اعتادوا أن يفعلوا مع

الرؤساء الضعفاء المترددين ، باستخدام الضغوط ، وعن طريق الاستفزازات والابتزازات الرخيصة ، وتسريب الأخبار وإشاعتها (صحيحة ومكذوبة ومجتزأة) . تعترف د . منيرة بأن هناك جزءاً في مخها يهتم بالكمال والترتيب والتأنق اللفظي ، وتطبيق القواعد ، وتحقيق الذات . تود الدكتورة منيرة أن تكون امرأة - بكل ما يأتي مع ذلك التوصيف من نقائص ونقائض - فلا توجد امرأة تحب أن تنعت بأنها رجل ؛ لأن ذلك الوصف يضع المرأة في وضع متصنع وكأنها تخالف طبيعتها لأنها غير قادرة على أن تكون نفسها ؛ فتنتقل إلى خانة أخرى مستعارة .

ربما كان ذلك جانبا مما يعنيه (التصنع) في حياة الدكتورة منيرة ؛ بوصفها امرأة وقيادية في مجتمع ذكوري متصلب! ترفض منيرة التصنع ، ولكنها مجبرة على ممارسته اجتماعيا وقدريا . تعتقد الدكتورة منيرة بأنه بإمكان المرء أن يخون نفسه بأسوأ مما يستطيعه الآخرون ، لو أرادوا النيل منه . لو كان بمقدور الدكتورة منيرة أن تعود القهقرى ؛ فهل كانت قادرة على صنع خيارها الخاص ؟ تؤذن علاقتها بيوسف على الانقضاء ، ليس لأنه تركها فحسب ؛ بل لأنها لم تعد قادرة على التصنع ؛ لقد أفلست وخوت يداها من التبريرات ، وأصبحت الآن بمواجهة الحقائق فحسب ، وأمكنها أن ترى في يوسف ما جحدته طويلا .

والآن تحولت كل تلك الليالي والحوارات والذكريات إلى باطل وقبض ريح ، وانتفت كل براءة من تلك العلاقة التي لم تعد علاقة حب ؛ بل علاقة مكذوبة وذات أغراض .

مناظرة

كان المذيع جذلانَ ومتوتراً في الوقت نفسه ؛ فهو يعد منذ أسبوعين لهذه المناظرة بين الدكتورة منيرة ومنافستها في الدائرة الانتخابية سارة عابد ، وهي بالكاد تسمى مناظرة بالرغم من أنها تطرح نوعا من (المقابلة) بين المرشحتين الأقوى في الدائرة ذاتها ، لعضوية مجلس الشورى في دورته الانتخابية الأولى(*) .

لأن الأمور المطروحة مقننة ومحدودة ، ولأن البرنامج يرمي إلى إجراء حوار بين مرشحين ، يطرح كل منهما سؤالا على الآخر ، ضمن موضوعات يديرها الإعلامي الشاب عبد الرحمن عبدالله وهو شاب على قدر من الوسامة والحضور ، ولديه تطلعات واسعة بقدر شبكة علاقاته (التي بدأت تتسع مع مزاولة نشاطه الإعلامي) ، وهو يعول على تشييد مستقبله من خلال نشاطه في ذلك الموسم الانتخابي ، بسبب نباهته وقدرته على تحين الفرص ، وتشفع شخصية مهمة يسرت إسناد البرنامج لذلك الوجه الجديد الصاعد!

وقد أمكنه أن يجمع معلومات كثيرة حول المرشحتين ، لاسيما الدكتورة منيرة ؛ وقد تطوع بها أشخاص من زملائها ومرؤوسيها ، ويبدو أن تلك المناظرة ستكون الأهم في حياة منيرة من منطلق انتخابي و . . . شخصي!

كانت الدكتورة منيرة قد خرجت قبل ذلك ، على شاشات عدد من الفضائيات الخليجية المجاورة ، ونظرا لطبيعة تلك البرامج الحوارية ،

(*) لاتوجد انتخابات شورية حتى الآن في قطر .

وبعضها على الهواء مباشرة ، ويديرها إعلاميون في غاية الفطنة والاطلاع ؛ فقد واجهت منيرة أسئلة قوية ومباشرة ، تناولت جوانب غير مثارة من مقالاتها ، وبعض أوراقها البحثية التي قُدمت في منتديات ومؤتمرات خارجية ، وتفادت منيرة بعض الأسئلة بسبب التحرج ، والحرص على مبدأ الاعتدال وعدم المصادمة ، وبسبب «مهنيتها» وحساسية منصبها الإداري الحكومي السابق ، بيد أنها اضطرت إلى الرد على أسئلة أخرى تكرر إقحامها وإعادة صياغتها وطرحها من جديد . تشعر بعض الشخصيات بأنها قادرة على الخوض في المسائل والمشكلات ، باعتبارها مشكلات عامة تعاني منها المنطقة .

المنطقة بصورة عامة لكي تتفادى الخوض في خصوصيات بلدها على فضائية خارجية ؛ وقد تقع في انتقاد بعض الممارسات أو حتى التنبيه عليها ؛ فيعد ذلك نوعا من معارضة السلطة ونشر الغسيل القذر على حبال الجيران الموتورين أو الناقمين! الحقيقة أن شخصيات معدودة من القطريين قد استضيفت - قبل الدكتورة منيرة -على الفضائيات المجاورة ، وكانت تتوخى إجمالا الحرص والتعميم ، وتخير الألفاظ في أثناء طرح آرائها (الشخصية) على اعتبار انها تحدد موقفاً من بلدها ومن «قيادة البلد» معا .

بدا الإعلامي مصراً على التضييق عليها فقالت :

- سأقول لك من تجربتي مع شخصيات معروفة ورفيعة من الأوساط النخبوية ، بأنها تخشى التصريح والإفصاح ، وتتعامل مع الآخرين في نطاق الرسمية والمجاملة ، وتبادل المنافع في حدودها المرسومة .

ثم تسارعت وتيرة الأسئلة ، وأحست منيرة بأنها بين فكي الكماشة في مسألة تمكين المرأة ؛ فلم تتورع أن تقول بصراحة :

- ثمة عناصر نسوية من عائلات معروفة تتقلد مواقع مهمة ولكنها تتصرف بإملاءات وإيعازات ، وأحيانا بإرادة محكومة برقابة ذاتية مشددة ، فهي خاضعة لمرعيات سياسية واجتماعية .

لم تقبل منيرة أن تعتذر عما قالته في الفضائيات سابقا ، ولكنها عللت الأمر وشرحت بأن الضيف عندما يظهر في الخارج تتخذ تصريحاته أهمية ودلالة معينة ، وتتصف بأنها أكثر «احتراما» لطبيعة المتلقي العربي وفطنته وفضوله ، بينما يخضع المستضاف نفسه في برنامج داخلي للمنظومة الثقافية والإعلامية الأكثر ضيقاً وتحيزاً وانتقائيةً ، بل لم تتوان الدكتورة منيرة عن الإضافة بأنه إذا كان الإعلاميون في الداخل يتحرزون من طرح بعض الأسئلة ، ويتدخلون لإسكات الضيف ؛ أو تحويل الحديث عن المسالك الوعرة ؛ فإن الضيف نفسه يحمل رقيباً داخلياً يكبح جماح لسانه ، لكيلا «يتطاول» ويتجاوز ما «يعتبر» مقدسات معينة في النسق الثقافي السائد! من السهل أن يحمل كلام الشخص على محامل وتأويلات مختلفة ، تتسبب في الإضرار بذلك الشخص ، فيما لو أدلى بآراء أكثر ليبرالية من قدرة المجتمع على تقبلها .

عندما قالت منيرة :

- هناك آراء تعتمد على حرفية النص وظاهريته لانغلاق الرؤية .

تدخلت سارة عابد :

- هناك اعتبارات لا بد من احترامها .

قالت منيرة :

- ولكن المناهج الدينية بنيت أصلا على النقاش!

قالت سارة :

- تلك أمور محفوظة في الكتب فقط وليست للعوام .

- لا ينبغي أن نفرض الوصاية على الناس .

لم يكن إذاً الأمر تصنعاً ولا تكاذباً ولا نفاقاً متعمداً ، بل كان تواؤماً وتوخياً لعدم مناطحة جدار مصمت . شعرت الدكتورة بأن صراحتها وصدقها في طرح قناعات تخصصها (ومن حقها اعتناقها والتعبير عنها) ، قد استخدم ضدها ؛ لأنها «أجبرت» على أن تخوض فيها (هناك) على الفضائية الغريبة ، وتم استدراجها واستغلالها بالكشف عنها (هنا) في الفضائية المحلية!!

وقام الإعلامي اللامع بمقابلة كل إجابة تقريبا بتصريح يظنه مخالفاً لما أدلت به لقناة أو نشرته في ثنايا مقال ، وقد انتزع من سياق مختلف ، لأن الإعلامي الشاب قرر أن يتسلق على أكتافها ليبلغ مقاماً أعلى في صفوف مدرسة الإعلام العربي ، التي ترود دروب المناكفة والشطط والتذاكي والأسلوب الهابط .

وقد نجح الإعلامي البارع في التعريض بشخصها ومصداقيتها ، برغم توضيحها الذي بدا دفاعاً وتبريراً في محاولة منها للتخفيف من وقع تلك الآراء «القوية» ذات الطابع الثقافي والاجتماعي ، والتي عبرت عنها بأريحية في الخارج!

طريقة الزج بما قيل سابقا وأسلوب المقارنة بينه وبين ما يتم

طرحه الآن (للإيهام بأن الشخصية مهزوزة أو منافقة) ومحاكمة المرء على آرائه بوضعها على طاولة النقاش أمام الناخبين «البسطاء»، في خضم حملة انتخابية، وفي توقيت سيىء مع سلسلة من المغالطات، يعد تلطيخاً متعمداً لصورة المرشحة الدكتورة منيرة، وطعناً في برنامجها «الغامض». في اليوم التالي أصبح الناس في قطر يتحدثون عن الإعلامي «المدفوع» إلى تعرية منيرة وتحجيمها! لقد طردت منيرة من مملكة التقريب، ويبدو أنها أخطأت خطأ فادحا وأصبحت في خانة «المحظورين».

من يأبه الآن للدكتورة منيرة وهي تقول: من العار حظر الآراء! لأنها الآن لا تدافع إلا عن نفسها في نظر الناس (الناخبين)، بل إنهم يرونها تتلجلج في الدفاع عن نفسها من موقع الضعف وقلة الحيلة، كالمفضوح الذي تم كشفه ولم يكن يجاهر ابتداءً بآرائه وقناعاته، بل هتكت عنه الأستار عنوة. كيف تقول منيرة لأولئك المتأهبين لالتهامها حيةً بأن الحياه الاجتماعية اليوم تتجه إلى تحبيذ التداولية؛ ذلك الأسلوب الذي يحتوي النقائض ويستوعبها في علاقات توافقية وليست استئصالية! ولكن منيرة ذاتها تعلم يقيناً بأن كل تلك المفاهيم مبتوتة الجذور، وبلا بنية تحتية تنتجها؛ لذلك فهي نتاج ذهنية متنفجة متصنعة تلوكها دون مدلولاتها، ولن ينجح استنباتها في بيئة ترفضها!

عندما نبّهت منيرة الإعلامي المحاور إلى اختلاف الطرح باختلاف السياق والمكان، كانت كمن أدان نفسه بيده في نظر الجميع! وفي المقابل بدت منافستها سارة عابد نموذجا يحتذى به

في الثقة بالنفس والصدق، والتطابق مع ثقافة الناخب (لاسيما الناخبات) وما يردنه أن يكون ممثلا لصورة المرأة الفضلى، غير المصادمة للقواعد والمرعيات!

خرجت منيرة من الأستوديو مهزومة! فقد حوكمت علناً وأدينت فورا، وعوقبت في الجلسة ذاتها. حوسبت واحتقرت واستبعدت من خانة المرشح «الصالح»؛ لأنها تجرأت على الإفصاح عن آراء كان الأحرى بها ألا تعالن بها، وكان الأسلم أن تتخذ موقفا «شجاعا» بالتهرب من الإجابة عنها! لكن إقدامها على التوضيح بتلك الصورة «الوقحة» جعلها متمردة وصلفة! لماذا اختارت منيرة ألا تبلع كرامتها الفكرية! كان ذلك بلا شك خطأ «بطولياً»، وعليها الآن ان تدفع الثمن! ولن يتضامن معها أحد، ولن يدافع عنها أحد المؤمنين بأفكارها، لأنها امرأة مندفعة وطائشة ومتفائلة أكثر من اللزوم، وسوف تخسر الانتخابات حتما؛ فهي تصر على التصرف بطريقة مثالية فجة واستعراضية واحتفالية!! تقفز من فضائية إلى فضائية! (خلها تدبر نفسها الآن!!) ستعرف منيرة لاحقا على صفحات اليو تيوب بالدكتورة الشيطانية، والدكتورة العلمانية.

في الصيف التالي، غادرت منيرة إلى لندن، والتقت مصادفة براشد في أحد المقاهي. أخبرها راشد بأنه في لندن ليحضر ملتقى فكرياً يعقد سنوياً، وسألها مازحا: عندك بيت في لندن يا دكتورة منيرة؟ وقبل أن تتمكن من إجابته لمح أحد معارفه قادما نحوهما فأسرّ إليها: ها هو ذا شخص قطري! قاض متقاعد! وعنده بيت رائع خارج لندن.

سلّم القادم عليهما وعرفه راشد إلى الدكتورة منيرة، فرحب

بها باهتمام بالغ . جلس الثلاثة إلى إحدى الطاولات بتلقائية وود وكأنهم يعرفون بعضهم البعض منذ زمن . توقعت منيرة بأنهما شاهدا تلك الحلقة على الفضائية القطرية أو سمعا عنها ، فقد كانت موضوعاً لأحاديث الناس ، فحدثتهما باختصار عن تجربتها الانتخابية وكيف انتهت . أرادت أن توضح موقفها للدكتور راشد ، وأن تبدو جديرة ببعض التعاطف منه ، بالرغم من أن ذلك أمراً لم تكن تتوقعه من راشد بسبب (كلبيته) التي طبع عليها!

قال القاضي المتقاعد : الانتخابات يا سيدتي فرّغت من محتواها!

وتحدث عن قانون الانتخابات ، وصلاحيات المجلس المنتخب ، بحسب ما ورد في الدستور القطري ، وخلص إلى أن محدودية الصلاحيات وتقييدها فوق ذلك ، يجعل من المجلس المنتخب مجلسا «غير تمثيلي»!

قال راشد : لا وجود لشيء اسمه شعب قطر! لم يعبر القطريون عن رأيهم منذ إنشاء الدولة حتى هذا اليوم الذي نحن فيه ، لأن (شعب قطر) . . .

وصنع قوسين متقابلين بأصابعه ثم أكمل : يفتقد لمقومات التعبير عن نفسه باعتباره شعبا!

قال القاضي المتقاعد : في التسعينيات[١] ، جاءني أحد

(١) الإشارة إلى عريضة ١٩٩١ ، وقد طالبت بتطبيق ما جاء في دستور البلاد (النظام الأساسي للبلاد) ، فيما يتعلق بإقامة مجلس شورى منتخب ، وكذلك بإصلاح أوضاع التعليم والصحة وتطويرهما .

الزمـلاء وجلس أمامي كـمـا تفعل أنت الآن ، وقـال نريدك مـعنا ، قلت له خير ماذا تنوون ، قال نريد تقديم عريضة إلى الحاكم . قلت له مـا هي مطالبكم ، قـال نـريد التـحـول الديمقـراطي ، ونريد إشـراك الناس في القـرار السـيـاسـي ، عن طريق التـمـثـيل البـرلماني وأمـور اخــرى ، قلت له وكم الموقـعين؟ قــال لا أدري . قلت له يجـب أن تدري! كـم تتــوقع أن يصل عــددكم؟ قــال نطمح أن يبلغــوا مـئـة شـخص؟ قلت له : إذا كـان هناك مئة شـخص فـقط في هذا البلد يؤيدون تلك المطالب فهذا معناه أن الأغلبيـة لا تـريدها . إذن دعني أقف في صف الأغلبية .

قالت له منيرة : ولـم تنضم إليهم ؟

التـفت اليـهـا وقـال : أتدرين مـاذا حـدث بعدهـا ؟ كـنت أزور أحـد الأصدقاء في مكتبه في مجمع تجاري على طريق الريان ، وكان الوقت ظهرا ونافذته تطل على الشـارع الملاصق للديوان ، ولفت نظري ازدحام سـيـارات وبشـر ، قلت لمن حـولي : مـا بال هؤلاء ؟ قـالوا هناك توزيع عطايا من الديوان . في ذلك الوقت نفـسـه قبض على الدفعـة الأولى من الموقـعين على تلك العـريضـة . أخـذوا أربعـة! سبـعـة! من بيـوتهم وانتظروا ردة الفعل . لـم يحدث شيء! وفي الأيام التالية سـحبوا البقية على دفعات أكبر ، ولـم يتحرك أحد من أجلهم . أين النـاس ؟

أكمل القـاضي المتقاعد حديثه : ماذا قال النـاس ؟ كـانوا يقولون في مجـالسـهم «الله لا يغيـر علينا»!! لقـد انتهى المجتمع المتـجانس الواحـد! تفكك! وتغيـرت التـركـيـبـة . .تم العـبث بهـا! وأصـبح ذاك المجتمع غافلا وسـاكتا وخائفا . . ويتدافع على أبواب العطايا .

قالت منيرة : هل انتهى المجتمع حقا ؟

قال راشد : تريدين الإجابة ؟ ابحثي عن طبيعة الاقتصاد! وسوسيولوجيا المجتمع القطري الذي يعيش على الكفاف في المطالب والحقوق!

قالت منيرة : لعلنا انتهينا! . . ولكن التجنيسات بعد ثلاثة أجيال أو أربعة سيكون لها مطالب وموقف آخر .

تدخل القاضي قائلا : دساتيرنا اليوم غير مؤسسة ديمقراطيا ، ولا تفصل بين السلطات ، ولا تمثل إرادة الشعوب ، بل الأدهى والأمر أنهم يختارون أحداثاً مؤسسة لكيانات تلك الدول ، تربطها ارتباطا كاملا وأبديا بالعائلات الحاكمة فيها .

قال راشد : يعجز المجتمع عن ايجاد «الحدث المؤسس» الذي يمكنه من تجاوز إشكالية (العائلة- الدولة) ، الأمر الذي قد تكون الكويت مثلا قد تجاوزته إلى حد ما بقوة مجتمعها المادية ، عندما تأسس الدستور برغبة من عبدالله السالم ، وهو يعد بحق حدثا مؤسسا نقل المجتمع من الإمارة إلى الدولة ، ومن مرحلة إلى أخرى .

قالت منيرة : ولكن العريضة ألا تعد حدثا مؤسسا عندنا؟

قال القاضي : أي عريضة فيهم ؟ وهل تؤسس العرائض لشيء أبعد منها ، تلقائيا ؟

قال راشد : إذا كنا حاليا أضعف من إيجاد حدث مؤسس جديد يكون أكثر شمولية فلا أقل من أن يكون لأهل قطر وقبائلها وعائلاتها ، التي ساندت جاسم بن محمد ، حق التأسيس كذلك .

قالت منيرة : ولكن ماذا عن النخب ؟ ألا تتحدث الندوات

الفكرية عما يسمى الكتل الفاعلة!

قال راشد : المجتمع العربي ، قابل للإحباط والتحطيم ، فهو محكوم بتراتبية قهرية في جميع جهاته! والنخبة السياسية عندنا مثلا في قطر ، هي نخبة اقتصادية بشكل قهري وفاقع ؛ لذلك فإن أي حراك سوف يراوح مكانه!

استأذنت الدكتورة منيرة وغادرتهما دون أن تلتفت وراءها . رنت عبارته في أذنيها (ابحثي عن طبيعة الاقتصاد)! ربما شعرت منيرة لأول وهلة بأنهم كانوا يشكلون نوعاً من الباحثين المميزين ؛ قاض متقاعد ، وأستاذ اجتماع ، وشخصية حكومية (سابقة)! ولكنها تساءلت «ماذا يجمع بيننا ؟» لم يكن الثلاثة مميزين بشيء! ربما كانوا موبوئين فحسب!

وهل هم حقا باحثون عن معرفة أم دور ؟ وأي دور هو ذاك؟ إن ثمة مناخاً عاماً مكثفاً من حولهم يزكي المسايرة وحدها! ويجعلها أكثر السبل إمكاناً وأكثرها أماناً

قد يرى أحد الباحثين مثلاً أن البيان الرسمي الذي صدر في أعقاب حركة ١٩٦٣ يعد وثيقة قانونية مهمة ، قد تؤسس لنوع من العقد الاجتماعي القانوني ، بيد أن باحثاً آخر قد يذهب إلى أن حدثاً تأسيسياً أهم سبق ذلك ، عندما تحالف جاسم بن محمد مع شركائه من القبائل القطرية لتأسيس كيان اجتماعي قطري!! لا تظن الدكتورة منيرة في قرارة نفسها أن عقداً اجتماعياً قد دشن هنا . . ولا هناك! فليست هناك نقطة حدث تأسيسي ، لأنه ليس هناك تأسيس حقيقي على الأرض! كل ما يحدث أمامها هو وقائع

زمنيـة لا تصنع في مـجملهـا أو في نتائجـهـا تاريخاً وصيـرورة! وكل محاولة منها أو من الآخرين لإسقاط أو تطبيق نظرية ، ستكون في نظرها عـمـلا تعـسـفيـاً وتلفيـقيـاً! تعـتـقـد الدكـتـورة منيـرة بأن انقـلاباً واضحاً كان يتلو كل حدث ينزع إلى التأسيس!

من الصـعـب استنكاه عـقلية أفراد المجتمع وجماعـاته من دون التعريج على آثار علاقات الإنتاج التي استمرت مديداً في عروقه الزمنيـة ، فـمـا الـسـمـات العـقلية لمجتمع تتـركـز سلطاته في يد فرد ؟ مـجـتـمع لا يملك اسـتيـلاد أي مؤسـسـات تنظيـمـيـة تشـرك الأفـراد والجـماعات الأخرى في تسـيير شؤونه ، يغـدو الـفرد - الحـاكم ، هو محور شبكة العـلاقات ومؤسسها ومنظمـها ، ومن شخصه تستمد باقي القوى والجهات والجمـاعات حقوقاً ومنازل تراتيبية ، بحسب القرب أو البعد عنه (وعن الأسرة الحاكمة) .

لقد ضرب الكسـاد قطر بأشـد وأقسى من غيـرها من المناطق المجاورة ؛ لأنها كـانت الأضعف اقتصادياً واجتماعياً كذلك ؛ فقد كانت مـحـاطة بمراكز تجارية قوية ومؤهلة للاستـمـرار كذلك ، وكـان قطـــاع الـتـجـارة في قطر مـحـدوداً ، وفـوق ذلك كـان مـحـتـكراً بالكامل .

أما الرأسـمـال في المجتـمع النفطي ، فـقـد جاء من خـارج البناء الاجتماعي ؛ أي طارئاً وسريعاً وبلا مخاطر تقريبا للفئة المستفيدة ؛ إنها ثروة لم تستوجب تجميعاً ولا كـانت محصلة لجهود أو تطور أو تحـفيـز اجـتـمـاعي من تطور صناعي رأسـمـالي بل هي ثروة ريعيـة هبطت ، وأنفقت بلا تدبير . تدفقت العائدات في يد الدولة فبرزت

ملكية الدولة والأسرة الحاكمة ، عن طريق سيطرتها على تلك العوائد ، وتحكمها في طرق وعملية توزيعها .

واستطاعت فئة التجار من الأسرة الحاكمة ، ومن حولها من المقربين تقاسم السوق ، وكونوا ثروات طائلة عن طريق علاقتهم بالشركة (شركة نفط قطر) وسيطرتهم على سوق العمالة المحلية ، وكذلك سوق المقاولات والاستيراد ، ثم التوكيلات التجارية ، كما وظّفت الفوائض في البلدان الغربية .

تتبع متطلبات المجتمع الرعوي احتياجات اقتصاده ؛ في الماضي كانت الكتاتيب تسد الحاجة ؛ فلا حاجة لأكثر من قراءة وكتابة وحساب . وعندما جمع التجار من فئة طواويش اللؤلؤ مالاً لإنشاء المدرسة الأثرية (١٩١٣- ١٩٣٨) ، كانوا يريدون لأبنائهم تعليماً كالذي يتمتع به أبناء التجار في الدول المجاورة التي زاروها أو بلغتهم أخبارها ، بالرغم من أنهم كانوا في الواقع يهيئون أبناءهم لمرحلة بزغت في الأفق ، بيد أنها لم تتحقق بعد في محيطهم ، وأخمد الكساد في الأربعينيات ذلك التطلع وتلك الآمال! فلم يستطع أولئك التجار مواصلة تمويل المدرسة فأغلقت أبوابها . وعندما قام الشيخ عبد الله بن جاسم بإنشاء دفاتر للتدوين لإدخال نظام محاسبة لتوزيع الإيراد في تجارة اللؤلؤ (كما كان متبعاً في البحرين) ، كان يقوم بذلك اضطرارياً ، بسبب تصاعد الشكاوى من العاملين في الغوص ، لاسيما بعد الكساد وتفاقم ديونهم حتى ضجوا بالتذمر وكادوا أن يهاجروا إلى البلدان المجاورة .

لم يعرف حكم الشيخ عبد الله بن جاسم لمدة ٣٦ سنة أي

جهاز إداري حديث.[1] وكانت أزمة ولاية الحكم فرصة لمشيخة قطر للإطلالة على الحداثة، من خلال تدخل الإرادة البريطانية وحدها، ففي عام ١٩٤٩ وعن طريق مستشارين بريطانيين تم تشكيل هيكل إداري بريطاني. ضغطت بريطانيا في سبيل التغيير في قطر من أجل إدخال الإدارة الحديثة؛ لكي تسهل تنمية الحقول النفطية وكانت تلك المؤسسات (الاستعمارية) هي أول ما عرفته مشيخة قطر من التنظيم الإداري.

عندما رأت بريطانيا أن من مصلحتها تفعيل مواد معلقة في معاهدة ١٩١٦، والتي كان من أهمها تعيين المعتمد السياسي في قطر، وقبول التجار، وشركات التجارة البريطانية للعمل في السوق القطرية، وإنشاء مكاتب للبريد والبرق في قطر. كان ذلك منعطفا مهماً لمشيخة قطر لكي تطل على القرن العشرين.

---

(١) تقدم الشيخ علي بطلب لتعيين مستشار بريطاني له - كما اقترحت عليه بريطانيا بإصرار - فعين مستر جون ويلتن أول معتمد سياسي في قطر في أغسطس ١٩٤٩، وكان الشيخ مضطراً لافتتاح وكالة البريد في ٢٣ أغسطس ٤٩، ووافق على إنشاء فرع للبنك الشرقي وافتتاح مكتب للبريد، ولكنه لم يكن (متحمسا) لفرض أي نظام على الشؤون المالية والإدارية، وتحديد أوجه الإنفاق وإعداد الميزانية، ولذلك تعيّن على بريطانيا أن تؤجل الدفع إلى تلك الأمور لحين وصول المستشار فيليب بلانت الذي مارس عمله في فبراير ١٩٥٠.
المصدر أطروحة للدكتوراة للباحثة موزة الجابر.

استرجعت منيرة ذكريات بعيدة وهي تجلس في البيت بعد انسحابها من الانتخابات استرجعتها كسياط جلد وتعذيب! ترى هل تتآمر على نفسها ؟ هل تقف في صف خصومها ؟ . . وإلا فلماذا تستعيد الآن كل تلك الذكريات دفعة واحدة ؟

لطالما رسمت في لوحاتها أذرعا وسيقانا وأقداما مفلطحة . ما الذي يجعل من لوحة مختلطة عملا فنيا متقنا ؟ حتى القطعة الموسيقية يستطيع المرء تذوقها ، بالرغم من أن أحدا لا يمكنه أن يزعم بأنه يفهم الموسيقى ، ولكن إما أن يحبها وإما ألا يحبها! أما تلك الرسوم فقد تعبر عن أضغاث أحلام أو أطياف حقيقية تطارد أصحابها . شعرت منيرة بأنها تبتعد عن تلك اللوحات وتغرق في قراءة ماركس وإنجلز ، ثم انقطعت منيرة تماما عن الرسم لأنها أدركت أن تلك اللوحات السريالية قد سميت كذلك ليصطلح الناس على تزييف وعيهم بالحقيقة ، وشعرت منيرة آنذاك بأن السريالية تقود إلى أسلوب حياة لأشخاص يبدون ظاهريا أفرادا عقلاء بيد أنهم يقعون تحت طائلة ظروف غير سوية!

لم تعد منيرة تستطيع بعدها أن تسكب معاناتها في لوحة ، لأن ضربات الفرشاة لن تجسد في نظرها - في تلك المرحلة - تماثلا إجباريا بين الخطوط والألوان من جهة ، وبين وعيها بالوجود من جهة أخرى ، لذلك كانت تبطىء في ذلك الطريق لتتحول عنه عنوة إلى التصوير الفوتوغرافي ، (لأن التصوير الفوتوغرافي كان انعكاسا مرآويا للواقعية الاشتراكية) ، لم تكن تستخدم أبدا فيلما

ملونا ، لأن الألوان برأيها تغدو دسيسة رأسمالية لتجميل الواقع وحرف الحقائق ، وتصبغ العالم بزيوف وأحابيل ، هكذا فكرت منيرة!

ماذا كانت تصور بكاميرتها؟ كانت تبحث عن الأشجار المعمرة لتصور عروقها النافرة وأغصانها العارية والأجذع المنخورة والتكوينات الطبيعية النافرة عن كل نظام ، والمستغرقة في كل قبح وعبث (لم تستطع - بالرغم من كل شيء - أن تتخلص من نظرتها إلى العالم) ، ذلك العالم الغارق في الرتابة والعبث اللذين يتحكمان في حياتها وفي حركة محيطها . وبطبيعة الحال لم تثر تلك الصور اهتماما قط ولم تسع منيرة لعرضها خارج محترفها ، فقد كانت تعيش منكفئة في عالمها الصغير الذي لا يطفو على سطحه سوى إحساسها بالاغتراب والتشيؤ الكاملين .

وبعد تحولها (الأحمر) انجرفت وبحماسة كبيرة إلى تكريس جزء من وقتها لإنجاز روايتها (غير المنجزة حتى الآن!) ؛ فقد أرادت في حمى توجهها الماركسي- اللينيني أن تعيد صياغة ذلك العالم المنهار طبقيا وماديا وأخلاقيا ، وبدت لها فلسفة هيدغر ودوائر سارتر مثيرة للغثيان وعابثة كدورة حياة الذباب .

غدت الماركسية ركنها الركين ، لفترة معقولة من الزمن ، ولأسباب عديدة ، منها أنها كانت النظرية التي تحمل الإجابات المحتملة عن كل الأسئلة الممكنة . . تقريبا غير أن تلك الميزة بالذات تحولت- فيما بعد- إلى قادح رئيسي في تلك الإيديولوجية المبهرة!

أدركت منيرة بعد أقل من عقد من السنين بأن وراء تلك الميزة

بالذات وهي الإجابات الخصبة ، تكمن - أساسا- آفة الإيديولوجيات جميعا! إنها آفة التمترس وراء الخداع الكامن في اصطناع الفوقية وادعاء الكمال .

ذلك الخطر ذاته الذي أوقعت منيرة نفسها فيه مرة بعد مرة بعد مرة (ثلاث مرات على التوالي!) وبالنسبة لشخص يخرج توا من مغارة الوجودية الرمادية ، كانت الماركسية بحق إبحارا في يوم هائج ، ثم كان التشبث بأول جزيرة (خضراء) على مرمى البصر باعتبارها الجنة المثلى وحبل النجاة الأخير .

لقد أرادت منيرة أن تتوج شعورها باستعادة العالم المادي بكتابة رواية ، وكانت الشخصية الرئيسة تدعى «ابن وردان» . شخص أسطوري كالرخ ، لكنه يخرج من مسام الأزقة والحارات ويبدأ من جديد كلما ضاقت به السبل وسدت . يصمد «ابن وردان» ويتجدد كلما انكفأ أو هزم ، لأنه يملك القدرة والإرادة معا . والقدرة هنا ليست سوى الحتمية التاريخية لانتصار الطبقة العاملة وهيمنتها .

إن المسألة برمتها تكشف عن حجم الخوف الذي يتملك منيرة من الآتي . ترى أي طابع ماساوي تتسم به حياة تخشى الآتي لأنها لا تعرف ما الذي يجب فعله الآن ؟

لم يكتب لتلك الرواية الملحمية أن تكتمل أبدا . رسمت منيرة مخططا عاما وجعلته ممتدا منذ فترة ما قبل النفط ، في مجتمع إقطاعي يستخدم القنانة والتراتب الطبقي حتى التحول شبه الرأسمالي التابع ثم احتارت بم تتنبأ بعدئذ!!

وظل المخطوط البائس بصفحاته الخمسين (والتي لم يتجاوزها) يقبع في درجها ، حتى وقع التحول الثالث في حياتها (وليس الأخير على كل حال) ، وقدر لها أن تسلك طريق الصحوة الإسلامية في التسعينيات وحينئذ مزقت تلك المخطوطة ورمت بجميع الكتب الحمر التي لوثت وعيها زمنا ، وانتهى التفسير المادي لتطور المجتمعات ومصائر الطبقات .

أرادت منيرة أن تكون كالأخريات ، وأن تصير بنتا مثل سائر البنات (ربما لم تكن تريد ذلك بالفعل لكنها كانت تردد ذلك) لقد عقد قرانها على ابن خالتها ، وعقدت العزم أن تكون مذعنة ومتطامنة لكل الترتيبات المذلة التي تصاحب الزيارات العائلية وحفل الخطوبة ومجاملة عريس الغفلة ، وظنت أنها قدمت كل ما يجب عليها أن تقدمه ؛ وضعت المساحيق وخفضت رأسها خفرا ، ولم تتحدث فيما لا يجب الحديث عنه ، ولم تأبه بانتماء عيسى الفكري وهل يعرف الفرق بين ماركس وبين محلات ماركس آند سبنسر ، وصمدت لشهرين وهي تنصت لترهات خطيبها وأحاديثه المملة عن ربعه ورحلات البر ، وفخره بسجل شجاراته في المدرسة الثانوية وسماجة نكاته . صبرت على الساعات الطوال والتفاصيل الصغيرة التافهة لوصف مهارته في الصيد بالسنارة ، أو إخراج سيارته لما علقت بطعوس مسيعيد ، وبعد ذلك كله جاءتها أمها بوجه تعرف منيرة تعبيره جيدا ، محايد ومحبط ، جلست على مقربة كافية تجعلها غير قادرة عمليا على لمسها . قالت بلا مقدمات : (عيسى فسخ العقد .مافي نصيب!) لم ترد منيرة ولم

يرتسم على وجهها استغراب ولم تسأل ماذا حدث . هل خافت من الإجابة أم كانت تعرفها ؟ اعتصر الألم قلبها لأنه هو الذي رفضها! ذلك الرفض كان ضميمة لترددات الرفض التي كانت تعانيها ؛ لأنها مختلفة ولانها مصابة بجذام يستشعره الآخرون ، وذلك وسم «الذل» التي سوف تحملته دوما .

لطالما تلقت الرفض ممن حولها (وهم كلهم دونها غير أن لهم امتياز الرفض) شعرت منيرة داخليا بأنها كانت الأجدر بالرفض لا أن تتلقى - بامتهان وخنوع- رفضهم لها ؛ لذلك أصبحت بعدها ترفض - بصورة قاطعة وإن كانت غير معلنة - صداقات وعلاقات وهبات وفرصا كثيرة قابلتها بالرفض انتقاما . . واستباقا للرفض المضاد . لعلها اعتقدت بأنها ولدت كذلك! ولدت وقدرها ، الا يرغب فيها العالم الذي وجدت - نفسها- فيه!

لم تتحد منيرة إرادة أهلها يوما! لم تعارض أمها قط ! لأن أمها لم ترد منها شيئا ، ولم تعلق عليها آمالا ، ولم تحبها كأختها عائشة (أو إخوتها الذكور بالطبع) ، وبرغم ذلك فإن أمها لم تغفر لها أنها كانت مختلفة عن باقي بنات العائلة ، وسائر بنات الناس! فسرت اختلافها هذا بأنه عوارض واضحة للفشل والإخفاق ، فالبنات يتزوجن سريعا ويجلبن أصهارا أغنياء ونافعين (كما فعلت شقيقتها عائشة التي تزوجت ابن المدعاسي) .

إذا فكرت منيرة في أمها أدركت بأنها تحبها حبا يائسا ، ليس لأنها تشعر بأنها مختلفة بل لأنها تشبهها كثيراو وأمها تكره فيها ذلك الشبه لانه يحمل القواسم المشتركة التي تذكر أمها بفشلها

الذاتي . تقطع أمها حياتها بالتمني وتسرف بتصنع الزهد في الدنيا لا لشيء إلا لأنها لم تحصل على مبتغاها . عرفت منيرة (الحب اليائس) مراراً وبصوره المختلفة ، الحب الواهم ، والحب عن بعد ، وحتى الحب من طرف واحد! وكل حكاية تافهة من حكايات الحب تلك حفرت في قلبها أخدودا من الجزع والخوف من التورط في العلاقات الفعلية .

اشتركت وهي بعد شابة في مرسم فني للفتيات ، ونظم في آخر السنة معرض فني في فندق كبير . كانت المشاركات المعروضة من الجنسين ، وحرصت منيرة على الوجود اليومي ؛ فكانت مكافأتها إشاعة بأنها على علاقة بشاب فنان اسمه أحمد ، لم تعرف منيرة اسمه كاملا ولا تذكره ، وعندما ذكرت لها إحدى صويحباتها الأمر على عجالة ولكن بترقب استغربت منيرة ، وصارت تبحث فيما بعد عن لوحات ذلك (الأحمد) لمجرد الفضول ، وكانت ممتعضة في الحقيقة لأنها ارتبطت بعلاقة بشخص لم تلحظه ولم يتحدث إليها قط فأي ذكرى حب أكثر مدعاة للرثاء من ذلك ؟

هربت منيرة من مستنقع الجامعة الوطنية ، بعد عام من المعاناة الصامتة لكي تخوض - لأول مرة- نضالاً لإقناع أمها بالسماح لها بالدراسة في القاهرة ، وافقت الأم على شريطة أن تلحق بها بعد أربعة أشهر . وعاشت الاثنتان تحت سقف واحد في الغربة ، الأمر الذي لم يختلف كثيرا عن أحوالهما معاً في الوطن . كانت أمها تركة ثقيلة من أيامها القديمة ، ولم ترد حتى ذلك الوقت أن تثبت

شيئا لأمها ؛ لأنها كانت الفاشلة الأبدية في نظرها! تحملت ثقل «وجود» أمها المادي فضلاً عن الاضطلاع بمهمة ترفيهها ومرافقتها إلى مواعيد العلاج ، التي كانت تعذيباً بحتاً لمنيرة ، لأن أمها كانت تستبدل أطباءها كلما التقت أحدا واستنصحته حتى لو كان ذلك الناصح بائع اللبن أو سائق التاكسي . وجب على منيرة أن تستمع لمكالمات أمها مع الدوحة ، لاسيما حين تتحدث إلى أختها الكبرى عائشة على الهاتف وهما جالستان معا في صالة الشقة في المهندسين ، تقول الأم بصوت واهن مصطنع : إن منيرة تعتني بها وتحملها إلى أطبائها وبالامس فقط اصطحبتها إلى القناطر . تعرف منيرة ما ستقوله أمها في حال غيابها (إنها تهملني . أقعد في الشقة لوحدي . لا أعرف أين تذهب . تتأخر عني وتقول إنها في الجامعة . أخشى أن أموت وحدي) .كانت تحكي لكل من تقابله تقريبا بأنها موجودة هنا من أجل منيرة ، التي جرتها معها وحرمتها من الراحة والقرار في بيتها . كانت تشتكي بتلك الصيغة الخفية التي تردد : إنني أضحي!

درست منيرة علم الاجتماع على مضض ؛ لأنه لم يكن ممكنا ولا مقبولا أن تدرس الفنون ، ولأنها انسحبت من الرسم والتصوير حتى باعتبارهما هوايتين ، ليس بسبب تلك الاعتراضات الاجتماعية فحسب بل لأن الأمر لم يكن ذا جدوى! لقد أرادت في تلك السنوات الالتزام بمنهجية أكثر علمية وواقعية من حمل الفرشاة أو الكاميرا ، وكانت قد أجلت إكمال روايتها بلا أدنى ندم حتى تنتهي من الماجستير ثم الدكتوراة .

وزعت منيرة أشهر السنة بين القاهرة وقطر بصورة تبدو اعتباطية حتى أرهقت أمها بسبب التنقل السريع المستمر بين البلدين ؛ فآثرت الأم البقاء في قطر .

عندما عادت الدكتورة منيرة إلى الجامعة الوطنية في بلدها لتنضم إلى هيئة التدريس ، انتابها ذلك الشعور ذاته الذي اختبرته منذ سنوات مضت ؛ لذلك قررت السعي إلى الانتقال إلى إحدى الهيئات المستحدثة آنذاك . كانت منيرة قد شرعت آنذاك في كتابة مقالات في إحدى الجرائد بدت للبعض جريئة في طرحها ومعالجتها ، بل كانت لهجتها انتقادية وشتّامة حينا ، ومتظلمة ومضطهدة حينا آخر . هل استرعت تلك المقالات انتباهاً أعلى ، وهل جرى ترفيع اسمها كما أشيع إلى قوائم الأسماء المصطفاة ؟ لقد أشار عليها نسيبها سالم بن جابر المدعاسي ، وهو شخصية مهمة «وواصلة» ، بتقديم طلب نقل إلى إحدى المؤسسات ، حيث يحتاج قسم الأبحاث شخصا في مثل كفاءتها ومؤهلاتها ، وشعرت بأن الظروف مهيأة! وهكذا أرسلت أوراقها ولم تنتظر طويلا لتلقي الرد الإيجابي ، ولم يطل بها المقام في رئاسة القسم حتى تولت إدارة الهيئة ذاتها . من المهين أن يرى الآخرون (بسبب من حقدهم وحسدهم طبعا) أن الدكتورة منيرة أرادت أن يتم ترشيحها لذلك المنصب عبر حيلة تقليدية ونمطية ومكشوفة بتلك الطريقة . إنهم لن يصدقوا أبدا أنها تتصرف دائما بوحي من شعورها بأن هناك حقوقاً لابد لنيلها بوسائل انتقائية وحاسمة . ولو كانت الدكتورة منيرة أصغر سنا ربما لاستطاعت أن تُوجد تكييفاً أخلاقياً سخيفاً لوضعها

القدري التعس في تلك الأقسام الجامعية ، ولكنها الآن تواجه موقفاً تصالحياً مع نفسها وقناعاتها ، ولا بد أن تكون واقعية في تعاملها مع الزمن المتاح لها ، وعدد الفرص المتبقية لها .

خلعت الدكتورة منيرة النقاب قبل الكثيرات ممن حولها في محيطها العائلي والمهني (لأنها أدركت بأنها يجب أن تتوقف عن ممارسة دور(الأخيرة) في لعبة الحياة) ، في مرحلة ما ، وأن تلتفت لمستقبلها قبل فوات الآوان . هذه المرة تقبل الدكتورة منيرة بالتسوية بإرادتها (وعلى شرط الحصول على المكتسبات) ، ودونما أي شعور زائف بالتردد أو التأثم . لم تعد الدكتورة منيرة تلك الفتاة الغرة التي تزعم (أو تزهو بالأحرى) بأنها تمثل جيلا من الأجيال! كلا ، فالجيل مفهوم يحمل فكرة دوغمائية ويرتبط بمرحلية ومصالح مباشرة ، وبالتالي قابلة للانقضاء والتبدد . تمثل الدكتورة منيرة على الأرجح - كما تحب أن ترى نفسها - أنموذجاً منتخباً من الأنتلجنسيا ، ألا يحق لها ذلك ؟ ألم تتقلب في أفخاخ الإيديولوجيات ومنعطفات الأحداث التاريخية ؟ وعندما دفعت إلى الزاوية تماما وحوصرت أصبح عليها أن تتقن فن الممكن ، وأن تتحلى بصورة أقل بروح التطرف والسخرية . يحق لها ذلك أيضا لكونها أنثى في عصر تمكين الإناث ، لأنهن كذلك فقط .

الحب مرة أخرى

لابد أن الرائحة ترتبط بالزمن ؛ لأنها لامكانية تماما ؛ فهي تنتقل عبر الذاكرة من زمن إلى آخر ، بل هي تنقل الزمن نفسه ؛

فالرائحة مسبر للزمن والرجال يتأثرون - أكثر من النساء - بالرائحة لانهم زمنيون وواقعيون على عكس النساء إذ تلتصق المرأة بالمكان ، أما الزمن فلا يعني لها شيئا إذا لم يرتبط بمكان ما متعين في ذاكرتها الرملية . النساء تنسى بتقصد وتعمد حتى تلك الأمور التي لا تغادر ذاكرتهن ظاهريا . هكذا شرحت الدكتورة منيرة ليوسف سر علاقتهما . لقد كانا الزمان والمكان اللذين تقاطعا في نقطة ما ، في ومضة .

توشحت الدكتورة منيرة بالغموض لأنه يليق بها وبأفكارها! وكان لديها دائما عدد معقول من الصديقات لكيلا تتورط في صداقة حميمة تهتك أستار خصوصياتها الفكرية والشخصية! كانت تسعى إلى ذلك بما يشبه التعمد تقريبا ، فقد كان الغموض هو «حيلة» حياتها بأكملها! وكانت العزلة درعها الآمنة . لا تستطيع الدكتورة منيرة أن تكون مكشوفة أو مخطئة ! ولم يكن قطعا من الكياسة في شيء أن يصر الآخرون على الإشارة إلى أخطائها وهفواتها الصغيرة الماضية! وهي تعلم - بصورة حدسية - بأنها ستوفق إلى الصواب .

متى ينبثق الحب

هل ينبثق بعد المعرفة أو بديلا منها ؟ إنه يتسلل غالبا بهدوء تحت فيض من ظلال التصرفات الآلية والمشاهد المكرورة والأفعال العادية ، ولكن بعض الناس مثل الدكتورة منيرة يواجه حادث الحب . المشكلة أنها عندما تستعيد تفاصيل الحادث في ذاكرتها

تفقد المسألة طابعها الاعتيادي ، وتبدأ أسطورة الحب في التخلق ؛ لأنها تعتقد ، مثل كل المغرمين بالحب ، بأنهم وقعوا فيه عنوة ، منذ النظرة الأولى ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يغفلوا الحب من الأسطرة[1] ، الانتظار هو «إمكانية» لأنه حالة من الترقب مفتوحة على آفاق محتملة متروكة للظروف . . وللآخرين . يشعر البعض بالحياة من خلال الألم نفسه ، والعذاب والانتظار والتوقعات . إنه يعيش الانتظار بوصفه حياته المعلقة ولكنها حياة!! كانت منيرة تحيا - قبل أن تعرف يوسف - حياة مرتبة ، حياة مأمونة وهادئة بلا أي مجازفات أو تنازلات ، ولكنها لم تكن حياة على الإطلاق .

ولذلك كانت ممتنة ليوسف لأنه غيّر حياتها فقد كان الخطر في حد ذاته «قيمة» مضافة ؛ ولذلك وقعت في الحب بتلك الصورة من الافتتان والغرق . يخطىء الناس عندما يظنون بأنهم لا يختارون من يحبونه ؛ فالحقيقة أنه ليس هناك من حب مجرد عن المقاصد والغايات والاستحثاثات والتوقيت .

يقع الحب الحقيقي بعد معاناة الحب الأول (وهو الحب التجريبي) ، والحب ، الأول هو التجربة التي تدلك على ما تريده وتحتاجه في الحب وتمهد لعلاقة الحب التي قد تستقر عليها زمنا أطول ، في مرحلة أخرى أكثر نضجا في حياتك . في حالة الدكتورة منيرة كان حبها الأول لزوجها المتوفى ، وكان عليها من خلاله ، وبالمقارنة به ، أن تجد حبها القدري في شخص يوسف ؛ أي

---

(١) أي جعله أسطوريا إن جاز التعبيرا

أن تجد نفسها مرة أخرى في الحب المختار والأكثر تعبيرا عن احتياجاتها .

منذ اكتشفا (يوسف ومنيرة) الحب وعبّر كل منهما عن الحب بطريقته المحدودة ، في تلك اللحظة المسحورة (التي كانت في الحقيقة خالية من أية استثنائية) .

بدأت منيرة تضع حياتها قبل أن تعرف يوسف ، وبعد أن عرفته في كفتي ميزان (هو ميزانها الشخصي) لو لم تحب منيرة زوجها حباً زوجياً بارداً باهتاً هامشياً لم تكن لتجد في يوسف حباً باهراً فائراً ساحراً يأخذها إلى أبعد حدود حياتها الأرضية . إن المفارقة تكمن في فقر التجربة وانعدام البدائل في مبادرة حب متأخرة ومتعثرة وسرية .

مسكينة الدكتورة منيرة! كان كل شيء ولم يزل في حياتها مرتبا وهادئا ومتعينا عليها فعله منذ البداية ، حتى (الإنجاز) في حياة الدكتورة منيرة كان محجّماً ومؤقتاً وسطحياً بسبب محدودية الإمكان وترهل الواقع بطبيعة الحال . كانت حياتها حلقات متصلة ومتتالية قطعة فقطعة ، مقدرة ومعروفة ومتشابهة . لم تكن منيرة تعاني سوى من تعقيدات الجوهر ، أما ظواهر حياتها فقد كانت قابلة للملاحظة والرصد من الجميع . ولذلك كانت معرضة بسهولة للانتقاد! ولذلك لم تتمكن من البقاء طويلاً على رأس تلك الهيئة ، على خلاف المتناحرين الآخرين على المناصب والألقاب . وكانت أقوى الشائعات تزكي الدكتورة منيرة وترشحها للأمانة العامة ، بيد أنها أعفيت فجأة وجلست في البيت! وأشيع بأن أداءها كان سيئا ،

وأن أداء الهيئة كان فاشلا ومخيباً للآمال!! ذهبت جهودها أدراج الرياح! في البداية كان الحديث لا ينقطع في البلد عن تطويع الإجراءات وإخضاع المناصب القيادية الوسطى لنظام الانتخاب الداخلي! ولكن مجلس الإدارة المعيّن مؤقتاً «استمر طويلا . . بلا تغيير لسنوات . عندما اختيرت الدكتورة منيرة من قبل ذلك المجلس المؤقت لتقلد منصبها ، كرست وقتها وجهدها لكي تقوم بترتيب البيت الداخلي ؛ غربلت الإدارات الأساسية والمساندة ، ورفعت دراسات واقتراحات بتعديلات تشريعية لكي تتوفر للهيئة ، الأرضية والأساس القانوني للاضطلاع بسائر مهامه على أكمل وجه ممكن ، وتعاقدت الهيئة مع بيت خبرة أجنبي تم التعاون معه بإيعاز من رئيس مجلس الإدارة ، كما عقدت الهيئة شراكات رئيسية مع عدة جهات خاصة ، منها شركة صهر يوسف بن عمران بتزكية من الدكتورة منيرة ذاتها!!

وصفة للحب

كانت تسرف في الابتهاج بتلك «السرية» التي تسربل علاقتهما ، وتقنع نفسها بأن تلك السرية بالذات تشكل إطارا خاصا يحوط الذكريات والصور ويخبئها عن أنظار الآخرين وفضولهم . افترضت أن علاقتهما ستكون عرضة للتبديد والتفتت في كل مرة تتعرض فيها لاطلاع شخص إضافي عليها . ولكنهما اعترفت لنفسها في عدة مناسبات أخرى بأن العلاقة بالآخر تزداد رسوخا عندما تكون محطاً لاعتراف الآخرين وإسهامهم ؛ لأن

العلاقات أقرب إلى الشبكة منها إلى الخطوط وهي ذات صفة تراكمية ومشتركة . لماذا تحصل زوجة يوسف دونها على الاعتراف؟ وتنال تكريسا لوجودها حتى في حال غيابها ، من خلال تقدير الآخرين وتزكيتهم ، فالزوجة تتلقى الدعوات للحضور في المناسبات الاجتماعية والعامة (نتشرف بدعوتك وحرمك المصون) ، وحتى في حال غيابها فإنها توجد من خلال عبارات مثل «بلغ المدام تحياتي» و«كيف حال الأهل؟» أو «الله يخلي لك أم العيال» ، أما هي فهي الشخص المدعو إلى الغياب حتى في حال وجوده المادي! بل هي بالأحرى شخص غير موجود (في حال حضورهما معا مناسبة عامة واحدة يتعمد يوسف إنكارها ولا يكاد يلقي التحية) . وإذا ما انتهت العلاقة العاطفية بينهما يوما ، لسبب أو لآخر ، فسوف تتبدد العلاقة في الهواء دون ترجيع أصداء وكأنها لم تكن! فمن ذا الذي يعلم بها ومن سيفتقدها . .غير أصحابها فقط ؟

أحست منيرة بأنها زوجته الحقيقية ؛ الزوجة الجديرة به ؛ التي لا يحق لها أن تعلن عن وجودها ناهيك بظهورها . كانت تحبه بقدر ما كان الحب يبدو مستحيلاً ويائساً . صحيح كان الحب على تلك الشاكلة مرهقاً ومستنزفاً وبغيضاً في بعض الأحيان ، لاسيما عندما تشعر بأنه يتلقى غيرتها والآمها دون اهتمام بل إنه يعاملها حتما دون تقدير لتضحياتها ، وكأنه يرى فيها امرأة خرقاء بائسة عجوز محمومة بالحب ، سيدة غير مسئولة تعرض سمعتها وسمعة أبنائها وعائلتها للأذى والقدح في سبيل علاقة بلا أفق ولا جدوى ، علاقة مكتّمة لا تجرؤ أن تستحضرها في خيالها في محضر الناس .

تشعر عندما يعتذر إليها بعد خصام بأنه اعتذار مبطن بالمواساة ، بدافع العطف والشفقة ، أو ربما بدافع الذنب من استغلال حياة شخص آخر وآماله . حاولت منيرة (دون أن يعلم يوسف) أن تنفذ مشروعاً مجدولاً للاستغناء عنه ونفيه قطعة قطعة من حياتها ، ولكنها لم تفلح أبدا ، وكأن قدميها موثوقتان بثقل المحكومين بالإعدام ، وكأن عليها أن تجر ذلها في الحب والحياة .

كان يوسف في ذاكرتها أجمل مما كان في وقائع حبها الفعلي ، وبعد انفصالهما تمنت لو أمكنها أن تلتقيه - مصادفة - ولو مرة واحدة لأن ذلك اللقاء (المدبر قدريا) كان سيثبت لها -بصورة أو بأخرى - أن علاقتها بيوسف كانت حباً على وجه اليقين . لم تشعر منيرة بألم ممض ساحق بسبب الفراق فحسب ، بل لأن الحب الحقيقي في نظرها لابد أن ينتهي بطريقة أكثر جلالاً وسمواً مما انتهى به حبها من انفصال سقيم بارد .

لقد تحول الحب في حياة منيرة إلى عمل هستيري تعيشه منيرة وتعيش له ، كما يجب أن يعاش الحب الحقيقي باستغراق وإخلاص وتفان ، وعندما تبين لها أنه لم يكن حباً على الوجه الذي تصورته ولم ينته النهاية الجليلة والجديرة ، أصبحت تلك (العلاقة) هي عارها التي ستحمله وتعبر به سنين حياتها المتبقية ؛ لأنها صدقت في أوج حبها ليوسف ، وبسذاجة بالغة ، امكان اتحاد روحيهما والغاء الزمن وتناقضاته ، ظنت منيرة أن الحب ليس سوى إفناء الذات في الآخر وأن ذلك - بصورة غامضة - يربطها بالحياة مباشرة . وكأن الوقوع في الحب هو وقوع في خضم الحياة أو عليها ،

وهو الأمر الذي لم تختبره منيرة كثيرا في حياتها!

لا تقيس منيرة علاقتها بيوسف بأي شيء آخر حدث لها في حياتها، لا الرسم الذي تلطخت بألوانه أصابعها، ولا صدمات موجعة اختبرتها في مراحل حياتها، ولا مستويات من الحيوية والثقة حظيت بها في مسيرتها الإدارية في زحام القرارات والاجتماعات والسفر والمؤتمرات. كل ذلك كان محطات مؤقتة اشترت منها صحفا وحلوى، أما يوسف فكان (غاية) رحلتها! لم تعرف معنى الحياة الا عندما أحبت يوسف، وغدا عمرها تجربة فريدة وغير قابلة للاستبدال.

لم تستطع منيرة أن تميز شيئا في يومها كله غير التوق إلى يوسف؛ لأنه بعيد ويصر على إقصاء نفسه، ويذكرها دائما بأن عليها أن تستمتع بالحب بحسبانه شيئا يخصها. قال لها: لا يصلني من حبك إلا ما قد تبدينه بوعي أو بغير وعي! إنه شيء يخصك بالكامل!

هذا ما أجبرت عليه منيرة لتقمع (تمظهرات) الحب وأعراضه؛ وهو الأمر نفسه الذي لجأت إليه أختها عائشة لتنقذ نفسها، بآخر أنفاس الحب بين ضلوعها.

«هل جننت؟» تسأل منيرة نفسها! ماذا فعل بها هذا اليوسف! لم تكن في أول علاقاتهما تستطيع أن تنظر إليه من دون أن تسبل عينيها أو تشيح يمنة أو يسرة؛ لأن وجوده يزحم الهواء ويثقل كتلته! هل يوجد في الكون شيء غير يوسف؟ تود لو تبتعد عنه قليلا لكي تتمكن من النظر إليه بحرية! هل هذا هو الحب؟ كم

يستهزىء حالها بالحب كله!

يتحجج يوسف بمختلف الأسباب ، ولم يكن يعوزه السبب ، ولكن كان يعوزه الحب فقط . يقول إنه لم يكن يستطيع الاتصال بها! وعندما يرد عليها كانت تختبره هل قرأ مسجاتها أم أنه يدعي ذلك ، تحاول طرح أسئلة طائشة وعابرة كأنها مصائد مستترة لتوقع به ، وكانت تتمنى لو تكتشف كذبه . وعندما يتجاهلها نهارا بأكمله ؛ كانت لا تتوانى عن إرسال (مسج) لاذع تختمه بالتلويح بالقطيعة ، بحسب سوء مزاجها وقدرة احتمالها ، ويجيب ببساطة (وشصار ؟ طارت الدنيا ؟) ، ويكون شجار وتكون قطيعة بينهما تستمر اسبوعا . هل تنجح منيرة في ابتزاز يوسف ؟ هل يغلبه شعوره بالذنب ، برغم مكابرته وبروده ، هل يستطيع أن يكون لئيما بلا هوادة ويشعرها بأنها هي السيئة الصفيقة ذات السلوك الطائش المضر بحياته ؟ تعود إليه منيرة كقطة منزلية تموء عند قدمي صاحبها ، تشتمه وتحتك بساقه بألفة ومودة ، وتعتذر بأنها تتصرف بدافع (الحب) ، ستقول : أحبك ، وسيقول : (وأنا اكثر! لو تدرين!) ، كم أنت مخادع يا يوسف! ترى هل يعرف يوسف سواها ؟ يحلف بأنه ليس لديه وقت لغيرها!(كأنما لا يعوقه إلا الوقت!) ربما كانت منيرة تفتعل الشجارات أحيانا لفرط ما كان الخصام معذبا! والمصالحة مجزية . ماذا يمكن أن تخسر المسكينة؟ إنه بعيد على كل حال! إنه ليس ملكها ، لذلك يحق لها أن تعذبه وأن تحرقه كما تحترق .

جعل الحب من منيرة كائنا خاصا

عجزت أن تنظر إلى الحب بلسماً كانت تراه قدراً فحسب . ماذا كان يعني العالم خارج الحب ؟ لا شيء! وبالرغم من ذلك فما هو الحب سوى أغلال وأثقال وأحمال تجرها وراءها بصمت . لقد سلبها الحب كل خصائصها الأخرى (لم تعد كائنا خارج الحب) . أرادت منيرة الحب حياةً فجعلته عالمها ، وتوهمت أنه بإمكان الحب أن يغدو فلسفةً مفتوحةً للمداولات ، في الوقت الذي أراد يوسف أن يفلسف خيبته وفشله في علاقة حب لم يجربها من قبل!

وهكذا قال لها ذات مرة : لم أعرف أحدا مثلك قط!

عكست عبارة يوسف في الواقع نظرته لمنيرة ؛ فهي مختلفة عنه وغير متسقة مع جملة حياته . أما منيرة فتتأثر حياتها كلية ومباشرة بتقلبات علاقتها بيوسف! عندما تخاصمه لا تعود منيرة نفسها! لا تريد أن تحيا أو تأكل أو تقابل الناس أو تعمل أو تجلس بين الناس أو تتناول كتاباً! لا تعرف ماذا تفعل بنفسها . من الصعب أن يحدث ذلك لشخص شارف الخمسين من عمره ؛ تلك معصية من أن ترتكب!

كولاج

لقد دفنت نفسها في عملها فترة طويلة أهملت نفسها وأبناءها ، ابتلعت كرامتها مرارا عندما تم تخطيها! وعندما تمت تخطئتها! وعندما تفاجأت بقرارتهم من وراء ظهرها ، وضد توصياتها! وعندما توضع - وحدها- أمام فوهة الانتقادات ؛ لأنهم

تراجعوا عما قرروه ، وعليها أن تبرر وتبتدع أعذارا وتجتهد لتخفي العيوب! وتتحمل تبعات فشل قرارات لم تستشر فيها أو كانت ضدها منذ البداية! يجعلونها تنفق وقتا وجهدا في مشروع معين ثم فجأة يستدعونها لتلتقي وفدا غير الذي راسلته وتباحثت معه ، وتوقع على تعاقد معه وهي تبتسم للكاميرا التي تصورها!

لم تحاول أن تطلب الإعفاء! (لا أحد يطلب الإعفاء!!) ، سيقال بأنها انسحبت كالعادة وهربت من المسؤوليات! لم تستطع المواصلة وأخفقت! بل سيشاع بأنها أقيلت بسبب أخطاء أو تجاوزات وقعت فيها أو سمحت بها! وحتى لو رجح الناس بأنها خرجت بسبب «عدم رضاها» عن وضع الهيئة وطبيعة سير العمل ؛ فهل سيجعلها ذلك نزيهة أو حتى بطلة في أعينهم ، ولكنها ستكون منبوذة في نظر «السيستم» وخائنة لأهم أعراف الوظيفة الرسمية : صيانة هيبة النظام والحفاظ على أسرار العمل! لم يكن بمكنتها إلا أن تقبل (على مضض بالطبع) وأن تستمر (على المنوال ذاته) ، فليس بمقدورها أن تنفصل عن ذلك النظام الذي تستظل بحمايته!

يتابعها زملاؤها وموظفوها من مدراء الإدارات بالمراقبة والرصد كالصقور الجارحة ، ويتصيدون لها أي هفوة أو ضعف! حرصوا أن يشعروها بأنها غير مرغوبة ، وأنها مفروضة عليهم من خارج وسطهم ، ولن يقبلوها بها ما دامت تملك أن «تتمايز» بشيء عن سائرهم! وقف البعض منهم على الحياد يتابع الموقف و«يتفرج» ، ينخزها «النصحاء» المقربون بأنها ليست قادرة بعد على الانخراط الكامل في «وضعية» الإدارة الطاغية ، وهي أسلوب الإدارة

الناجحة ، وهي تعرف بأنها غير مستعدة أيضا ، للمواجهة الدامية حتى النهاية! لم تزل تجد نفسها في وضع الشخص «المثالي» (الذي طالما كرهت أن تكونه!) تعيش منيرة مأزق البرجوازية الصغيرة! فهي من الذين لا يستطيعون أن يعيشوا أدواراً فعلية ؛ فيظنون بأنهم ينتصرون بمقدار ما يحققون من «توثيق» وتكرار لأسمائهم على صفحات الصحف أو في حصد المناصب والتسميات فحسب! الأمر الكفيل بتخليدهم في أرشيف الذاكرة المجتمعية بأقل حمولة ممكنة من الأخطاء (أحيانا تصبح أهم منجزاتنا ألا نسمح لـ(السيستم) أن يلوثنا أو أن يطمرنا تحت ركامه) . يُعرّف المرء في المجتمع بحسب ما يشغله (أو شغله سابقا من مناصب) ، يقال فلان وزير سابق ، سفير سابق ، خبير ، كان عميداً في العام كذا لكلية كذا ، ولكن من يبالي بما قدمه؟ وما يمثله؟ ومن هو؟

لم تكن الدكتورة منيرة كالآخرين ، ولا في وضع مساو لهم أبدا ، فقد بذلت جهودا مشهودا لها وكرهت أن تكون أداة في أجندة غير واضحة ، ولم تسع إلى نيلِ الجوائز الفخرية والشرفية فقد كان ذلك يثقل كاهلها ، وترفضه لا من باب التواضع بل - في واقع الامر- من باب الترفع والتنزه! ولكنها كانت تستشعر أيضا الخوف من الإقدام لكيلا تفشل وتلام على ذلك ، وتوصم به ، فكما أن النجاح معياري ومنوط بالظهور وتسجيل النقاط العلنية ؛ فإن الفشل أيضا يحمل (ختمه) الآخرون القادرون على تلطيخ سمعة من يناوؤنه أو يختلفون معه . إن الانتقاص من الآخرين من أسهل الأمور ، واتهامهم بتقديم التنازلات هو الاتهام الأكثر شيوعا وجاذبية .

الخلاصة أن حياتها كانت (كولاجا) متقنا! فقد أوتيت القدرة على مزج العناصر وإعادة ترتيبها بل اختلاقها - أحيانا - من بضع قواعد متنافرة ومبادىء منتقاة ، لكي تعرض في نهاية المطاف في نظم أنيق مميز ولافت! كذلك «المزج» الذي كانت تصنعه بمواد العلوم الاجتماعية ؛ فتتحول بين يديها إلى عناصر قابلة لإعادة الصياغة والتنظيم في «تقديم» جديد يضخم جوانب معينة أو يقيم مقارنات مذهلة .

ربما كان ذلك يفسر - إلى حد ما - تلك النقلات الحادة في حياتها وتلك الانقلابات ، لكنه لم يكن يسوغها ، وأسوأ ما في الأمر أنها - هي نفسها - لم تكن تستشعر القناعة والرضا بما تفعل ، ولا تعرف إلى أين تتجه .

منيرة القدرية

تجعله تلك الشعيرات البيض على فوديه وتلك التضاعيف الجلدية تحت عينيه أكثر جاذبية ؛ لأنها تظهره ضعيفاً ووحيداً و(محتاجاً) ، إليها . عندما كان صوته يصلها أبحّاً مهموماً عبر سماعة المحمول كانت تجد ذلك في غاية الرومانسية وكأنه أمر متعمد ومقدور في ذاته .

ما أبهى أن يحلف لها ذلك الرجل الأشيب أنه لم يتعمد إهمالها ولم يتغافل عن الاتصال بها! كان يبدو حينئذ شخصاً مختلفاً عما يكونه أمام الناس الآخرين (كان يوسفها فحسب) . تحب أن تراه طفلاً عاجزاً يناله التقريع ؛ وهو يصر على أنه لم يسبب

تلك الفوضى التي يحاسب على ارتكابها . هل كان من الممكن ألا ينال ذلك الطفل الصفح ؟ وهل كان من الممكن ألا تكافئه بعطف إضافي؟

يغيب يوسف أسبوعاً من دون عذر ودون اتصال . تبحث عنه كالمجنونة في كل مكان ، في مكتبه وفي بيته!هل يريد أن يشعرها بأنه لم يعد يريدها في حياته ؟ يرد ليقول : كنت مثقلاً ومشغولاً! تحس بالمهانة عندما يطلب منها - برفق - ألا ترهق نفسها بالبحث عن راحته . كان يرد عاطفتها تجاهه . كان يدحر حبها . كان يرفضها!

وكانت تريد تقييده بالحاجة إليها كما لو كانت تخشى ضياعه أو تتمنى لو كان يخصها وحده! وكان يتحرى الفكاك من أسرها وكأن حبها امعان في الاستحواذ عليه .

تتحرق لسماع صوته! فقط لسماع صوته ، لدقائق معدودة ، وتتألم إن لم تجده منتظراً حاضراً ماثلاً على الجانب الآخر من الخط! ولكن ذلك الألم «يسمو بها بقدر استحالة تحقق مرادها التافه» ، كان بإمكانها أن تقحم نفسها في حياته (كما فعلت ذلك دائما) ، ومع ذلك كانت تتمنى أن يدرك «أهميتها» ويقدّر جلال عاطفتها وما أضافته إلى حياته وإليه شخصيا . ألم تكن دائما هناك عندما احتاجها (حتى لو لم يطلب معونتها أو رفقتها أو تعاطفها) ، ولكن أليس ذلك بالذات ما يجعلها نادرة وقريبة ومتفانية ؟ ألم تكن تعرف بالضبط ما الذي يحتاجه ومتى يحتاجه حتى قبل أن يدرك هو مدى حاجته إليه . والآن تقول لنفسها : سيدرك حتما (حجم)

وجودي ، وسيفتقد صدق عاطفتي عندما يختبر غيابي ، ولن يعوضه شيء ولا أحد عني . ألم يكن ذلك عزاؤها الوحيد؟

حاولت أن تفعل ذلك ، في الماضي ، مع زوجها ، وسعت بعد زواجهما مباشرة أن تحتضنه وتنشغل به تماما ، وأرادت أن تشتري له حتى ملابسه الداخلية ، وأن تختار له عطره ، وأن تكون شريكته في كل شيء ، ولكن زوجها أوقفها بفظاظة تقريبا ، تصرف زوجها ، منذ البداية ، بشكل مجاف لكل ما تمنته! نحاها جانبا ففقدها! انصرفت بكليتها إلى ابنها البكر طارق ، ثم طارت فرحاً بابنتها هدى ، واستقبلت بعدهما ابنها الثالث عبد الله ، وكأنما ولدتهم انتقاماً منه وتعويضاً عن وجوده الذي لم يطل ، فقد خرج من إطار الصورة بالوفاة الفجائية! من الذي انتقم الآن من الآخر ؟

طوحت بها حياتها مرارا خارج حدود أسرتها الصغيرة ، أسرتها التي لم تغنها عن البحث خارجا عما لم تجده في داخلها من ارتواء وأهداف وسعادة .

انشغلت الدكتورة منيرة! ولم تعرف قط أن ابنتها هدى ذات الاثني عشر ربيعا تهاتف (فرح) مذيعة اف ام الإمارات ؛ لتحكي لها تجاربها الفاشلة في الحب والصداقة على الهواء مباشرة ؛ ولم تعرف أن طارقا كان يتسرب من المدرسة حتى تركها نهائيا (ولم تستدل الإدارة على أهله لأنه زودها بعنوان وأرقام مغلوطة) ، وعندما اختيرت الدكتورة منيرة ضمن وفد نسائي لزيارة المؤسسة العقابية والإصلاحية لم تستبن في وجوههم التائهة (تتراوح أعمارهم بين ١٥ و١٧) ملامح ابنها طارق ، الذي سينبغي عليها مواجهة مشاكله

(الجنائية) بعدها بسنة فقط .

لقد حز في نفسها أنها حملت وحدها ، على كاهلها ، أعباء تربية ثلاثة أبناء قابلوا كل تضحياتها بالجحود والاتهامات ، وأخجلها انها انشغلت خارج أسرتها بعالم لم تنجز فيه شيئا ذا بال!

مراقب من آخر

عندما لا تكون منيرة مراقبة من يوسف فإنها ترى نفسها في عينيه! هل يعقل أن ذلك الألم متولد ، لا من فجيعة الفراق والفقد فحسب بل من فداحة الجفوة والغلظة واللامبالاة بصورة رئيسية! كأن كل ذلك الحب أمسى قابلا للنسيان والتجاوز ، وكأنما هو غلطة أو نزوة أو ربما محض تسلية!

لا يترك الحب الأول اللوعة الأشد وقعا بل الحب الأخير الذي يتسلل إلى قلب مشغول - أصلا - بذكرى أو تجربة سابقة (ناقصة أو فاشلة) ، فيقتلعها ويحيلها رمادا ثم يشغل بصورته وحده الحيز نفسه ، ولكن مستفيدا من كل تلك الخبرات التي خلفها الحب الأول لصالح الأخير ، وكأنما كان ما جرى تهيئة لمجيئه وتعزيزا لمكانته اللاحقة .

ماذا لو اكتشفت منيرة بأنها تمارس نوعا من الاحتيال النفسي ، ضربا من الالتواء المهين ، بأن تعيش من خلال الآخر ؛ فتصبح عندئذ استنساخاً محضاً لشخص آخر ، هل سيغير ذلك مما حدث ؟ كيف ترى منيرة ذلك الانتهاك السافر لوجودها ؟ وما سر ذلك العجز والخواء ؟ من يدري! لعل منيرة علمت بكل ذلك وتصرفت

على أساس تجاهله منذ البداية ، ولعلها فضلت الارتباط بالحياة عن طريق «وسيط» قادر أكثر منها على ممارسة الحياة والتمتع بها !

كانت تريد أن تجعل من يوسف شخصا سعيدا ، وفي ذلك وحده ستكون - فيما حسبت - سعادتها الكاملة .

قانون النسبية في الحب

كانت منيرة تعرف كثيرا عن نفسها ، وهذا ما يجعلها غير قادرة أن تبرر جميع تصرفاتها أو ان تتجاهلها ، ولذلك فإن هناك مراحل زمنية وسنوات عمرية محددة تبدو النسبية فيها قانونا . وهناك أوقات لابد أن يكون فيها غاليليو مخطئاً ، ولم يكن غاليليو مخطئاً مثل ذلك اليوم! فالعالم (عالم الدكتورة منيرة) يحتاج إلى (الثوابت) ، وربما كان على الشمس أن تعود مرة أخرى لتحتل مركز الكون مجددا لكي تصفو حياة منيرة!

منذ تعامدت حياتها بحياة يوسف أصبحت تنتظر اليوم الذي ستنتهي فيه تلك العلاقة ؛ لأنها تعرف (باعتبارها امرأة ناضجة وعقلانية) أن الأمور إلى زوال ، وهي لا يقلقها هذا الأمر في حد ذاته فهي عقلانية (كما سبق أن ذكرنا) وتعرف أنه عندما يحدث فسوف يقع سلمياً وطوعياً ، وستطرح الحياة - تلقائياً أو جبرياً - بدائلها المعقولة والمقبولة ، ولكن تعذبها فكرة التبدلات ؛ فهي لا تستطيع أن تشارك العالم برمته احتفاله بحمى التغيير ؛ لانها تقف بجانب الذين قاوموا غاليليو (وهو شيء غير عقلاني بطبيعة الحال) ؛ لذلك تبقيه لنفسها وتسميه السعي وراء الثوابت .

في بحثها عن ذاتها تفرعت جداول التجربة الذاتية ، وفي التسعينيات كانت منيرة شخصا يبحث عن الحقيقة في قالبها الروحاني ، ووجدتها بالمصادفة تقريبا بينما كان أكثر من حولها قد استدلوا على طريق الصحوة قبلها . اعتمدت منيرة القدرية على المصادفة وحدها لتجرب ذلك الطريق ، لم تحاول الاقتراب منه أو التودد إليه ، تركته يسعى إليها ولكنها التقطت الخيط أخيرا ، عندما اصطحبتها إحدى صديقاتها إلى منزل تقام فيه ندوات منتظمة للدعوة ، التقت منيرة هناك بأم عمر . لم تكن منيرة آنذاك تضع حجاباً بل كانت بالكاد تسدل (شيلة) رقيقة على رأسها ، لكن أم عمر لم تبد امتعاضاً منها ولم تعمد إلى نصحها كما توقعت منيرة . بعد المحاضرة جلست المرأتان وتحدثتا كصديقتين قديمتين . علمت منيرة بأن أم عمر تحضر للدكتوراة . كانت أم عمر تدرس الرياضيات ثم عدلت عنه طوعا - برغم تفوقها - لتقبل على دراسة اللغة العربية نحوا وصرفا . فهمت منيرة بأنه كان عليها أن تمضي في رحلة التكفير أولا قبل أن تتلمس طريق العمل والتدبير!

مارست منيرة دائما ، وباحتراف ، رياضة التزلج على مجريات الحياة ، ركوباً على الموجة المندفعة ، تنطلق منيرة مع مد طاغ وتنتهي بآخر . في مرحلة السبعينيات كانت على رأس الموجة ، ممتطية جناح جرادة يسارية تغذت على حقول يانعة ثم تبددت كالسراب ، وعندما انتصف العمر أقبلت الثمانينيات في أوائلها ، اندلعت الثورة الإسلامية الإيرانية ، وفي أواخرها وقع الغزو السوفييتي لأفغانستان ثم تفكك الاتحاد السوفييتي نفسه ، وسقط بصورة دراماتيكية في

التسعينيات! تخلت الدكتورة منيرة عن يساريتها فقد تكسرت الموجة على صخور الشاطىء ، ومنيرة تهوى ركوب الموج العاتي لا بروح المغامرة أو اقتناص الفرص ولكنها كانت (قدرية) ، وتظن بأنها مندوبة إلى ذلك الخيار الذي يحاصرها تماما ، عندها تحولت الدكتورة منيرة إلى ارتداء مسوحها الديني في التسعينيات مقترفة الخطأ نفسه ، وهو التحصن وراء متاريس الثابت والمطلق والمتعالي! وحصلت على مبتغاها من (الثوابت) ، وتماهت مع خطاب «السلفيين» بحديته وطهرانيته وقطعيته . اطمأنت منيرة إلى ما قدمته الصحوة من تكريس لنسقية مغلقة تأخذ بالأحوط لكيلا تضطر إلى اجتياز المفازات والاختبارات والمجازفات! بعدها بسنوات خبت نار الصحوة التي دشنت في السبعينيات وانطلقت في الثمانينيات ، وتأججت في التسعينيات إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر لعام ٢٠٠١ و«تراجعت» الدكتورة منيرة مع (المراجعات) . لم تتغير (ذات) منيرة كثيرا! لم تتغير البتة! تنقلت بين تلك الخانات ، تبنت هذه الايديولوجية وتخلت عن تلك ، وبقيت هي ذاتها ، الدكتورة منيرة التي يلقبونها الآن بالعلمانية في بعض المواقع الإلكترونية! ما هي تلك الذهنية التي تتبنى تلك الإيديولوجية ثم تتخلى عنها إلى نقيضها!! ترى هل هناك (ابيستيمية) عربية؟ هل هناك معرفية كلاسيكية تبنى عليها الثقافة وتتميز بها العقلية العربية ؟ ربما آن الاوان لتفحصها والكشف عنها! لابد أن نتساءل في كل مرة تفشل فيها حركة نهضوية أو مدٌّ عربي (قوميا أو يساريا أو صحويا) ، هل هناك نهضة

فاشلة؟ بمعنى أنها تنتهي دون أن تخلف اثراً أو تتحمل تراكماً ؟ هل تسمى - إذاً- نهضة؟

لا يمكننا التثبت من حالة «النخبوية»! ومن مفهوم «الجيل» نفسه ، ما دام جيلا بعينه يتنقل بين الخانات ، يعتنق هذه الإيديولوجية ثم ينادي بتلك ، وكأنما يتلمس طريقا في الظلام ، وكأنما ينفعل - في كل مرحلة - بمستجلباتها ، من دون أن يكون فاعلاً في أي منها!

أي ذات تلك! وأي عقلية تلك ؟ وأي أزمة يعيشها ومنذ متى؟

البحث عن العالم المفقود

الحب هو البحث عن الآخر ، ولكنه بحث ينتهي بالمرء إلى ذاته من جديد! ذاته التي لم يتوصل إلى الهرب منه واستدبارها! يغوص الحب في الشعر العربي غورا في الذات ، فالشعر الغزلي لا يحمل سوى صورة الذات المتوارية وراء عشق الآخر . لماذا يتوارى الشاعر ؟ ومم ؟ ولماذا يضع معاناته مسجلة باسم الآخر ، وأيهما يمثل موضوعا للحب ؟ هل تجدون أثرا لليلى في قصائد ابن الملوح ؟ هل تظهر ولادة في قصائد ابن زيدون أكثر من ابن زيدون ذاته ؟ واين الحبيب والمحبوب في شعر أبي فراس الحمداني ؟ أين العاشق وأين المعشوق في كل مطالع المعلقات وكل قصائد الشعر العربي منذ قيس وحتى الفيحاني .

إنه أمر مرتبط بالنفسية والذهنية العربية ، ومرتبط كذلك بطريقة عيش الإنسان ومسعاه إلى التصالح مع ظروفه

المادية ، أكثر منها محاولته إلى الخروج من أوضاعه أو العمل على تغييره .

انظروا إلى الوحدات المكرورة في الزخرفة الإسلامية وأنماط العمارة ، وفي شكل القصيدة العمودية التقليدية المرتبة ، لاحظوا الجملة الموسيقية المنتظمة ، والتي تؤسس للحن العربي منذ زرياب وحتى اليوم .

إن التنميط والقولبة والوحدة المنتظمة ، ليست تكراراً مقصوداً لصفته الجمالية فحسب ، بل إنها مطلوبة بصفة غائية كذلك . تكاد تكون بحثا عن التناظر والتشابه والانسجام (الهارموني) بصفة أسلوبية وأخلاقية ؛ فهي السعي إلى تقعيد النظام والرغبة في التطابق مع (المثال) ؛ لأنه الأنموذج المتطلع إليه وإلى (استعادته) ، إنه بعبارة أخرى الخشية من انقطاع التسلسل ؛ إنه العودة إلى المنبع ، الحنين إلى العالم (المثال) المفقود .

لا يكاد الشعر العربي يحمل فهما اجتماعيا ونفسيا متجددا للحب ، بل ينزع إلى تكريس الثقافة العربية (المعتمدة) ، ويعيد انتاجها وتوليد مكوناتها الأساسية تحت أهم عناوينها على الإطلاق ؛ تضخيم القيمة إزاء المعرفة!

لنسم ذلك الحب اليائس! فذلك هو النمط الذي تحدثت عنه كل الغزليات العربية حصرا ، لاسيما قصص الحب الشهيرة ، وأصبح اليوم موضوعا أثيرا بل حصريا للأغنية العربية .

لماذا يضع كل ذلك التراث العربي العاطفة في المرتبة العليا ؟ لماذا يتم تضخيم العاطفة في بيئة صحراوية كالجزيرة العربية تغلب

عليها القسوة والفظاظة والغلظة واللامبالاة ؟ لماذا لا يكون الأدب في هذه المنطقة محاكاة صادقة لواقعه ؟ لماذا يتأرجح الشعر العربي - في غزلياته - بين سادية المحبوب ومازوكية المحب ؟ قد يبرر ذلك أن البيئة الصحراوية كانت مرتعا خصبا لحالات الهجر والرحيل والفراق ، بحكم ظروف المحل والفقر ، حيث بيئة مصادرها قليلة وغير نامية ، وحيث بشر يقعون فريسة لاضطرابات عاطفية جامحة ، فالحب يغدو مصدرا للحزن بصورة هزلية أحيانا ولكن جليلة! إذا كانت الحياة واقعة بين قطبي رحى الخير والشر ، الإيمان والكفر ، فإن الشعر - وحده- جعل الحياة في نظر الناس تدور بين الحب واللامبالاة ، كطرفي نقيض ولكنها عوضا عن أن ترفع الإنسان إلى السعادة (بمعنى التخفف من الندم واليأس والشعور بالذنب) ؛ فإنها جعلته فريسة سهلة للوقوع في أتون التعاسة والعذاب ، لأنها جعلت من الحب حالة من اليأس التام لشخص مقهور اجتماعيا وماديا . . . وقدريا .

يصبح الوقوع في الحب حالة (جبرية) يقع فيها بطل الحكاية أو القصيدة (ضد إرادته تقريبا) ، وتكون لحظة التقائه بتوأم روحه هي بداية انطلاق رحلة الشقاء إلى غاية متوقعة (الموت غالبا) .

تلخصت حياة الشاعر القطري محمد بن عبد الوهاب الفيحاني في رحلة العذاب تلك ، (وكانت حياة قصيرة) تنقل الروايات حكايته ، متنقلا بين الجاهات ووجوه القبائل ليمدحهم ، طمعا في تشفعهم لدى أهل حبيبته مي ليزوجوه ابنتهم! غير أنه

يمنى بالخذلان والخسران فينقلب هاجيا شاكيا :[1]

ويروى بأن الشاعر وقع مريضاً ، ويزعم بأن ذلك بسبب الحب وحده ثم يقضي الشاعر نحبه بالحب أو بالخذلان (يغدو الأمران شيئاً واحدا) .

تصبح رحلة الشاعر (الذي درس في الكويت) رحلة عذاب مركبة في محيطه ؛ فقومه متأخرون عن مجتمعات أخرى مجاورة زارها ، (الكويت والبحرين) ، وهو يعاني من عدة وجوه ، ولكن من دون أن تسمى معاناته إلا باسم مأساة الحب وحده ، وتصبح مي بالنسبة إليه المرأة والمجتمع والسعادة وتحقيق الذات والحياة ذاتها ، فنحن نراها موضوعا لحياته ووجها لفضيلته ومصدرا لإلهامه ؛ وهي كذلك محنته التي تورث الندامة وتسوقه سوقا إلى حتفه .

من المقبول أن يصبح المرء فريسة للحب (غير الإرادي) ، ولكن ليس من الممكن أن يصرح بأنه ضحية لجماعته وظروفه ومقاديره الاجتماعية (الإرادية) . إن هناك إحساساً غامضاً بقهرية القوى الفوقية وغلبة معايير (مطلقة) للخير والشر الاجتماعي (وليس الأخلاقي فحسب) ، ولا تكاد القصيدة العربية ولا الحكاية الشعبية المروية تنتقد أبدا تلك المعايير المطلقة أو تناقشها .

عندما جاء زمن اكتشاف النفط لم تنقلب المعادلة في القصيدة النبطية ولا في الحكاية المروية ، بالرغم من طروء المستجدات وتغير الأحوال ظاهريا ، وتحسن الظروف جزئيا مع قدوم شركة التنقيب

---

(١) يروى له : سويت في ثيران الحمر قصيد   يا ريت ربي سوا لهم قرون .

عن النفط ، ومعها بعض التحديث التقني الاضطراري .

لبث الترميز النمطي قائما في الحكاية ، وراوح الشعر النبطي في مكانه وأغراضه ورؤاه ، بل عاد القهقرى وفاضت غزلياته بحديث العاطفة الجريحة الثكلى ، يتحدث الشاعر المغرم بوصفه ضحية كاملة ، معبراً لا عن روح الفرد المأزوم فحسب بل صوت الجماعة العالقة في فخ الزمن الضائع كذلك! وبالرغم من أن معيار الخير والشر يبدو (مشخصاً) ومعمى بترميز كثيف من الغموض والتخليط ، وبعيد نسبيا عن روح (المجموع) ، إلا أن الشاعر (الخارج عن النظام) لم يزل في داخله! ولم يزل يخشى العقوبة الاجتماعية والرقابة الأخلاقية ، فضلا عن الإدانة السياسية (التي أصبحت هاجسا فيما بعد)! لم يعد الشعر النبطي اليوم (شعبيا) تماما كما كان بالأمس ، بل تحول إلى التشخيص المبتذل المسطح!

إذا كان الحب الحقيقي حباً فريداً مرصوداً لشخص بعينه من دون سواه ، فإن العلاقة العاطفية تتطلب توفيراً مستمراً لوقود كاف لتأجيجها لكيلا تخمد ، في ظل ظروف التعتيم والفظاظة والانشغال ؛ ولذلك كان لابد من سوء الظن والوشاية ووجود العاذل ، وكذلك تأمين طرق للوصال واللقاء المؤقت حتى في بيئة أندلسية خضراء مترفة لم يسع الشاعر العربي أن يخالف (سنن) الحب اليائس ، وكان لابد من معاناة وكاشح وواش ومثبطات . كل ذلك أسهم في رفد التراث الشعري المتدفق والمستمر(لا في تحولاته ولكن في جوهره اليائس وإخفاقاته الثابتة) . هذه النزعة الرومانسية للشعر في هذه المنطقة وثيقة الصلة بتقاليد التاريخ العربي . لا

يطلعنا كل ما سبق على محورية الشعر حول الحب فحسب ؛ بل يثبت أيضا بأنه عاطفة غائية مطلوبة لذاتها ، ولا تعكس سوى نفسها في (ظاهر) العالم الذي قدر لها أن تعيش فيه وتتعايش معه . إنه شعر اجتراري لمجتمعات طوباوية تبحث عن عوالم مستعادة ، وتهرب من ظروفها وأوضاعها وشرطها التاريخي ؛ لانها تؤمن بالإطلاق والأبدية والدوام .

تعيش القصيدة الغزلية اليوم في أبهى عصورها من خلال الأغنية ، فالقصيدة - الكلمة بارتباطها بالوسيط الموسيقي - تغدو قابلة للرواج والانتشار ، وتحظى بمصاحبة الحركة العضلية (الرقص) بميزة مضافة ؛ فهي كما تعتني بتجييش العواطف تعمد إلى تفريغها - تزامنيا - في الرقص!

لا يملك المرء إلا أن يعجب لماذا يبدو الحب أهم أحيانا من الخبز في حياة جمهور الأغنية العربي ، والذي لا ينحصر في فئات الشباب فحسب ؛ بل يشمل جمهوراً من شرائح طبقية متدنية في أحوالها المعيشية!

تحمل الموسيقى العربية حبلا سريا موصولا بتراثها في (المقامات والأدوات الوترية العود بوحداتها النغمية) ، وتنتظم التكرارية حركات الراقصين في الرقص الرجالي (كالعرضة والزفنة وغيرها) ، وفي الرقص النسوي (كالمراداة والخماري وسواها) ، وعندما يخرج الراقص عن طوره المعهود يعتقد الناس بأن جناً يدعى (زيران) قد مس الراقص ؛ فيحاط بالراقص ويُخرج من حلبة الرقص فورا .

الحالة القيسية

قد يكون الحب هو الحالة القيسية المثلى التي يمر فيها المرء في العصر الحالي . لقد رأى يوسف نفسه - كما يريد - في حبه لمنيرة ؛ لذلك لم يكن يريد أن يفقدها ، ولكن كان لابد من نهاية لذلك (الصداع) العاطفي (على ألا يفقد صورته التي كونها في داخل ذلك الحب) ، لن يتحول يوسف إلى قيس آخر يهيم على وجهه ، وإنما سيحمل - عوضا عن ذلك - الحالة القيسية في صورة (ذكرى) الحب فحسب ، وستطبع تلك الذكرى كل ما سيعقبها من علاقات بوصفها نسخا على منوالها أو بدائل أو إعادة لسيرة ذلك الشعور الأول الذي فقد وإلى الأبد . إنها توافقية جيدة ، ولو أن قيسا توصل إليها (لو كان ذلك بإمكانه) لعاش طويلا ، مخلفا قصص حب كثيرة وديوانا يضم (٥٠٠٠) قصيدة على الأقل (غير أنه لن يضمن خلودها) . يحب يوسف منيرة أو يحب الصورة التي تحملها منيرة عنه ؛ أو يحب ما تحبه منيرة فيه أو ما تظن أنه عليه أو ما تظنه بأنه يمثله! بكلمة واحدة ؛ يحب يوسف نفسه . الحب هو أن (يتمرأى) أحدهما في الآخر .

ماذا تعرف منيرة أصلا عن يوسف ؟

كيف تحب شخصا وتود أن تتطابق معه في محابه ومكروهاته ، وتشاركه أحلامه وتمنياته ، وتريد أن تأكل معه وتحلم معه ، وتعيش معه وتنام معه ، ولو على البعد ، ساعة بعد ساعة ، ثم يتبين لها بأنها لا تعرفه حقا برغم كل محاولاتها لاختراق ذاكرته وتفكيره وحياته!

هل يريد كل منهما أن يحصل على صورة استثنائية لنفسه لدى الآخر ؟ باعتبار كل منهما (حبيبا) ومستحقا لكل امتيازات الحب . يخطىء من يظن أن الحبيب يستحوذ على صورة الحب ذاته! كلا إن أحدهما يغدو فحسب محورا للعلاقة ويسود على الآخر ويقمعه!

أي يوسف هذا ؟

الصوت هو البعد القيسي للحب ، والمعاناة هي جوهر الحب القيسي ، (أي إن الحب بلا معاناة لا يدعى حبا) ، لذلك يجب الإبقاء على جذوة الحب مشتعلة بالإمعان في الحرمان والتخفي وراءه . يعاود منيرة حلم يلاحقها . كأنها واقفة على الرصيف . تشعر بأنها مراقبة! تسير ذهابا وجيئة . ثم تجد نفسها في طرقات كئيبة . تشعر بأنها ضلت الطريق ولا تستطيع العودة .

لا يخيفها المكان ذاته ، ولكنها لاتقوى على الانتظار بلا أمل .

عندما التقت يوسف ظنت بأن الحلم سينقطع . أليس يوسف هو شاهدها ومراقبها وطاقة الحب في داخلها ، ولكنها لم تشعر بالامتلاء وعاودها الحلم مرارا .

يبدو قيس لمنيرة وفيا أبديا للتقاليد المعتمدة التي أضرت بحياته وكتبت مصيره حتى النهاية ؛ لقد استسلم لها بالتذاذ وتسليم . لو كان قيس حازما ؟ لو لم يخش ضياعا ولا خسارة لمكتسبات! لو لم يأبه لأمر «النسق السائد» وأمر «الآخرين» لاختطف ليلى ومضى بها إلى آخر الأرض! لم يكن هناك من سبب إلا أنه أراد تلك النهاية وعجل بها (ولم يظلم نفسه بل خذل

ليلى أيضا) لا لنفسه ولكن لليلى ؛ لقد عرفت ليلى منه الضعف والتردد فلم تقاوم أن تزف إلى آخر ؛ وعاشت حياة طبيعية بمعاناة داخلية من الخذلان والحسرة (فالمرأة ماهرة وخبيرة في ذلك النوع من المعاناة) ، عاشت ليلى وعمرت ثم مرضت ليلى (كما يمرض الناس) ، وماتت بينما قضى قيس حبا!

لقد وجد قيس مبكىً في كل مكان هام فيه على وجهه ، ولعله تهالك عند قبر ليلى لكي يمرغ وجهه في ترابه (ندما) وحسرة ليس إلا! ثم لحق بليلى المغدورة التي خذلها وأهانها طول حياتها ، لكي يعيش خالدا على حسابها ، باسم شهيد الحب ، تلك الأكذوبة التي صدقها كل الناس . . إلا الدكتورة منيرة . لم يعد هناك من سبب -على ظاهر الأرض- يبرر (جنة) الحزن التي يرتع فيها العشاق بطواعية!

قارنت منيرة بين قيس ويوسف فوجدت يوسفا أكثر واقعية ، ووجدت قيسا أكثر «انسانية» بيد أن كليهما أثار حنقها وشكوكها . لماذا توجب على قيس أن يهيم على وجهه ؟ ولم يتعين على يوسف أن يصطنع معاناة شبيهة ؟ لماذ يؤسس يوسف ، منذ البداية ، لفراقهما القدري ؟ لماذا كان مستعبدا لنسيبه رجل الأبراج والمجمعات والوكالات التجارية ؟

كانت ثلاثية (المال والزواج والوجاهة) ركائز قيمية في حياة يوسف ، لاسيما في عقده الخامس ، وعندما التقى بمنيرة عرضا ألفاها لم تزل تحاول بلوغ مرحلة الحرية والتسامي على الضرورة ، ولكن ألم يكن الحب ضرورة ؟

ثم تركها يوسف ورحل! وتستطيع الدكتورة منيرة الآن أن تعيش حلمها في العزلة والبحث والحب (لأن بواعث المعرفة هي ذاتها بواعث الحب) : إنها الرغبة في التحقق مرة بعد مرة! تشقى الذات وتعاني لكي (تتموضع) في موطن لذتها وسعادتها ، وتتلاشى في الآخر طوعا واختيارا تماما كالحالة الاستشهادية عند ابنها «طارق» ؛ أو لعلها تشبه على نحو ما هجرة «هدى» إلى أمريكا أو هي كالنجاح المالي الذي حققه رجل الأعمال «عبد الله» . يتفق أبناء منيرة على أن سبب معاناة أمهم يعزى إلى مرض قديم لم تشف منه قط وهو النزوع نحو التجريد .

انفصال بارد

كانت منيرة قد انفصلت قبلها عن يوسف انفصالا باردا مخيبا ؛ فقد سافر يوسف إلى نيويورك لكي يتركها . وأحست منيرة أن فراقه أعادها إلى نفسها بصورة فجائية وحادة ، ووجدت أبناءها قد تفرقوا - شذر مذر - واستغنوا عنها تماما فأحست بالغفلة والندم .

هكذا ينتهي الحب -عادة - على غير توقع (مهما كان متوقعا) ، ودون ان تتحرك أي قوى أو مصادفة لإعادة ما انقطع! كم مرة تخاصم يوسف ومنيرة ؟ كم وقعت بينهما جفوات لأيام وأسابيع (تتخللها مسجات قصيرة تسجل اتهامات وعتابات وعذابات) ، ولكنهما مثل كل عشاق الدنيا لم يقدّرا أن علاقةً على ذلك القدر من الاندفاع كانت أيضا على ذلك القدر من الهشاشة .

غاب يوسف! لم يرد على اتصالين ورسائل (اس ام اس) لا تحصى. وعلمت منيرة أنه سافر ليهجرها!

لم تتألم منيرة قط كما تألمت بعد رحيل يوسف، وكأنما لم يعد هناك شيء يعاش من أجله وبسببه. لم تر منيرة في أولادها أي عزاء أو معنى، ولو كان من المجدي أن تقطع منيرة الأرض لتلحق بيوسف لفعلت دون تفكير، ولكن لم تكن المسافة هي المشكلة بينهما بل إرادة يوسف وقراره. لقد غادر عمدا! وجد يوسف فرصته المنتظرة التي يبحث عنها ولن يضيعها هذه المرة لخطأ أو هوى أو مبدأ أو شخص.

رفع عنه (الحظر) أخيرا ونجحت المساعي والتشفعات المبذولة منذ زمن، وأسند اليه منصب رفيع في الأمم المتحدة ممثلا لقطر. وكان يخطط لسفره منذ شهور ولكنه لم يخبرها إلا قبيل سفره بنصف ساعة! هاتفها من مطار الدوحة لكي يخبرها باقتضاب ودون ان يسهب في الأعذار والتبريرات (وكأنه أمر مفهوم ومفروغ منه)، قال لها: انه يفعل ذلك من أجلهما! (مما يستحق الثناء والتنويه أنه لم يقل إنه تركها من أجلها)، ظلت منيرة تتألم لعدة شهور عندما يذكر أمامها اسم نيويورك، وكأن المكان أصبح يدل على ساكنه، وكأنه لا ساكن في نيويورك إلا يوسف بن عمران.

في سني دراستها الجامعية، التقت منيرة طالبا قطريا في جامعة القاهرة. كان شاعرا رقيقا في السنة النهائية في كلية الطب، وكان ينظم شعرا على طريقة الموشحات، مقطوعات تذيب الحجر، ويقدمها إليها متعللا بسؤالها عن رأيها، في حين لم تكن

تلك القصائد موجهة لأحد سواها . أرادت منيرة أن تستجيب لعاطفته فهو شاب ذو مستقبل ويحمل عاطفة صادقة تجاهها ؛ لذلك لم تصده . عندما بدأت زميلاتها القطريات يتندرن به نظرا لهيامه الواضح بها أحست فجأة أن نفسها عافته بل سخطت عليه كلية ، وأخذت تتهرب منه بلا مبرر . ما لبث الشاعر الطبيب أن سافر فجأة عائدا إلى قطر قاطعا دراسته ، الأمر الذي جعل جميع الطلبة القطريين والخليجيين يتحدثون عن الموضوع ويلومون منيرة أشد الملامة ، حتى خشيت منيرة أن يصل الأمر إلى مسامع أمها في حي المهندسين (وهي لا تفوتها شاردة ولا واردة) ، ولم يخف معظم الطلبة استهجانهم لتلاعبها بعواطف الشاب حتى أفقدته مستقبله في سنته النهائية بكليته ، دون اعتبار لعواقب تصرفاتها ، وشعرت منيرة بمرارة كافية دون النظر إلى ردود أفعالهم ، ظلت تفكر فيه وتستعرض بعض قصيده الذي تركه بين يديها ، ولكنه عاد لحسن الحظ بعد ثلاثة أسابيع من الغياب ، متعذرا بظروف قاهرة استدعت عودته الفجائية إلى قطر (وإن لم يفصح عنها) ، وظلت منيرة تتصور أن ذلك كان عذرا ، وأن الشاعر لم يزل يبطن الألم والحب معا . تجاهلها الشاعر تماما ، وشعرت منيرة بأنها تفتقده (أو تفتقد اهتمامه وسؤاله واعتراضه لطريقها ، وسعيه للحضور في المكان الذي تكون فيه) . وفي ذات صباح أرادت منيرة أن تستوقفه وتعتذر اليه بطريقة أو بأخرى ، وستعود المياه لمجاريها بمجرد أن تلقي عليه السلام وتسأله عن حاله ، وسيفهم هو الباقي . رأته يدخل من البوابة لوحده في صباح قاهري مزدحم بالأبخرة وزعيق الباعة

وضحكات الطلبة الرنانة ؛ فتقدمت إليه وصبّحت عليه . التفت إليها بهدوء ورد السلام ومضى . لملمت منيرة بقايا كرامتها ومضت دون أن تقوى على رفع بصرها ؛ وهي تحس بأنها تحت أبصار الطلبة الذين رأوا خيبتها وخنقوا ضحكاتهم في أكمامهم . صارت منيرة تبحث عنه بناظريها في الجامعة ، وفي نادي الطلبة القطريين ، وفي بعضِ المناسبات التي يتسنى لها حضورها . أصبح الشاعر صورة الحب المثالي الذي لم تعرفه منيرة مع يوسف الذي أذاقها من المرارة والخيبات كؤوسا مترعة .

الحب مهرباً الحب ملجأ

أنهكت منيرة!! تعبت منيرة!! تعثرت خطواتها كثيرا في محاولاتها لبناء قبة أخلاقية مثالية تحقق لها انسجاما كليا مع صورة العالم في داخلها ، ولكنها لم تفلح سوى في التنظير البائس لإيجاد البناء الاجتماعي الذي يتوافق مع بنية القصيدة الإيقاعية (والتي كانت معادلا موضوعيا لبنية العالم الحقيقي) ، فهناك احتمال قائم ألا يكون العالم الحقيقي موجودا أصلا (فلكل منا عالمه الخاص) ، أما القصيدة العربية فهي موجودة قطعا! إنها حقيقة ثابتة (رغما عن أنفي مرغليوث وطه حسين) . اعتادت منيرة أن تقول : لن يعرف العرب الفلسفة! ماذا تعني الفلسفة إزاء الشعر؟

تنظر الدكتورة منيرة إلى الحداثة بحسبانها «موقفا» مما سبقها يتحول - بدوره - حتما بمرور الوقت إلى موقف تقليدي يخضع للنقاش والدحض ذاتهما ثم يتم تجاوزه . . أيضا!! يبدو أمرا أقرب

إلى الآلية منه إلى الصدور عن مرجعية ؛ لذلك يتجاوز الغرب حداثتهم في كل حقبة ببساطة ، ولا نستطيع نحن تخطي العتبة لأننا سنخرج حينئذ من الباب ، سنخلع هويتنا ومرجعيتنا وثوابتنا التي ستظل ثوابت نستند إليها في الفهم والقبول والحكم على الأشياء .

على مثلها أمضي
وأبكي إلى الغد
مستفعلن فعولُ فعلْ

لم تنسق منيرة وراء مشاعرها بل اختارتها! (حتى لو لم تعترف بذلك) ، لم يبق لها من دور أو مناورة في تلك المرحلة ، مرحلة العجز (الفكري والاجتماعي) ، إلا أن تتوله بالحب ، وأن يكون موضوع الحب هو يوسف (الرجل المتزوج المستحيل) ولا أحد سواه!

لقد حولت حياتها إلى قصيدة عربية ، وأرادت أن تصنع من تلك البنى المنفصلة المكرورة اتصالا ينشأ من ذاتها . لو أرادت منيرة أن تعيد توزيع أبيات حياتها لوجدت أنها تتحلل باستمرار إلى بنى صغيرة في قصيدة إيقاعية تعتمد على التشطير والتكرار ، وتقوم على التناوب والتعاقب والإقفال المدور ؛ فالنهاية بداية ، والتجديد إعادة ، والثورة استئناف .

كان الوزن في قصيدة حياتها مرتهناً لبحر (الكامل) ، فالتناغم كان غاية من غاياتها . كانت قصيدة التفعيلة أكثر حظا من سواها ؛ فهي برغم اختلافها إلا أنها خضعت للذوق العربي ذاته في التكرار

والمقابلة اللذين يخلقان الإيقاع . والإيقاع هو خاصية الشعر العربي الأولى!

ظللت بها أبكي وأبكي إلى الغد

غد ما غد ما أقرب اليوم من غد

فعولن مفاعلين فعولن مفاعلن

التكرار يخلق الإيقاع! التكرار يتمثل في المترادف ، وفي النداء ، وفي التشبيهات ، وفي التصوير ، وفي تقارب الأصوات وتشاكلها وانسجام حروفها ، وفي تكرار الوزن والروي في القافية ، وأيضا في تكرار المعاني ، فالقيم الجمالية محددة ، والمعايير منضبطة في كل الأغراض الشعرية ، من مديح وفخر وهجاء وغزل ، بل لقد جعل بعض النقاد العرب القدامى الأغراض الشعرية مرتبطة بميزان عروضي ملائم ؛ فللغزل بحر وللهجاء بحر ، وللرثاء بحر .

الغزل مثلا هو (بالإجماع) : إعلان عن الحب ثم إثبات للصفات المعيارية المعهودة للحبيب ثم الإقرار بالضعف وقلة الحيلة والعجز عن البلوغ المنال .

يجب أن (نقرر) هنا بأن التشبيه والتكرار وإيقاع الاصوات وروح الشعرية ، كل ذلك ، يخضع للعقلية المنتجة للمعنى ولنظام القصيدة العمودية الداخلي . كما بقي(رسم) القصيدة التقليدية ظلت روحها باقية ، وتم الحفاظ على التجربة الشعرية والمحبوبة الأزلية كذلك .

إن الايقاعات (العاطفية) واللغوية البنيوية تتمم الإيقاع (الوزني) في القصيدة التقليدية ، أما في قصيدة النثر فيقع التنافر

عمدا ويلتبس الكل! لا تظنوا بأن الإطار الشكلي للقصيدة العربية يعد مظهرا خارجيا ؛ بل إنه إيقاع داخلي يسيطر على البنية اللغوية صرفا ونحوا وصوتا ، إنه المخيلة والتصوير والإيقاع العاطفي والمعنى . القصيدة هي عالم الشاعر وفضاؤه ومعاييره ، ولذلك فإن قصيدة النثر (الحداثية) تبدو غالبا بلا شكل ولا معنى! حداثة بلا ملامح ولا أفق! عانت القصيدة عجزا قاتلا عندما ابتدعت الحداثة عنوة ، عبر قشرة خارجية ، وأصبحت القصائد نصوصا مغلقة بلا مفاتيح لا يكاد يتذوقها قارىء ولا يفك طلاسمها ناقد ، وعندما فتح مصراع القراءات المتعددة لم تجد تلك النصوص قراءة واحدة!

ذهبت قصيدة النثر (كما سميت) تخترق تقاليد الشعر (ولاسيما الأوزان العروضية التقليدية) ؛ فانتثرت الكلمات بلا قالب ، وامتلأ الشعر بجمل اعتباطية تتصف بثقل الأصوات وتنافر المخارج ، وتوالي المترادفات ، وتهافت التشبيهات البعيدة!

لم يتوصل المجددون إلى ماهية (الروح النثرية) ، بينما تعجلوا كتم أنفاس الشعرية . وعندما تخلت قصيدة النثر عن التصور القائم للعالم لم تستبدله بتصور آخر مكافىء . لم يتحول الشعر إلى النثرية لأنه لم يكن ثمة نص في النص!عندما تخلى الشعر عن تفعيلته وأصبح «كلاما» بحتا لم تتضح «وظيفة» ولا «جمالية» ولا «معنى»!!

تذبل القصيدة! يموت الشعر عند أقدام الشعراء صيادي الجوائز في المحافل الغربية المعيارية! بينما انتعشت القصيدة العربية ، في زمن مضى ، في انسجام مع دورها وإيقاعها التاريخي في تيار السياسة والاجتماع ، مستعطية في بلاط الخلفاء والأمراء .

أكان الحب متواطئا مع المرحلة ؟

الحب دائما ملجأ لأصحابه ، مهرب كبير ، كينونة أخرى ؛ لقد غرقت منيرة في الحب في الوقت الذي انصرف فيه أبناؤها إلى خياراتهم الرئيسة التي صنعت مصائرهم . وعلمت منيرة بأن سيطرتها على أولادها خبت فعليا ، بل بدا كما لو أنها لم ترد أن تكون موجودة لكي تتحمل مسئولية أخلاقية لم يكن حريا بها أن تعتقد بأنها ملزمة بتحملها في مواجهة أعاصير «مرحلة» لم يكن أحد قادرا على فهمها أو مواجهتها .

انهمك ابنها القاصر طارق في رحلة التكفير وتجهيل المجتمع ، بعد أن تورط لسنوات مع رفقة سوء زودته بمواد تسبب النشوة والهذيان . كاد أن يدخل السجن لولا تدخل المدعاسي بنفسه . ترك الدراسة الدنيوية والتحق بدروس العلم الشرعي ، عندما اهتدى إلى (لم شعث) نفسه واستدل على طريق «إخوته الأخيار» . كان يتحرى في البدء تحقيق الالتزام ، واستطاعت منيرة أن ترى بأنه يفضل الانعزال ويتحاشى الجلوس معهم جميعا أو حتى الالتقاء بهم ، دخولا وخروجا من البيت ، وكأن مرآهم يؤذيه بشكل خاص . كان يترك لهم في غرفة المعيشة بعض الأذكار والأدعية ، ويضع بعض الملصقات على سياراتهم . أطلق لحيته التي لم تستجب لرغبته ؛ فكانت تبدو للناظر شعيرات متفرقة نافرة بغير انتظام . كان إحساسه بالتقصير والعجز عن المضي أبعد من الخطوة الأولى ينخزه لمسابقة الوقت . يواجه تقصيره الذاتي كلما نظر في وجوه (إخوانه) وعزائمهم في تلك الصباحات الندية ، عندما تغفو عينه بعد تهجد

قصير قبيل الفجر ، ثم يصحو فزعا ليجد أحمد وعبد الرحمن قد اغتسلا وجلسا يتذاكران في (رياض الصالحين) .

كانوا يخرجون كل جماعة بأميرها إلى قرية من قرى الشمال ، ويبيتون في العراء إذا لم يجدوا مصلى قديما يؤويهم ، يحملون معهم بعض المعلبات والتمر والماء . وجد طارق في إخوانه الصحبة والأواصر القوية والاكتفاء . في النهار بعد توزيع العمل بينهم كانوا يخرجون إلى البيوت القلائل حولهم ؛ فيطرقون الأبواب يحملون بعض الكتيبات والمطويات ، ويتحدثون بنصح ومحبة إلى من يجدونه . ولم تخل حياتهم تماما من المقالب والممازحة ؛ فقد كانوا شبابا بين السادسة عشر والعشرين ، ولم تخل من لحظات خشوع وأثرة وتفان .

كانت منيرة تجد تلك كل التصرفات أقرب إلى سلوك المراهقين منها إلى ظروف التعبئة الدعوية ، ولم تحفل كثيرا بما يقوم به ما دام يرضيه ويلهيه عن رفاق السوء . وكانت حياتها خالية آنذاك إلا من يوسف ، في الوقت الذي لم تكن مهامها كأم قد لفتت نظرها ، كما لم تكن ظروف المجتمع تسمح لأفراده وجماعاته بمزاولة أي نشاط اجتماعي ، ولم تستطع أن تنجز أي بحث أو تحقق ذاتها في نطاق الأستاذية المقيدة في نطاق الجامعة الوطنية . وإذا كانت الأمور تجري بمقاديرها وقوانينها غير المنطقية في تباه مضحك يوحي بتمام الكمال والاستقرار ، فهل ينبغي على منيرة أن تكترث بأي شيء؟ وما يمنعها أن تقهر خوفها مما حولها وتقهر عجزها؟ لقد كان الحب هو وسيلتها الوحيدة لمقاومة عزلتها وفنائها اليومي .

الأخضر الأخضر الأخضر

لقد كانت الصحوة بالنسبة لمنيرة (التي التحقت بركابها في التسعينيات) تكفيرا تعيشه آلامة بأكملها ، لاسيما مثقفوها ونخبتها ، أولئك الذين تنكبوا التواصل مع موروثهم ومالوا إلى القطيعة معه . وكانت حرب الخليج الثالثة زلزالا لم تنقض توابعه بعد!!

كتب الكثيرون قصصهم وكيف اهتدوا إلى طريق الصحوة ، وكان ذلك أمرا مندوبا شاع وانتشر في المجلات والكتيبات ، وانتقل بعد ذلك بسنوات إلى الصفحات الإلكترونية ، وتناقل البريد الإلكتروني و(القروبات) أعجب القصص وأطرفها وأكثرها عجائبية ، ولكن منيرة أحست بأن قصتها أمر مختلف ، لم تكن قصة ذات بداية ونهاية فقد كانت حياتها كلها محطات وانشعابات .

عندما التحق ابنها القاصر طارق بالصحوة (بطريقته الخاصة) لم يثر ذلك الأمر اهتمامها آنذاك ، بل سخطها في الواقع ، وقد حملته إليها ذات يوم أجهزة الأمن لأنه سجل اسمه ضمن المجاهدين في أفغانستان ، وحاول السفر إلى السعودية . أحست حينئذ بأن غياب الأب كان له أثر مضاعف في عدم استكمال شخصية طارق وقدرته على تحديد خياراته ، ومواجهة الأمور ، ولكنه عندما شب عن الطوق غادر من دون توديعها إلى البوسنة ، وعاد حيا بعد سنة مصابا في فخذه . لم يلجا إليها إلا عندما طلب منها أن تخطب له أخت أحد الشهداء من إخوته المجاهدين ؛ وهي فتاة

صغيرة خجولة لم تكمل تعليمها ، واستقلا بعد زواجهما في بيت صغير في الخور بعيدا عن اسرتيهما . سمعت منيرة من أم حصة أخبارهما فيما يشبه التذمر والعتب (حرم على حصة ادخال تلفزيون أو مذياع) . وعندما أخذت الأم لابنتها غسالة كهربائية أعيدت إليها في اليوم التالي . اصطحب طارق حصة إلى الحج وهي حامل لكي يبدأ رحلتهما الزوجية ، متطهرين من أدران العبودية لعصر استحواذي مزيف . تساءلت منيرة ترى هل تصبر عليه تلك المسكينة أم تخافه ؟ بعد سنوات تزوج طارق بزوجته الثانية ثم الثالثة ، وبقيت حصة على ولائها وطاعتها مستسلمة وراضية حتى كادت منيرة أن تحسدها! لأن القناعة ليست بحجم ما تعطى ولكن بقدر ما تستطيع أن تمنح .

هاجر طارق وزوجاته الثلاث وأولاده . سمعت منيرة بأنهم أقاموا فترة في بريدة ثم انتقلوا إلى سوريا ، حيث تزوج طارق زوجته الرابعة ، ويعيشون جميعا في قرية زراعية بعيدا عن زيوف الحضارة الكافرة التي أفسدت فطرة الإنسان ووعيه .

لا تعذبني!

لو أمكن لهدى أن تسمع أمها الدكتورة منيرة تقول ليوسف مرارا (لا تعذبني) لأدركت أنها حتما محقة إلى حد كبير ، وبصورة غير قابلة للنقاش في الهجرة من الشرق إلى الغرب! وإن كانت تلك الكلمة محملة بعدة معان وتنطوي على كثير من الاحتمالات . ترى هل يتبادل العشاق في إيطاليا أو تايلند أو السويد أو بليجكا أو

باريس تلك العبارة أو حتى مترادفاتها ؟ تعرف منيرة أن يوسفا أحبها حقا ، تعرف ذلك لأنها أخضعته لمئات الاختبارات ، اختبارات حب متنوعة ومريرة يقول يوسف (ألن تكفي يا منيرة ؟ شاب راسي وراسك) ولم تكف حتى افترقا!

شعرت منيرة بصدق بأن يوسفا يعذبها بمجرد وجوده في حياتها ، سواء أكان يحبها كثيرا أم قليلا ، وسواء أكان يمنحها ما تحتاجه أم ما تستحقه .

لم يكن يوسف موجودا حقا في حياتها ، وكان ذلك أكثر ما يعذبها : إنه محض وهم! لكنها تعرف بأنها لا تستطيع العيش من بدون ذلك الوهم الضروري (الذي سيظل وهما) ، ما الذي تأمله أرمل مثلها في مجتمع صغير ومتزمت تصر على الاستمرار في علاقة يائسة ، برجل متزوج ولا ينوي الاقتران بها ، متعللا بأعذار تعرف بطلانها وتعلم ضعفه وهوانها عنده .

إن الإهانة والخزي اللذين تشعر بهما يغطيان حياتها ، ومع ذلك تستعذب ذلك الألم الذي يشعرها به الحب! إنها تحيا به (وإن كانت تحيا في ظل الخوف) ، فهذا بالذات ما يجعل حياتها محسوسة ومثمنة ، وإن كانت لن تحصل على ما تريده لأنها تعلم أن يوسفا لن يفرط قيد أنملة في مكتسباته الزمنية ، بعد سنوات الانطفاء والتعتيم ، وبعد أن عفي عن زلته ومحيت تدريجيا وعاد معافى إلى الأضواء .

لايخفى عليها ولعه بالترقي والوصول بعدما كابده من تهميش واستبعاد ، وبات يتحدث عن منصب كبير يلوح في الأفق . قالت

له منيرة : عندما أسمعك تتحدث عن طموحاتك أتساءل ألا يحق لي أن افتش عن طموحاتي ؟

قال لها بلا تردد : لا تلومي إلا نفسك إذا لم تفعلي ؟

وبمقدم الصيف التالي ازدادت تصرفات يوسف غرابة وحديثه جفافا . كان يتحدث عن البلد والتحولات والفرص الشحيحة ، وأيضا بصورة خاصة عن الأولويات في حياة كل شخص ، فالأولويات هي الشعور الأسمى في سلم المصلحة الشخصية . قال يوسف بأن الأولويات تحكم المرء ، وإلا فإن حياته تكون عبثا بلا طائل إذا امتنع عن التعاطي بحسم مع أولويات حياته! كان يوسف بلا شك يتحدث إلى نفسه ؛ لأن منيرة لم تكن تعلم عم يتحدث! وفيم كل ذلك الهذيان! كان يوسف يعاني ألمه الخاص في اكتشاف الذات وخيبة الأمل التي تصاحب ذلك الاكتشاف عادة! إنه العمر الذي يقف فيه المرء ويقول لنفسه : لست شخصا مميزا ، لست مهما ، لست ما أريد! لم أكن قط ما توهمته عن نفسي ، ولن يشاطره أحد سواه ، تعاسته وقلقه بشأن المدة الباقية من عمره (والتي لا يعلم مدى كفايتها) .

لا يفكر يوسف في الموت إلا لماما! ويخشى عيادة المرضى ، لاسيما في المستشفيات ، ولكنه يرسل ورودا أو حلوى ويتصل بالهاتف ، أما الاشخاص المهمون فإنه يزورهم في البيت مصطحبا ابنه البكر ، كما كان أبوه يصطحبه إلى مجالس الرجال مبكرا . وبرغم تجاوزه الخمسين من عمره فقد كان يوسف معافى من الكرش والأسنان الصفر واعتلال الصحة ، فلم يزل يعتني بصحته ولا

يدخن ولا يعاقر خمرا ، ويمارس الرياضة المشي ، ويهتم بالاطلاع على الكتب الرائجة أو الأقل يقتنيها إذا لم يجد وقتا لقراءتها . لا يهمل يوسف مظهره أبدا وينتقي ملابسه بنفسه ، وينفق بسخاء على المستحضرات الخاصة للعناية بالوجه والاقدام خاصة ، ويحافظ على استقلاليته إذ يعيش في غرفة نوم خاصة به .

كان الحب في حياة يوسف مثل ضوء يسطع على جسد ممثل على خشبة المسرح اثناء تأدية دوره . الحب هو وجوده المزدوج الذي لم يتحقق مع زوجة تنشغل بأمور كثيرة ، تتعلق به ولكن لا تتركز على شخصه! بينما كان الحب في حياة منيرة على العكس تماما ، هو الطريقة المثلى لدفن الذات وإفنائها في شخص آخر (شخص يشعر باستقلالية وتفوق ، وقد يكون فظا وأنانيا وبعيد المنال) ، كان يوسف شخصا من خارج الدائرة المغلقة لأيامها المتعاقبة ، ولكنه كان للمفارقة تعزيزا لعلامة الذل والفشل التي تعيشهما في نفسها ، وفي عملها ، وفي أبنائها ، ماذا كان الحب يضيء ليوسف ؟ يضيء له عتمة نفسه ورغبته في التجدد والسعادة وبلوغ أحلامه! تظن منيرة أن يوسفا قمين بقبولها كما هي ، وما عليها إلا أن تتشبث به لتخرج من سجنها اليومي ، من حفرتها التي حفرتها بنفسها ، وردمت تحت قاعها أحلامها ورغباتها وحزنها! كأن منيرة تعاقب نفسها ، تعاقب أمها وتعاقب أبناءها وتعاقب الجامعة ، وتعاقب الناس الذين تعرفهم ولا تعرفهم! وكأن سعادتها المتاحة أن تمارس حريتها في احتقار وجود الآخرين (لا تستطيع أن تدعي أنها لا تبالي بهم) .

وكـان يوسف خـلاصـا من غـيـابات جب الوحـدة والعـزلة المصمـتة ، في حياة منيرة ، فكيف استـحال إلى مصـدر لخجلها وفجيـعتـها . تمسكت بيوسف حتى في أشـد أطوار حبها عتمة وضيقا ، وتشبثت به بالرغم من كل المعترضات ، فكيف تحول الحب ذاته إلى عارها ومحنتها .

لطالما قالت لنفسها بأنها محظوظة بوجود يوسف في أيامها وشهورها ، وبالرغم من أن أحدا لم يكن يعلم بعلاقتها بيوسف إلا أنها شعرت بأنها محسودة على ذلك الفرح والبهجة في حياتها . انه الحسد الذي تعكسه نظرات الاستغراب إلى سعادتها المجهولة التي تملؤها من الداخل . كانت منيرة تملك ما لا يملكونه ، في الحقيقة يجدر بي أن أقول ما لا يستطاع امتلاكه .

يوسف بن عمران

لا يستطيع يوسف أنّ يحدد ما الذي وقف في طريق نجاحه الشخصي ؛ لأنه لم يكن يوما يعترف بالمصادفة! يؤمن بالمثابرة والانضباط والقصدية ، بوصفه فردا مثقفا وعمليا ، وبوصفه غير قادر على قبول الفشل لأنه يتمتع بكل معطيات النجاح . لقد تزوج من ابنة شخصية مرموقة ، الوجيه ابن جرجور ، حوت في السوق ومقرب مَن السلطة . ولم يخب ظنه اذ تقلد نسيبه رئاسة مجلس الشورى ، ثم ترأس غرفة التجارة لعدة سنوات! اهتم يوسف دائما بسمعته وحسن تصرفاته حيثما حل ، وكان حريصا على مخالطة الأشخاص المهمين منذ كان في المرحلة الثانوية ؛ فقد علمه أبوه بأن

الشخص ترفعه المعارف (أو تخفض من مستواه) . يوسف لم يكن متزلفا منافقا ولكنه كان متحوطا انتقائيا ، وكان عدوا للمصادفة أينما أطلت برأسها نحاها جانبا بمثابرته وذكائه وعلاقاته . ولكن هل يسع المرء مهما كان حريصا ألا يقع في الزلل ؟ كانت هناك بعض (الزلات) المغفورة سلفا ، وقد محيت بفضل نسيبه من تاريخه الشخصي ، ولكن أخطاء أخرى قدرية تماما لم يستطع حتى عمه أن يجنبه آثارها الوخيمة . وكان يوسف إيجابيا في تقديره لذاته ، بيد أن الآخرين يملكون غالبا تقرير المصير!

توفي أبوه فجأة ، وكان زعيم العائلة ، فانتقلت الزعامة بنفوذها وامتيازاتها وتأثيرها المعنوي إلى بيت عمه ، الذي لم يبرح يلومه لأنه لم يتزوج ابنته (وفي ذلك إشارة إلى رفضه الانتماء إلى بيت عمه ومصالحه) ، كما أن يوسف كان مترفعا أكثر من أبناء العائلة الآخرين . وبعد زواجه من بنت الوجيه ابن جرجور عاش وزوجته وبناته متحررا من بعض القيود الاجتماعية التي لم ترض عمه (العود) . في تلك الفترة وقعت الحادثة المشؤومة ؛ إذ وجد يوسف نفسه متورطا في صحبة (مجموعة) من الشباب جمعتهم المعرفة والصداقة والجلسات . كاشفه بعضهم بالعزم على رفع كتاب رسمي إلى مقام ولي العهد ، بخصوص الكشف عن تلاعبات مالية واختلاسات كبيرة تورطت فيها شخصيات كبيرة في وزارة المالية . لم ينس يوسف تلك الأوقات العصيبة التي حوصر فيها كفأر في آخر الدهليز (وحينذاك لعبت المصادفة بمصيره!) وجد نفسه في جلسة تحولت إلى اجتماع ، يتبادل أفراده - من دون استشارته-

مستندات تم تصويرها بسرية تامة ، تكشف عن اختلاسات وصفقات صورية بمبالغ ذات أصفار عشرية . لم يستطع يوسف الانسلال بعيدا ببساطة ، وكلما تردد وتراخى ازداد اطلاعه واضطلاعه معهم في الأمر ، لأول وهلة أقنع نفسه بأن غايتهم المصلحة العامة ، وأنهم لا يريدون إثارة فضيحة علنية بل تقديم المسألة أمام ولي الأمر فحسب ، ظن يوسف بأن المسألة لن تعدو تسجيل موقف لجماعة نظيفة تنفذ عمليا ما تعهدت به ضمنا من الولاء للنظام ومصالحه . فأين الخطأ فيما أقدموا عليه ؟ لقد أخطأوا لأنهم ما كان يجب أن يعلموا بما علموا! وكان يجب عليهم أن يتظاهروا بأنهم لم يعلموا! وكان عليهم أن يفطنوا إلى أن ما علموه هو معلوم بالضرورة من باب أولى بمن هم أعلى منهم مقاما ، وألا يسعوا بالوقيعة بين جهات عليا تعتني بكفة التوازن أكثر من اكتراثها بكفة النزاهة والأمانة .

ليس مهما أن الاختلاسات كانت ثابتة وفادحة ومريعة ، بمقدار ما كانت الجماعة متورطة في اجتماعات تنظيمية تآمرية غير مشروعة ، وقد يكون وراءها غالبا فكر تخريبي معارض ، كما شككت المخابرات العامة في احتمال وجود طرف خفي خارجي . لم يكن من المستطاع حقا تحديد حصرا المستفيدين من المبالغ المختلسة ومراتبهم وحجم ردود أفعالهم .

تلاحقت أحداث تنذر بوضع كارثي لمصير المجموعة ؛ فقد طوردت سيارة سالم (المشتبه به الرئيسي ومحرك المجموعة ومنسقها العام) من قبل سيارة مسرعة اضطرته إلى الانحراف عن الشارع ،

ولولا العناية الإلهية للقي مصرعه مصطدما بعامود إنارة على الرصيف المقابل! لم يعلم يوسف بالأمر في حينه ، إلا أنه كان متوخيا الحذر بطبعه ، ومتحاشيا أي اتصال جديد بتلك المجموعة المنبوذة ، استدعي أخيرا بعد ثلاثة أيام من الانتظار القاتل . بعد كل ذلك الانتظار كان يوسف مستعدا للإفصاح عن كل ما عنده من معلومات ، وحريصاً على التعاون لاسيما بذكر كل ما لا يدينه أو يعرض مصلحته للخطر ، أجري معه تحقيق مفصل لمدة يوم كامل ، وتعاقب عليه ثلاثة محققين . كان يوسف رجلا عمليا لا تمثل له المبادىء صخورا صماء ، ولكنها بالأحرى أشبه بإشارات ضوئية تفتح وتغلق بحسب قواعد تنظيمية . أوضح يوسف موقفه في التحقيق بلا لبس ؛ فهو لم يطلع على كامل الصورة ، ولم يحضر كل الاجتماعات ، وقد كان موقفه من هذه المجموعة منذ البداية متأرجحا وغير ملتزم ، قال بأنه تم إقناعه بأن الأمر يتعلق بالمصلحة العامة مؤكدا بأنه لم يتطوع للحضور ، وأكد على جانب الغفلة والجهل وعامل حسن النية ، وإن كان ذلك لا يعفيه من المسؤولية ، ودعم كلامه بأن اسمه موجود في ذيل القائمة . لم يكذب يوسف فيما أدلى به من معلومات ؛ فقد كان مترددا ويؤخر قراره النهائي ، ولكنه لم يستطع ألا يوقع ، فالجميع قد سبقه ، لم يستطع يوسف أن يتخلف عما استقر عليه رأي المجموعة ، لم تسمح له كرامته بالتنصل (وكان ثمة احتمال أن تلقى تلك الخطوة حظوة في عين ولي الأمر لأن مدار الأمر هو الإصلاح والتصحيح) . ولكنه الآن مضطر أمام المحقق أن يدافع عن نفسه بقوله إن المسالة برأيه عقيم ،

ولم يكن محبذا لذلك التصرف الأخرق الذي أصر عليه ثلاثة من المجموعة ، آنس منهم إصرارا وتواطؤا على احتكار القرار بينهم . لم تكن المجموعة متحمسة بدورها لضم يوسف إليها إلا أنهم شعروا بأهمية حشد أكبر عدد من الأسماء ومن عائلات متعددة قوية وكبيرة وذات عزوة (من باب الاحتياط وتعزيز موقفها) .

لم يعلم بأمر تلك (السالفة) إلا القليل من الطبقة المخملية العليا ، التي تناقلت الخبر بسرية وفي نطاق ضيق ثم نشرت ، بعد مدة ، صحيفة بريطانية جانبا من الخبر ، وقامت إدارة الرقابة الحكومية بمصادرة جميع نسخ العدد الذي وصل البلاد (وهي نسخ معدودة) ، ثم أفرجت عنها بعد تمزيق الخبر من كل النسخ من ذلك العدد الذي سمح بتداوله (مع ثقب مربع في الصفحة الثانية) بعد ثلاثة أيام من الصدور . لم يكن ثمة هناك قنوات فضائية أو انترنت مستخدم في البلاد العربية كلها في ذلك الوقت . اعتبرت تلك المبادرة غير المحمودة نشاطا سياسيا بالدرجة الأولى قامت به مجموعة سفيهة ، وجرى نبش السجلات الشخصية لأصحابها ، وتم التحقيق معهم بشأن انتماءاتهم وغاياتهم وسائر تحركاتهم .سجن عدد من أفراد المجموعة أثبت التحقيق ضلوعهم في جريمة تصوير مستندات رسمية والحصول عليها من طريق غير شرعي ، وأفرج عن باقي الموقعين على الوثيقة التي سميت الوثيقة (١١) ، وتفرق أعضاء المجموعة بعد التوقيع على تعهدات . لزم يوسف بيته أياما وليالي موقنا بأنه مراقب ، متوجسا من كل طرق على الباب أو رنين هاتف . لم يتصل به أحد وتحاشى الزملاء

والمعارف الاتصال به ، وأفرد إفراد البعير الأجرب .

أوقف البعض عن العمل ، ورمي يوسف إلى ادارة مهملة ، بينما نال البعض تخفيضا في الدرجات الوظيفية ، وحرموا من امتيازات وحقوق مدنية كالإسكان الحكومي . هل أدركوا الآن بأنهم أقدموا على خيار خاطئ ؟

حصل يوسف على الدكتوراة من جامعة عربية ، ولكن لم يتغير وضعه ، فلم يزل في الكرسي نفسه في إدارة باهتة خالية معظم الوقت من موظفيها المتسربين ، وبقي لخمس سنوات ملازما لمكتبه منعزلا تماما عن زملاء منحوا دورات وترقوا وغادروا .

في تلك الفترة أطلق يوسف لحيته لأنه كان عازفا عن القيام بأي مجهود ، وربما احتجاجا خفيا على وضعه المجمد . كان ينتابه النعاس في أوقات الدوام بشكل مرضي ، حتى إن فناجين القهوة ومطالعة الصحف لم تستطع إبقاءه يقظا . رفع اسمه مرتين بوصفه خبرة يمكن الاستفاده منها ، ورجعت الأوراق من دون تعليق ، لم يزل مغضوبا عليه! أراد مرارا أن يتظلم غير ان نسيبه ابن جرجور أشار عليه بالصبر فلم يئن الأوان بعد .

لم يحمل اليه التصالح مع وضعه الا علاقته بمنيرة ، وكان مضطرا في لقاءاتهما الأولى إلى تلخيص حياته في (مشكلته) تلك مع السلطة ؛ ليبين لها معاناته ومدى عزلته ، وكيف كانت حياته تعيسة لأنه وقع (ضحية) لواقع وظروف أجبرتاه على الاستسلام (وليس بالضرورة الانهزام) ، لشروط جبرية والقبول بالأمر الواقع ؛ لأن قدراته الحقيقية لم تعد مرئية ولا مثمنة .

تلك الحادثة القديمة المؤسفة ذاتها أصبح يوسف يعدها اليوم مأثرة في حياته ، عندما يأتي على ذكر تاريخه (النضالي) ضد الفساد ، حتى انه في مداخلة فردية في ندوة عامة حول بشائر الديمقراطية في البلاد ، وقف وقال ما نشر (بعضه) في الصحف في اليوم التالي قال : (واجهت التحقيق وكدت أزج في السجن لكنني كنت مستعدا لدفع الثمن) ، علينا أن ندرك أنه كان على يوسف استغلال ما حدث مع والتلاعب في بعض التفاصيل (لأنه دفع الثمن بالفعل سنين من التهميش والإقصاء) ، وإلا فإنه يقيّم الحادثة في قرارة نفسه بأنها عمل من أعمال الطيش وتغييب العقل . ألم تجازف المجموعة بمستقبلها ؟ وما الذي غنمته ؟ لاشيء!

كانت الدكتورة منيرة تضفر آلامها كلما خلت إلى نفسها ، تخرج تلك الحكايا والسوالف البعيدة ، ويكتسي ليلها بحلكة أقوى بمرور الزمن . لم يتبق شيء للدكتورة منيرة غير الذكريات المتكثرة المختلطة ، والتجارب المبتسرة ، والفشل الذي انتهت به كل مشاويرها في الحياة!

في السنة الدراسية الأولى في القاهرة كانت منيرة تظن بأنها سوف تصعّد وعيها الطبقي ، وفي حموة إحساسها بأنها تتغلغل في نسيج الحياة الكادحة لآلاف العمال المصريين الغلابى ؛ قررت منيرة أن تزاحم الطبقة الكادحة في ركوب الأتوبيس ، معجونة في عرق واسمال الملايات والجلابيات السود لنسوة مكفهرات الوجه جاحظات الأعين ، ولم تسلم في رحلتها من شارع الجامعة إلى مشارف جاردن سيتي من التعرض للسرقة وسوء المعاملة . ترجلت

من الاتوبيس لتذهب إلى زيارة (الدكتور) كما كان يدعونه مريدوه . تخلع كل مخاوفها حالما تدلف إلى شقة جميلة مشعة بالضوء ورائحة الكتب . لم تكن هي المرأة المثقفة الذكية تسأل نفسها لماذا تتشعبط في الأتوبيس ، بينما يسكن الدكتور خالد في شقته المطلة على النيل وهو المعتقل السياسي المطرود من بلده ؟

لم تكن تلك إلا أمورا ثانوية (مسوغة بأسبابها) ، لاسيما أن منيرة لم تكن ترى العالم آنذاك ميكانيكيا وميئوسا منه .

هذه المنيرة هي ذاتها التي انقلبت إلى إحدى (الأخوات) ، ورأت في أيام القاهرة تجربة خاسرة ، وهي منيرة ذاتها التي اندفعت في ماراثون التوبة إلى آخر الجهد ، متماهية مع كامل خطاب الصحوة بكل حديته وانغلاقه وغلوه! كان ذلك أيضا بالنسبة إليها أمرا مسوغا بأسبابه ، وحتميا إلى حد ما (فرضته طبيعة المرحلة ودواعيها) .

كان الدكتور خالد يسارياً يستثمر (نضاله) السياسي الذي خاضه في الستينيات ، ودفع ثمنه سنوات من الملاحقة والسجن واختار منفاه في القاهرة . اعتاد الدكتور الذي وخط الشيب فوديه أن يقول بجلال وهيبة : إن اليسار هو حائط الصد والمقاومة الذي يواجه نظام السادات .

استدعاها الملحق التعليمي في اليوم التالي . سألها عن أحوالها وعن أمها ومواعيدها ، وأخبرها بأن اهله سكنوا المرقاب أيضا لسنوات ويعرف إخوتها ، لكنه لم يلحق على أبيها رحمه الله ، ويعرف نسيبهم الوجيه المدعاسي ثم سألها بغتة :

- ماذا كنت تفعلين البارحة في شقة الدكتور خالد؟

- أنت تراقبني ؟

- هل تعرفين يا بنت الناس من هو هذا (الدكتور) ؟ شقته مراقبة ٢٤ ساعة ، والرجل مشبوه وعلى قاب قوسين من الإبعاد!

- احنا في القاهرة ولسنا في الدوحة! هل يحاسب الناس على اختياراتهم الفكرية ، هل أصبح من مهام الملحقية مراقبة الطلبة والتفتيش في أفكارهم ؟

- احنا كلنا أهل يا منيرة . والملحقية كما تقولين ما لها سلطة هنا ، وما تقدر تتدخل في قضايا الآداب!

- ما هذا الكلام يا بو علي ؟

- اقول من يدري متى تحصل مداهمات للشقق المشبوهة ، ومن يتطوع بتقديم بلاغات ، وبناتنا سمعتهن غالية ونحرص عليهن!

تلقت منيرة الرسالة وفهمتها فامتنعت عن ارتياد الأماكن (المشبوهة) .

لو كان الحب حبا!

الحب حال من الجنون المؤقت! هكذا تنظر اليه منيرة . أي تعاسة! أي كارثة إلا ترتد عاطفة الحب نحو صاحبها بإشباع (مؤقت أو جزئي أو مأمول أو موعود به) ، ما المكافاة أو البديل الذي يحصل عليه الحب التعيس من طرف واحد ؟ تحول الحب في فلسفة منيرة إلى قيمة في ذاته ، بقطع النظر عن موضوعه ، مثلما ينشد الشعراء قصائد في محبوبات مثاليات ومتخيلات في قصص

مستوحاة مما حولهم أو من نسج الخيال .

أن يكون المرء محبا (ولكن ليس محبوبا بالقدر نفسه) فإن في ذلك الموقف غاية الإذلال وقمة الهوان ، ولذلك ينتحل المذل المهان موقفا استيهاميا بأنه الطرف الأكثر سلطة وهيمنة ، ويتحرى إيقاع الضرر بالطرف الآخر ؛ لأن ذلك معناه اعتدال كفة الميزان . لابد أن يلجأ إلى افتعال شجار أو قطيعة ، في كل حين ، لكي يجذب انتباه الآخر ، فضلا عن أن يثبت لنفسه بأنه يسيطر على الموقف! جوزيت الدكتورة منيرة بالجحود طوال حياتها ومن قبل جميع الأطراف : أبنائها وزملائها! ولم تستطع أن تنتزع التقدير من أمها أو زوجها أو حتى يوسف ، هل عليها أن تسعى لإثبات نفسها اليوم وقد أوفت على الستين عاما .

لقد جعلت مكابداتها الشخصية من علاقتها بيوسف ميدانا لإثبات شيء لنفسها ، من خلال اعتراف الآخر به . اليوم لن يكون الطرف الآخر فردا بل الرأي العام الأخرق لمجتمعها المتقلب !

لو كان الحب حبا!

هل تحل إشكالية الغرام إشكالية الوجود القلق للفرد المنعزل المغبون ؟ هل تحل إشكاليةٌ إشكاليةً أخرى ؟ وكان ذلك الغرام المشبوب صورة تجسد بأوجاعها انفعالات الوحدة والعزلة ، برغبتها وسعيها اليائس إلى الاندماج والامتزاج بين ذاتين تعيستين ناقصتين (وغير قابلتين للامتزاج) . شعرت منيرة لسنوات بتعاسة وبؤس بسبب علاقتها المذلة بيوسف . ليت الحب - موضوعا أو شخصا - يتعلق بطموح معين ؛ لكن منيرة تعلم بأنها لم تكن

لترتقي إلى مكانة أرفع مما هي عليه بحبها البائس ليوسف ، ولم تكن لتحقق أي مقصد بذلك التعلق الأخرق بشخص مثل يوسف ، وحتى لو كانت تفكر بالسعادة فأين هي تلك السعادة ؟

تبحث المرأة المثقفة عن حبها لنفسها في حبها لشخص آخر ترى فيه أناها النموذجية الأفضل! فهل تعدم المرأة المثقفة الثقة بنفسها إلى درجة أنها تفشل في التحقق بلا قرين ، أم أنها تتحايل على واقعها المسدود فحسب ؟ سيان! لأنها ليست في نهاية المطاف سوى شيء ناقص!

الجزء الرابع

الأعراف

قال ابن كثير :

اختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف ، من هم؟ وكلها قريبة ، ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم .

تنظر إلى أمها

لم تجر الأمور تماما كما حكتها هدى لأمها! كانت الوقائع غير قابلة للقص ، فهي لم تمض في وتيرة سببية أو منطقية يستتبع بعضها بعضا! لقد حدثت أمور كثيرة وتدخلت اعتبارات أخرى غير تلك التي ركزت عليها هدى في حديثها لأمها عن جون . تشعر هدى بأن أمها تحمل عقلية قديمة ؛ لأن العقلية القديمة وحدها هي التي تمضي في تصور أشياء مبتذلة و(بائخة) على أنها حقيقية وفعالة ، تعالج أمها الأمور بقدر زائد من الحماسة والانفعال! رأت هدى في أفكار أمها تصنعاً ، وفي أسلوب حياتها وكيفية تعاملها مع الوقائع والأحداث قدراً كبيراً من الارتجالية والتذبذب . ربما أخطأت هدى فهم دوافع أمها ؛ فقد كانت منيرة تتكيء على حافة قبرها الفكري والمعنوي ، مدركة بأنها مقاتل وصل متأخرا إلى ساحة

القتال ، وكان يفضل أن يخرج محمولا على نقالة في أولها!

ماذا تعني روح التسويات المخيمة على مجمل العصر ؟ تعني إنهاء عصر الملحمية والتراجيديا البطولية ، والحماسة والنخبوية ؛ أي كل الجودة الشعرية ، وكل القيم التي مجدت الحياة وكرمت وجود الفرد في القرون الجاهلية وبعد ظهور الإسلام ، وحتى لحظة وقوف بونابرت على أبواب مصر القرن التاسع عشر .

فهو أول من أعلن قرع طبول العولمة .

كما تجلدت منيرة وتجملت بالصبر لكي تحتمل وجود أمها في حياتها ، لاسيما أثناء دراستها في القاهرة ، تجلدت هدى ولكن بقدر أقل من الصبر والتكلف ، وسمحت لأمها بهامش ضيق من الحضور في شبكة علاقاتها ومعارفها الاجتماعية ، ووقع التصادم وشيكا عندما تولت هدى إدارة حملة أمها الانتخابية لعضوية مجلس الشورى . كانت المرأتان تقفان على طرفي نقيض في حملة انتخابية واحدة ، وكأنما كانت الأم تتعمد استبعاد نصائح ابنتها ، فما توصي به هدى تعده منيرة غير ضروري أو غير مؤثر ، وما كانت تكتبه منيرة في زاوية أسبوعية صحفية على هامش ترشحها للعضوية تعده هدى محبطا وغير موجه . أرادت منيرة أن توجه هدى كل اهتمامها نحو الآليات الدعائية والعلاقات العامة (مثل صور الإعلانات وترتيب الموائد في الخيمة الانتخابية ، ودعوة الضيوف المهمين واستقبالهم وتسجيل الملاحظات العامة على سير الأمور ، والتعاون مع مفاتيحها الانتخابية) ، وطلبت منه مرارا أن تترك لها سائر القرارات بشأن ما يتعلق بطبيعة برنامجها الانتخابي

وتفاصيله ، ولكن هدى «تفهم الأمر بالمقلوب» ، تقول بأنه ينبغي أن «يتناغم الإطاران» في كل من البرنامج الانتخابي مع صيغة البرنامج الدعائي ، بل أصبحت تتدخل في صلب البرنامج الانتخابي ، وتطلب من أمها أن تحرر بنوداً من التقييد لتصبح مرنة وقابلة للتحوير بحسب الظروف بل أصبحت تتدخل في مقالاتها وفي ظهورها العام وكيفيته .

ترى هدى بأن الانتخابات إجمالا تعتمد على جانب السذاجة السياسية لدى الناخبين .

نصحت أمها باحترام التداول الشعبي للمصطلحات ؛ لكيلا تتباين أطروحاتها مع فهم الجمهور المتلقي!

تعتقد هدى بأنه لابد للمرشح من التوصل إلى فهم عقلية الناخبين وانطباعاتهم السطحية وتصوراتهم ؛ لكي يحسن استغلالها ما دامت موجودة ومتمكنة ، لا أن ينشغل - بمثالية - بإمكانية تغييرها أو تعديلها! فالمرشح ليس منظراً في قاعة درس ولا مصلحاً اجتماعياً ، ومهمته هي كسب الأصوات لا تغيير المفاهيم!

ثقافة الناس ومطالبهم وجهالتهم أمر واقع! لابد من اعتباره والتصرف بمقتضاه لأنه يحدد الأرضية التي يسير عليها المرشح في حملته . تحاول أمها بذلك الظهور «الفضائي» وتلك المقالات شديدة الوقع أن تبدو كمن يطرح فكراً مغايراً في الوقت غير الملائم ؛ فالانتخابات هي وقت التماثل والبحث عما يريده الناخب في «صورة» المرشح ، وليس ما ينبغي أن يكون عليه الناخب في عين المرشح المتطلب!

تعرف كلتا المرأتين أن ثمة مناخاً يضطهد الفكر الحر في المجتمع ؛ لذلك يجب ألا يسعى المرشح إلى تصنيف نفسه إلا إلى الخير المطلق (وأن يكون ضمن التصنيف «الصحيح» في كل مرحلة) .

ولا يتعلق الأمر بالانتهازية الميكافيلية ؛ بل بحسن قراءة النسق الثقافي السائد والتوافق معه . لن يصنفك أحد في تلك الأجواء بصورة (توصيفية) فحسب!

ليس لكل شخص أن يختار لنفسه توجهاته بل إن التصنيف(قيمي) وجبري يطبقه الآخرون عليك ، ويقع بين خانتي الخير والشر ولا ثالث لهما .

يجب على المرشح الذكي ألا يطرح نفسه من خلال صورة محددة ؛ بل عليه أن يروج لنفسه باعتباره مرشح الجميع! إن الثنائية الماوية التي تسيطر على أمها لا تكاد تدع مجالا للمناورة! في حين أن العمل البرلماني -في اعتقادها- يعتمد بصورة رئيسية على إمكانية مفتوحة لعقد الصفقات والتنازلات ، وبقدر ما يمكنك ان تتنازل عما يجدر التخلي عنه فسوف تحقق تقدماً في تكثير الغنم وتقليل الغرم .

كان لابد لإحداهما أن تتنازل أو تنسحب!

لم ترد منيرة ان تعهد بالحملة إلى هدى إلا لكي تعطل زواجها من جون ريثما تنتهي الانتخابات ؛ فقد خشيت منيرة من تأثير خبر إعلان خطوبة هدى لجون ، ومدى تاثير ذلك سلبا على حظوظها الانتخابية .

وكذلك رضخت لاعتبارات مالية ؛ فقد استفادت من الدعم السخي الذي تبرع به مركز الخبرة والدراسات الاستراتيجية المؤسس شراكة بين جون وهدى وأخيها عبد الله . كان من الصعب عدم استغلال تلك التسهيلات لإنجاح الحملة التي واجهت منافسة شرسة في الدائرة التي ترشحت منيرة عنها . كانت الحملة الانتخابية آخر تواصل بين المرأتين ؛ الأم وابنتها ، والتي انتهت على نحو مؤسف بانسحاب منيرة من الانتخابات ، على إثر اشاعة من بعض خصومها بأنها علمانية ، وأصبح يتنوقل عنها في المجالس والمواقع الإلكترونية بأنها ملحدة أيضا (!!) .

شهدت خيمتها الانتخابية بعدها هبوطا كبيرا في معدل الحضور ، ولم يبق على موعد الاقتراع سوى عشرة أيام . تيقنت منيرة بأن ذلك الأمر سوف يتطلب جهدا شخصيا بالغا ، وتكثيف اللقاءات والزيارات والظهور ، فضلا عن ضخ مبالغ إضافية للإنفاق على الدعاية المضادة ، اختارت منيرة شرف الانسحاب من الانتخابات على أن توسم بالهزيمة الصريحة! .

أبرم جون وهدى زواجهما ، وكانت هدى مرتبطة بجون مالياً وعملياً ؛ فقد خططا بالفعل لإقامتهما في شقة جميلة راقية في أحد أبراج (لوسيل) بالقرب من مقر مركزهما .

لم تغفل منيرة عن الجانب المضيء من مسألة استقلالية أبنائها ؛ لأنها أدركت - على مضض - أنهم لا يلتفتون وراءهم ولا يحتاجون إلى نصحها أو معونتها . لقد مضوا في حياتهم ويتعين عليهم أن يتحملوا نتائج خياراتهم! لا يمكنها وقد تجاوزت مرحلة

الكهولة من عمرها أن تطيل أمد تلك المعركة الخاسرة فيما قد يسمى «الصراع بين الأجيال» ؛ وهي تحس بارتياح لأنها لن تعيش طويلا لكي تشهد أو تشاطرهم في تحمل ما سوف تسفر عنه الأيام من عواقب وخيبات مبيتة .

اقتنعت هدى بأن عقلية أمها باتت قديمة ولكن ما معنى قديمة؟ هل كانت هدى ذاتها تملك عقلية جديدة ؟ هل كانت هدى تحفل أصلاً بالتفكير إلا بوصفه ميكانيكية قصدية لفهم ما يجري من حولها! لم يجل بخاطر هدى أنها ربما كانت تمثل الشيء المبتذل نفسه بوجهه الآخر ، والذي كان يميز روح ذلك العصر : التصالح المجاني غير القابل للتسويغ .

اشمأزت الدكتورة منيرة من ذلك العصر ؛ أما هدى فقد استغرقت فيه دون أن تسعى إلى الحصول على أي دراية بمسائله وأسئلته . لم تستطع منيرة أن تنصرف عن همها الرئيسي وهو السيطرة على سوداويتها باصطياد معنى أو هدف لحياتها ، ولكنها في نهاية الأمر كانت عاجزة عن أن تحيا بصورة طبيعية ؛ لم تستطع أن تخضع لإيقاع الحياة الفج ، مثل أولئك الذين يقعون بسهولة واستسلام تحت قهر التفاؤل و«زقزقة العصافير»! ويستسلمون لدوغمائية الإعلانات ولعبة احتفالية الحياة ومشتهياتها الفانية .

قالت منيرة ليوسف مرة :

- الأوهام تحرك جبالا وأجيالا! يكفي أنها تمنحني العزم على النهوض يوميا من سريري .

عندما يندلع شجار بين منيرة وابنتها حول اختلافهما بشأن

موضوع أو فكرة أو حتى خبر فإن كثيرا من الأمور تخرج إلى السطح من قبو ذكرياتهما معا . لن تقر إحداهما للأخرى بأنها على حق لأن ذلك معناه أن طريقتها هي واختيارها في الحياة لم يكن صائبا .

يجب أن نعرف بأن الدكتورة منيرة مقتنعة بأن هناك مثلاً عليا ومعايير مطلقة هي أثمن قيمة وأرفع مستوى من طريقة أي منا في حياته ، بل من الحياة الإنسانية كلها! بينما ترى هدى أن حياة كل فرد تمثل دستوراً شخصياً وأن قيمه تخصه وحده ولا تلزم غيره بأي شيء . تستهجن هدى أن يكون شخصاً ما أو عقيدة من العقائد أو قرناً من القرون مالكا للحقيقة محتكرا لها . كانت منيرة ترد عليها وهي تضحك أحيانا : وهل هناك حقيقة أمام هذا الجيل ؟

تخشى منيرة فقدان الشعور بامتلاك الحقيقة ، لأنه مساو لفقدان الذات . والثقافة في نظرها هي مشروع (الأنا) الأكبر التي تمتلك حقيقتها . هل كانت هدى على رأس جيل يفقد ثقافته وهويته ومستقبله ؟ جيل لا يملك (هوس) البحث عن الحقيقة! فكيف له أن يتأهل لدخول حلبة التنافس في سباق التاريخ؟

لا ، لن يشعر ذلك الجيل بالرغبة في التغيير أو على الأقل سيكون الأمر بالنسبة اليه أقل تحريضية ، وسيتحول إلى خط متعرج يحاول التملص فحسب مما يمليه عليه الآخرون ، من دون أن يقصد غاية معروفة .

تشعر منيرة بأن امتلاك الحقيقة هو الشرط الأبدي للتغيير ، ذلك ما قد مارسته منيرة! وما أقدمت عليه الأجيال التي ضمت ألوفا مؤلفة من الشباب الذين طلعت عليهم الشمس ذاتها ، وهم

يملؤون الساحات ويحملون في أياديهم مشاعل أو سيوفا أو معاول أو يافطات ، ولكنهم جميعا على مر العصور وقفوا مع قرع الطبول تحت رايات مختلفة ، مهما كانت انتماءاتهم وملابسهم ولغاتهم وسحنهم ومطالبهم الظرفية ، وكانوا جميعا يسعون إلى تبرير وجودهم ، وإلى دحض العدمية والمعاناة ، وكانوا جميعا بلا استثناء يظنون بأنهم امتلكوا وحدهم الحقيقة !

كانت سلوى (خطيبة عبدالله وابنة خالته عائشة) من أولئك الشباب! درست في جورج تاون- قطر في المدينة التعليمية . كانت فتاة رقيقة يحدوها طموح واسع بحجم سمعة عائلة أبيها ، وصيت الجامعة التي تنتسب إليها ، والوعود التي يحملها المستقبل لأمثالها .

وكان خطيبها عبد الله أيضا بحجم طموحها وغرورها . بدأ عبد الله (بزنساً) صغيراً من رأسمال خاص جمعه من مضاربات موفقة في بورصة وول ستريت على مبعدة من جامعته الأمريكية ، حيث كان يدرس ويقتصد من مصروفه ، وما ترسل إليه أمه الدكتورة منيرة بانتظام وبسخاء .كانت سلوى الممتلئة بالثقة والعنفوان قد أرسلت إلى عبدالله - بالإيميل - مقالها الأكثر تميزاً ، وهو مقال يعبر عن وجهة نظر طالبة قطرية مستجدة ، في سنة أولى بجامعة جورج تاون- قطر ، قامت بالرد توا ، على كاتب أمريكي بارز كتب سلسلة مقالات ، نشرت في نشرة إخبارية تصدر عن جامعة جورج تاون الأم[1] .

(١) تعد جورج تاون الجامعة الكاثوليكية واليسوعية الأقدم في أمريكا ، ويحمل خريجها بكالوريوس في الشؤون الدولية .

تقـول سلـوى فـي مقالها المنشور على موقع الجامعة الإلكتروني بأن الكاتـب الأمـريكـي صوّر قطر ممثلة في جامـعة جـورج تاون قطـر ، وطلابها ، بصورة غير حقيقية ، وغير عادلة . اعترضت الطالبة القطرية سلوى المدعاسي على تعمد الكاتب الأمريكي ، إغفال وجهة نظر الطلاب ، الذين قاموا بخربشة علم إسرائيل ومسحها تماما من ملصق (بوستر) كبير معروض ، يضم أعلام دول العالم ، تم ذلك أثناء انعقاد مؤتمر نظمته الأمم المتحدة في جورج تاون- قطر ودعيت إليه وفود مختلفة (منها الوفد الإسرائيلي) .

قالت الطالبة القطرية بأن حذف العلم الإسرائيلي من الملصق كان عملاً يظهر دعم أولئك الطلبة (لقضية الفلسطينيين) بحسب تعبيرها ، وأكدت بأن الطلاب العرب في الكلية تأثروا بالصراع العربي الإسرائيلي ، ولهم كامل الحق في عدم تأييد دول مثل إسرائيل اذا ما رغبوا في ذلك! تعجبت سلوى - بصدق وعفوية - من أن الكاتب الأمريكي لم يلتفت إلى الأطفال الذين ذبحوا في فلسطين ، وإلى البيوت التي سويت بالأرض ، ولكن استثارته حادثة جزئية تمثلت في قيام طلبة ، بحذف علم إسرائيل من بوستر!! وجعله محورا لسلسلة مقالات في نشرة الجامعة الإخبارية مفصلا ، في تعصب جورج تاون- قطر كلها ضد جنس اليهود أجمع! راحت الطالبة المستجدة في الدراسات الدولية تؤكد بأنها ليست قضية عنصرية أو مسألة حمل ضغائن ضد اليهود من قبل الطلبة أو أعضاء الكلية!! وعبرت عن رأيها ، دفعا لمزاعمه ، بأنها

تعتقد أن طلبة المدينة التعليمية يصارعون (صدمة ثقافية) مفروضة عليهم من (أسلوب حياة راديكالي)، لا يستطيعون التكيف مع قوانينه الاجتماعية الصارمة![1]

لدهشتها استاء خطيبها عبد الله من مقالها، ولم يكتف بالرد عليها إلكترونيا؛ بل اتصل بها معنفا تقريبا، وطلب منها أن تبتعد عن تلك الأمور! وأن تتخلى عن الأفكار الخاسرة!

(زعلت) سلوى من كلامه ومن أسلوبه الوصائي في التعامل معها قالت له: حتى الأمريكان لم يحجبوا مقالي ونشروه عملا بحرية التعبير! ولكنه تعلل بأنه يحبها وأنها ستسمع كلامه إن كانت تحبه! وعندما قال لها: عندما أعود في الصيف سأشرح لك!

ردت عليه سلوى بكرامة مجروحة (ماذا تشرح؟ الديمقراطية تجلب معها حرية التعبير. طبعا التعبير بأسلوب راق وليس على شاكلة تلك المقالات المحرفة للحقائق)، وقالت له أيضا: لا أصدق أنك قلت ما قلته! وأنت تدرس بأمريكا.

ما تعلمناه أنا وأنت لا ينحصر بين جدران الكليات، ولكنه أسلوب حياة يجب أن يمكّن أصحابه من التأثير في الأمور وتحويلها إلى الوجهة الأفضل!

أرخى عبد الله عندئذ الحبل المشدود بينهما، وصالحها! لا

---

(١) اعتمدت على مقال حقيقي لطالبة قطرية حول تلك الواقعة التي جرت في الجامعة ذاتها.

يحتاج عبد الله إلى التعجل و(العسف) في ترويض سلوى! عليه أن يستعد للتخرج ولديه عدة مشروعات، أحدها الزواج من سلوى بنت الوجيه بو سالم المدعاسي.

لسوف تدرك سلوى - عندما تكون مستعدة - بأنه على حق؛ وأنه لم يرد إلا مصلحتها؛ لسوف تقدر موقفه وتعرف بأنه كان أقدر منها على تقييم الأمور.

يروقها أن يمتدحها أستاذها أمام سائر زملائها في الكلية. يتردد صدى صوته في قاعة الدرس: (إنكم تنظرون إلى سلوى! سوف تقود حركة تحررية للمرأة في قطر)، كانت سلوى تأمل بتحرر الفرد في المجتمع، وقدرته على امتلاك ارادته المستقلة وتحديد خياراته، من خلال وعي تام في مناخ حر.. وكل ذلك الكلام الذي أصبح اليوم مبتذلا وساذجا!

لطالما ألجمها عن الاسترسال في النقاش مع الطلبة من غير العرب خشيتها أن تقع في الفخ السهل للجدل العقيم، كانت تعرف بأنها ستضطر غالبا في معرض الدفاع عن فكرتها أن تقول أكثر مما تعنيه أو تؤمن به حقا! ولو تحدثت بصدق فستبدو «غير منصفة» لظروف قومها ولنفسها أيضا بصورة أو بأخرى!

لقد خالطت الغربيين مبكرا منذ نعومة أظفارها، منذ أن كانت في مستوى nursery ثم انتظمت في دورات لغات وتثقيف طوال حياتها في بريطانيا ثم في امريكا، وتعرف مقدار «اختلافهم» عن الوسط الذي تعيشه وتنتمي إليه! تكره نظرتهم الفوقية وأفضليتهم وتفوقهم! وتدرك بأنهم (يفترضون) أموراً معينة طبقا لثقافتهم

ومعارفهم ، ويعدونها مسلمات ، ولكنها ليست كذلك في بلدها وفي ثقافتها الأصلية (التي لا تعرف عنها سلوى إلا القليل ؛ ولذلك تخفق في الدفاع عنها بقدر ما ترغب في ذلك) . شاركت سلوى في مناقشة جرت في مناظرة معدة أدارها أحد الإعلاميين البريطانيين المشهورين ؛ وقد نقلت على فضائية البي بي سي بتمويل من مؤسسة المدينة التعليمية ذاتها ؛ وقد أوضحت سلوى بأن العرب ينظرون إلى مفهوم الثقافة ذاته من زاوية مختلفة وبدوافع مغايرة ، وبالتالي يحصدون نتائج معينة! هذا كل ما في الأمر!

حوّل الإعلامي البريطاني أنظاره عنها فورا باحثا - كما يبدو - عن صوت آخر أكثر «جموحاً» في الطرح معقبا ببرود :

- أوه! هكذا إذا! سلوى تلمح تضاربا في المصالح ، في مناقشة هذا الأمر . هل هناك آراء حرة وموضوعية ؟

برغم محاولة الإسكات تشبثت بالميكرفون :

-أليس رأيي حرا وموضوعيا . . بشكل كاف ؟

- بالطبع لكل الحق في إبداء رأيه . لنستمع إلى آراء أخرى! هلا فعلنا ؟

كل يوم يصطدم حسها المرهف بشيء جديد لا تريد مواجهته في كلا العالمين! لا تشعر بالانتماء هنا ولكنها لا تشعر بالطمأنينة هناك! ربما تشعر بأنها معاقبة لأنها سلوى بنت المدعاسي ، ولأنها خريجة الكلية الأجنبية! ولأنها هي ، على ما هي عليه!

لم تعرف سلوى كيف تحدد تلك الأمور أو تعرّفها ، ولكنها أصبحت تردد فيما بعد كلاما قرأته ووجدت فيه ضالّتها ؛ كان

كلاما في مقال لأحد الكتاب القطريين[1] ذكر بأن ما يحدث في الخليج ليس تحديثاً ولا علمنة للمجتمع ، كما قد يتخوف البعض ، بل إنه عمل اعتباطي ؛ لم يقم بفرز ثقافي وتفكيكي للأوعية التقليدية ، ولم يستدع الماضي أصلا ، بل قام بتخريب المكتسبات بشكل أربك الحاضر وشل حركته . ويخلص إلى أن ما يجري من تحديث سطحي فوقي مادي ، لن يؤدي «مجددا» إلا إلى انزلاق أشد وأكثر مجانية وتدميراً للهوية ، ودفعها أكثر فأكثر نحو مستنقع الأحادية والانغلاق والتزمت .

عندما تخرجت سلوى أصرت على الانضمام إلى صحيفة محلية تصدر باللغة الإنجليزية ، وتعين عليها القبول بوضعها تحت الاختبار ، تحت إشراف محرر هندي يعتمر عمامة السيخ .كان (ناريما) أفضل في تعامله معها من رئيس القسم في الصحيفة ، وهو سريلانكي متعجرف ذو صوت مرتفع ، يحرص على أدق التفاصيل الشكلية . كل ذلك كان بعيداً كل البعد عما تتمناه خريجة متحمسة جاءت لكي تتميز وتتألق (ولن تقبل بأقل من ذلك حتى لو اضطرت لتحمل بعض المنغصات) ، اختارت سلوى قسم المحليات وكان خياراً واضحاً فالأقسام الأخرى كانت محدودة وغير جذابة .

واقترحت سلوى على القسم موضوعاً مهماً هو قضية المنشآت والشركات الوهمية في البلاد ، وافق السريلانكي متحفظا وأحالها

(١) الباحث عبدالعزيز بن محمد الخاطر .

للعمل تحت إشراف ناريما الذي طلب منها أن تطلعه على كل شيء تجمعه وكل اتجاه تسلكه ، وقال لها سنجلس معا ونحلل المعلومات في النهاية . اتجه التقرير إلى منعطف شائك نظراً لخوضه في مسائل تدخل في منطقة محظورة تمس مصالح أسماء معروفة في مجلس إدارة الصحيفة ، وفي خارجها من الشخصيات الكبرى في البلد ، والتي تقف وراء تجارة التأشيرات للعمالة المستجلبة والمرتبطة بتراخيص شركات وهمية ، وأخرى ذات أنشطة تجارية غير قانونية ، فضلا عن خيوط تقود إلى جداول من التسهيلات الائتمانية الهائلة ، والتي كان يكشف أول مؤشراتها عن مخالفات قد يتورط فيها مسؤولون في المصرف المركزي . تم إغلاق ذلك الموضوع فوراً بأمر من رئيس التحرير ، ولم تنشر منه الحلقة الأولى التمهيدية التي أعدتها سلوى ، وأمرت سلوى بالكف عن نبش ذلك الموضوع لأن إثارته وتضخيمه «ضد الصالح العام» ويثير حفيظة أشخاص متنفذين . لم يسع سلوى بعد امتعاض وخيبة أمل من مصير تقريرها الصحفي الأول إلا أن تبحث عن موضوع مثير آخر تذيل به اسمها . أنبأها أحد محرري الأقسام الرياضية (المغبونين) بأن بعض زملائه اعتادوا أن يتلقوا مظاريف تحتوي على أوراق بنكنوت مالية بعد انتهاء الدوري الرياضي ، ترسل مرتين في السنة من النادي الرياضي الأكثر حظوة ، بأسماء صحفيين في القسم الرياضي ، بوصفها مكافآت وإكراميات . وهذه المبالغ تكاد تصدر من باب معتمد في موازنة النادي مقابل خدمات صحفية متميزة أثناء تنظيم البطولات المحلية . قررت سلوى أن يكون موضوعها التالي

يخص الصحافة النظيفة . كان الموضوع مكهرباً أيضا ووجهت سلوى هذه المرة باتهامات واستياء عنيف من زملائها أنفسهم ، ولقبت باسم «قاطعة الأرزاق» . تدخل رئيس التحرير مرة أخرى! وأغلق الملف وسرب الخبر عمدا إلى زملائها في الصحف الأخرى ؛ فلم تتلق سلوى تحية صباحية واحدة في اليوم التالي ، منذ دخولها المؤسسة الصحفية وحتى خروجها من باب الصحيفة ، من جميع المحررين والفنيين المتضامنين . لم تأبه سلوى لما تعرضت له من أولئك الصحفيين ولكنها حزنت لأن (خبطة) صحفية أخرى ضاعت من يدها! بعدها أوعز رئيس القسم لجميع محرري القسم بالمساهمة في تقرير يبين تفضيل العمال الحصول على اجور إضافية مقابل العمل الإضافي في شهور الصيف ، بالرغم مما ينص عليه القانون الذي يحظر العمل صيفا في أوقات القيظ الشديد في النهار . أخبرت سلوى رئيسها بأن العمال يرفضون ذلك ، كما تبين لها شخصيا أثناء عملها في تحقيق موضوع الشركات الوهمية . ولم تكتف بذلك بل سلمته بعد أيام معلومات وأرقاماً تكشف عن عدد الإضرابات عن العمل ، وحالات توقيف عن العمل ، فضلا عن كشف باصابات الصيف مستخرجة من ملفات طوارىء المستشفى الرئيسي بالبلد ، وبالرغم من أداء سلوى المهني الممتاز ، لاسيما قدرتها على الحصول على معلومات سرية للغاية ، بفضل اعتمادها على مصدرين (داخليين) في كل من وزارتي العمل والصحة العامة ، زوداها بمعلومات دقيقة ومهمة ، فإنها تلقت في اليوم التالي فصلا من العمل بسبب «رفضها التعاون والتقصير في المهام المسندة

إليها ، فضلا عن قلة الإنتاج» ، فوجئت سلوى تماما!! وقامت على الفور بتحرير شكوى لدى إدارة العمل بسبب الفصل التعسفي ، وطالبت بالتعويض ورد الاعتبار وحقوقها المهنية ، فعلت ذلك نكاية في تلك المؤسسة «المتعفنة الفاسدة اللعينة» التي لم تقدر أداءها ، ولكنها لم تصعد الموقف عندما تاهت الشكوى في روتين إجراءات إدارة العمل . تمنت سلوى لو كان بإمكانها أن تشكو المؤسسة عند والدها المدعاسي لكي يوقع عقابا حاسما وسريعا بحرمان تلك المؤسسة الصحفية التعيسة من كل إعلانات الشركات التي يملكها ، ولكنها لم ترد مواجهة أبيها بما حصل معها وأسبابه ، وخشيت ألا تستطيع دفع فاتورة تدخله فهي لا تستطيع - في الواقع- الاطمئنان إلى دعمه وتأييده لها ، كما أن عليها أن ترضخ لقراراته إذا طلبت معونته . لم يكن المدعاسي الذي أدخل سلوى جامعتها الأجنبية ، لكي يزهو بشهادتها يتوقع أن تكون على تلك الصورة من الاندفاع وتبني الأفكار الهوجاء!! . كان بإمكان سلوى أن ترفع دعوى قضائية ولكنها لم تكن تؤمل أن يحرك ذلك أي ساكن في مستنقع الدوحة ، حتى لو كسبت القضية ضد المؤسسة وأعادوها إلى العمل فماذا ستحقق ؟

بعد فصلها من الصحيفة اقترحت سلوى على صديقتين لها تخرجتا توا من كلية نورث وست للإعلام تأسيس لجنة أهلية لتقصي أحوال العمال ومتابعتها ، ربما جاء ذلك رد فعل لشعورها المجروح وانهيار أحلامها وتقديرها لذاتها ، وأهم من ذلك عجزها التام عن التصالح مع مجتمعها . زارت سلوى مع صديقتيها اللجنة

الحكومية لحقوق الإنسان ، ولم يستقبلهما سوى نائب رئيس اللجنة بعد أن أخبروه بأن ابنة المدعاسي لديها استفسارات حول مهام اللجنة الحقوقية فيما يخص أحوال العمال العامة ، وتوفير شروط السلامة في مقار العمل . لم تجد سلوى بداً من التنادي لتأسيس لجنة أهلية نظرا لما لمسته من تدهور أوضاع العمال في السكن والأجور والعلاج ، وسائر ظروف العمل ، هذا من جهة ، وتراخي اللجنة الحكومية في الاستجابة لشكاوى العمال برغم تفاقم معاناتهم وأوضاعهم وأعدادهم في الفترة الأخيرة ، من الجهة الأخرى . وبعد اجتماعين مع بعض الصديقات والمعارف ؛ دعت سلوى زميلها الصحفي سعيد بن جبر إلى اجتماع ثالث ضم بعضا من رفيقاتها المقربات ممن تحمسن للشروع في نشاط عملي بعد سنوات الدراسة النظرية . كان سعيد مشاركا بصفة شخصية لبعض اجتماعات اللجان الخليجية في البحرين والكويت حول حقوق العمال ، والتقى سعيد بأربع فتيات في غاية الأناقة والرقة في مطعم احد فنادق الخمس نجوم . لم يحتج سعيد لأكثر من عشر دقائق ليكتشف سذاجة الفتيات وقلة خبرتهن ، ومحدودية معلوماتهن حول الموضوع . تحدث سعيد عن تقاعس المؤسسات الخاصة عن واجباتها ، وعن مراكز قوى مستفيدة من الأوضاع ، وتبتلع الملايين ، وعن مشكلات وخلل هيكلي يواجه المجتمع ، وعن عواقب ذلك «الإغراق» و«التكديس» العمالي على المجتمع من نواح أمنية وحقوقية وسياسية . فوجئت الفتيات المتحمسات وتكدرن عندما أطلعهن سعيد على عدد من المحاولات التي سبقت

مشروعهن ، بعضها من عشرين سنة ، علم سعيد ببعضها وأسهم شخصيا في بعضها الآخر ، لتأسيس لجان وإشهار جمعيات أهلية ، باءت جميعا بالفشل ، وأخبرهم برأيه في أن الأمر منوط بارادة الدولة وتحركها لانها تمسك بسائر الخيوط في إصبعها الأصغر . تحول سعيد فجأة - في أعين الفتيات الأربع - إلى شخصية سلبية هرمة محبطة تجنح بهن إلى الاستسلام والإحباط واليأس .

قالت إحداهن وهي تنظر إلى رفيقاتها : يجب أن يتحرك الناس وأن تسمع أصواتهم ، أما المبادرة الرسمية فلا معول عليها .

قالت سلوى مؤيدة : هناك مهن تتعلق بها حياة الناس ، مثل الطب والمحاماة والصحافة ، ويجب على المنتسبين إليها أن يحملوا فكرا رياديا ومواقف ويقدموا التضحيات .

قال سعيد :

- أتعلم إحداكن بأن أكثر من جهة تمارس الابعاد للصحفيين غير القطريين ودون توضيح أسباب ولا حاجة لذلك ، ويتم الإبعاد أحيانا في ظرف ٤٨ ساعة ؟

قالت سلوى : الصحفيون أنفسهم لا يتضامنون مع رفاقهم! من تضامن معي عندما فصلوني تعسفيا ؟

قال لها سعيد : هل تريدين أن أجيب عن سؤالك ؟ هل تريدين أن أكشف اللثام عن حقائق قبيحة يعرفها الكل ويتجاهلونها؟

- اكشفها! هذه مهمتك لكي يراها الرأي العام .

كظم سعيد غيظا : خليني اسأل أين هو ذلك الرأي العام؟

هل تعتقدين بأننا نستدعي مجتمعا مدنيا عندما نتمكن - فرضا- من نشر بعض الحقائق ؟ أين هي مؤسسات المجتمع ؟ وما مستوى استعدادها للاستجابة ؟

تلفت سعيد حواليه في حركة بدت مضحكة ، وكان صوته قد ارتفع قليلا في سورة الغضب فخفضه قائلا :

لا يدري المرء هنا متى يستدعى للاستجواب والتحقيق معه ولأي سبب ، وماذا يحصل معه بعد ذلك ؟

أراد سعيد أن يظهر لسلوى جانباً من خطورة الأمر ، وأن يعبر عن مبعث قلقه ، أراد أن يلفت انتباهها إلى أن هناك عواقب حقيقية وأسلاكاً شائكة ، وأراد أيضا - من طرف خفي- أن يخبرها بأنه قد اختبرها ، وأن ذلك ما يجعله حريصاً وواقعياً أكثر منها ومن رفيقاتها المزهوات عبثا!

كان سعيد في واقع الأمر يشير إلى استدعاء وقع له منذ سنتين إلى النيابة العامة . بدا له ذلك الاستدعاء وما تلاه ، ولوقت طويل ، أمراً غامضاً ومريباً وتحذيرياً!! وكان إجمالا تجربة هزته من الداخل وأخافته أكثر مما توقع .

لا يرى سعيد الأمور بطريقة بنت المدعاسي! بل يؤمن بأن المرء يجب أن يكون منطقيا ومتماشيا مع سيرورة الأحداث «ما جدوى التمرد على ما هو سائد وغالب ؟ من يقدر على تغيير مألوف الناس وما توافقوا عليه أو رضخوا لقوانينه منذ قرون! بم نفعه الناس عندما أراد أن يؤدي دور الصحفي النزيه لأجلهم؟» .

أكبر الظن أنهم خاضوا في سيرته وفي نياته! بعض الناس روج

أقاويل عن «بطولة» سعيد بن جبر، وبعضهم تنكر لما كتبه سعيد بن جبر واستهان بكل ما جرى له. سرّى عنه بعض الشيء ما أشيع بعدها من أنه قد استدعي إلى النيابة وأوقفوه عن الكتابة، وقيل احتجز لاسابيع وقيل لأيام، بل سمع إشاعة بأنه قد تعرض للضرب، وأخرى بأن السلطات أسقطت عنه الجنسية! ولم يحاول أن يكذب أي إشاعة أو ينفيها، ولو فعل ذلك لاعتبر نفيه تأكيداً! تكشف تلك الإشاعات عن قدر كبير من الخوف! وعن تصور راسخ لدى الناس بأن أجهزة الأمن غول قادر على القمع والإسكات!

تلك الإشاعات ذاتها تضفي بطولة خادعة وترسم (صورة) تترتب عليها مسؤولية أكبر مما يستطيع صاحبها تحمله فيما بعد، وتكلفه بدور لم يطلبه أو يتقمصه! يقول سعيد: «الناس تسعى لإيجاد بطل تدفعه دفعا إلى معركة يخوضها وحده من دونهم».

لا يستطيع سعيد أن يقرر ماذا أوقعت تلك الحادثة في نفسه؛ غير أنها انتزعت منه مشاعر الأمان و«الغفلة» والراحة، ولو أنها لم تسفر عن أكثر من ذلك لكفاها! ألم تسلبه تلك الأريحية التي كان يكتب بها من قبل فلم يعد كما كان أبداً!!

منذ ذلك الحين سيتعين على سعيد أن ينفي مشاغبته، وأن ينتقل من صف الكتاب إلى كرسي الإدارة الخلفي في الصحف ولم يزل يتعين عليه أن يبرر أفعاله ويؤيد زملاءه بأن ما أقدم عليه كان طيشا واندفاعا لا مبرر له. سيضرب صفحا عن تقولات البعض بأنه يريد الاستعراض والتميز وإثارة البلبلة!! ولن يدافع عن نفسه عندما يتهم بالتشنيع والتضخيم وتقبيح أعمال الدولة،

لتأليب الناس على القيادة السياسية . لن يدافع عن نفسه لأن «اعتراضاته» ستفهم دائما على أنها «مشاغبة» في مجتمع يرى الأمور بمنظوري المغنم والمغرم .

نظرت إليه سلوى وقالت :

- ماذا عنك أنت يا سعيد؟ ما هي قناعاتك ؟

فقال بسرعة : أن لا أنطح الطوفة!

منذ سنتين استدعي سعيد إلى أحد المخافر ، وأخذت منه إفادة بشأن مقال له نقل إلى منتدى قطري على الانترنت . أبدى سعيد اعتراضه :

- وما دخلي أنا ؟

- أنت صاحب المقال ؟

- نعم لكن بلاغ الشكوى حول مقال نقل إلى منتدى إلكتروني ، وكانت المشاركات والردود مسيئة إلى الشخصية الشاكية بحسب زعمه .

- الشخصية الشاكية موظف دولة عام ومقالتك فيها مزاعم حول مؤسسته .

- إذن لماذا لم يرفع الشكوى علي وعلى الصحيفة التي نشرت المقال .

- البلاغ ضدك وضد المنتدى الذي نقل إليه المقال . والآن ما قولك فيما نسب اليك؟

- وما الذي نسب إلي ؟ أنا لم أدع ظلما على المؤسسة وعلى من يديرها ولدي إثباتات .

- معك الآن؟

- لا . لم أحضر شيئا معي .

- سنحول إفادتك إلى النيابة العامة وسوف تستدعى قريبا .

- سأقدم ما عندي عندما أمثل أمام وكيل نيابة .

- عندك أقوال أخرى؟

- لا

- هل تعرف أمورا أخرى عن الشاكي فيما يخص أي تجاوزات أخرى ؟

- ماذا تعني ؟

- لا تدخر أي معلومات لمساعدة الجهات الأمنية .

- ما عندي أي معلومات اخرى .

إذاً يريدون منه معلومات أخرى ؟ يعلم سعيد بأن الشاكي ، الذي يرأس إحدى المؤسسات ، يخضع في ذلك الوقت بالذات للتحقيق في قضية اختلاسات كبرى ، ضجت بها المنتديات الإلكترونية . لم يكن سعيد متأكداً من كون الشاكي شاهداً في تلك القضية أم متهما ، ولكن بعد إشارة الملازم أول ، الذي حقق معه ، فإن أغلب الظن بأن الشكوك تحوم حول ذلك الشخص . هل تم استدعاء سعيد عمدا لأنهم يجمعون معلومات حول ذلك الرجل؟؟ انتظر سعيد أسبوعا وشهراً وشهرين ولم يتم استدعاؤه!

وبعد أكثر من سنة استدعي فجأة إلى النيابة العامة!

جلس سعيد أمام وكيل النيابة الذي كان متجهما وجافا بطريقة غريبة :

قال سعيد :

- ما القضية ؟

- البلاغ نفسه اللي عليك .

- بعد مرور سنة وأكثر ؟

- وايه يعني ؟ الشاكي حرك البلاغ .

- طيب البلاغ حسبما أذكر لا يتعلق بقضية نشر ومطبوعات وأنا أطعن في اختصاصكم في . .

- اطمئن نحن الجهة المختصة .

- البلاغ يتعلق بمقال نقل إلى منتدى وأثارت المشاركات استياء المبلّغ .

- لا! الشاكي موظف دولة كبير وأنت بمقالك أثرت كراهية الناس وازدراءهم له .

- المبلغ يعترض على ما جرى في منتدى ؟

- أنت صاحب المقال والا لا ؟

- أنا صاحب المقال . واذا كانت قضية نشر فيجب أن يشتكي علي وعلى الصحيفة التي نشرت المقال ايضا .

- هذا شأن المبلغ ؟

- لكنه لن يفعل ذلك لأن رئيس مجلس الإدارة في الصحيفة هو نفسه عضو مجلس إدارة في المؤسسة ذاتها التي يديرها ذلك الشخص .

- ليس هذا من شأني . أنت مقر بأنك كتبت المقالة ؟

- سألتزم بالصمت حتى يحضر معي محام .

أطبق وكيل النيابة عندئذ الملف بقوة وعصبية وأخذ يملي على كاتبه :

حضر المتهم فلان الفلاني . . . . . وتم إطلاعه على التهمة وعقوبتها في القانون و . . . . . تقرر استدعاء المتهم مرة أخرى بتاريخ . .

التفت إلى سعيد قائلا :

- هاه! متى ستحضر مع محاميك؟

- بعد أسبوع .

حضر سعيد بالفعل في الموعد المقرر مصطحبا المحامي . وطلب محاميه الاطلاع على الملف قائلا :

- أرسلت مساعدي ولم يحصل على معلومات .

قال وكيل النيابة :

- تفضل .

أعطاه الملف واستدار صوب سعيد سائلا :

- ماذا تكتب يا سعيد؟

- مقالات .

- ما نوعها؟

- اجتماعية .

- يعني عن الزواج والطلاق والاسرة ؟

- لا ، مقالات نقدية .

- ماذا تنتقد في البلد؟

- لا أنتقد شيئا! أكتب مقالات عن مستوى الخدمات وخلافه؟

- يعني لا تكتب المقال السياسي ؟

تبادل سعيد مع محاميه نظرة سريعة . ود لو يقول هل أصبح المقال السياسي محرما أو تهمة ثم عدل عن ذلك .

- لا أكتب في السياسة . اسأل أي صبي في الشارع وسيقول لك إنه لا أحد في قطر يكتب مقالا سياسيا .

- طيب ما معنى هذه العبارة في مقالك ، في السطر الخامس .

نظر سعيد إلى نسخة من المقال .

- هذه إشارة إلى مخالفة إدارية لقرار من مجلس الوزراء ؛ وهو أمر سبقني إلى الإشارة إليه خبير إداري في مقالة منشورة! يعني هو أمر متداول ومعروف .

- ولماذا وضعت عبارة (العجايب والغرايب) بين قوسين؟

- لأنها عامية .

- يعني لم ترد أن تثير الانتباه اليها ؟

- الود ودي أثير الانتباه إلى كل مقالي!

- هل تكتب في صحف خارجية ؟

- أحيانا أتعاون مع صحف خليجية . هل هناك قانون يمنع ذلك؟

- وماذا تكتب فيها ؟

- مقالات .

- هل يقولون لك ماذا تكتب ؟

- ماذا؟

لبث وكيل النيابة منتظرا الإجابة . قال سعيد :

- لا .

- أمامي مقالك وفيه ادعاءات كثيرة تمس سمعة موظف عام في الدولة ؛ وهي تهمة يعاقب عليها قانون العقوبات الجنائية بالسجن والغرامة .

- لم أكتب ما كتبته إلا بعد التحري والتثبت .

- كيف؟

- وصلتني مستندات دفعتني . .

- ممن ؟

- مصدري

- من داخل المؤسسة ؟

- من أي مكان كان! المهم عندي ما يؤيد كلامي .

- أين هي المستندات؟

قدمها سعيد لوكيل النيابة . كانت حوالي عشرين صفحة مرقمة ومرتبة ومعنونة كما نصحه المحامي أن يفعل . تصفحها الوكيل بسرعة ووضعها جانبا .

- لماذا أخفيت هذه المستندات؟ الم يكن من واجبك أن تقدمها ؟

- لم اخفها بالعكس كتبت مقالا يكشف عن أهم ما جاء فيها ونشرته على العلن .

- لماذا لم تسلمها للجهات المختصة ؟

- أنا كاتب ومهمتي أن أكتب ولا أسلم أي مستندات لأي جهة .

- ولماذا لم تسلمها لنا من قبل ؟

- أنا لم أنكرها . في الإفـادة الأولى منذ سنة ونيف قلت . . وهذا مقيد أمامك في الإفادة التي أدليت بها . . قلت بأن عندي مستندات ومستعد لتقديمها لكن لم تطلب مني إلا اليوم .

- مادام همك الصالح العام كان يجب أن تقدمها من نفسك ؟

- كيف أقدمها ولم يتم استدعائي من قبل . قل لي لماذا تم استدعائي الآن بعد هذه المدة؟

- الشاكي حرك البلاغ ضدك مرة أخرى .

- اين كان الشاكي في الفترة الماضية ؟

- لا أعلم .

- وأين كنتم أنتم ؟

- لا يفيدك هذا الكلام .

- أنا سأقول لك! الشاكي كان مشغولا عني! كان حضرته متورطا في قضية الاختلاسات المعروفة! وكلنا سمعنا عنها ، ولما أغلقت النيابة الملف وأسقطت التهم كافة وهو أمر يعود إليها وإلى تقديرها وصلاحياتها . . وأنا لا اعترض على شيء هنا . .

نظر الوكيل إلى الأوراق مرة أخرى وأخذ يقلبها وقال :

- بعض هذه المستندات ما عليه ختم رسمي!

- الذي حصل عليها كان في عجلة من أمره ، وكلما وقع في يده مستند صوّره كما هو . أطلب منكم إحالتها إلى خبير مخول بالنظر والتدقيق في المستندات الأصلية في أرشيف المؤسسة ذاتها ، ولن تختلف عما في يدك . وبعض المستندات كما ترى إيميلات

داخلية وفيها تعاميم وعقد عمل غير قانوني ، وأستطيع أن أشرح لك كل ما أمامك ولدي ملخص قمت باعداده .

سلم سعيد الملخص التفصيلي لوكيل النيابة الذي علق :

- ما شاء الله عليك جاهز لماذا أحضرت معك محامياً ؟

بعد جلسة طويلة انتهى الاستجواب ، وأملى وكيل النيابة على كاتبه تقريراً قصيراً مبتسراً وقع عليه سعيد على مضض . ثم قال الوكيل لسعيد ومحاميه بأنه سيرفع الملف بما فيه إلى مكتب النائب العام ، وسوف ينقل إليه الصورة كاملة (!!) .

لم يتصل بعدها أحد بسعيد ولم يتم استدعاؤه بعد تلك الجلسة فيما يخص ذلك البلاغ بعينه . واستمر ذلك الموظف الكبير الشاكي ، الذي قدّم سعيد ضده مستندات عدة حول تجاوزات في المؤسسة التي يديرها ، والتي ظن سعيد بأنها قمينة بفتح باب التحقيق ، ظلت تلك الشخصية على رأس عملها في المؤسسة بل نالت مكافأة وتثبيتا وافتتحت شركة جديدة في السوق ، وكان لديها عدة فنادق تستقبل الضيوف والزوار الذين يأتون بدعوة رسمية إلى البلد ، كما انضمت تلك الشخصية إلى عضوية مجلسي إدارة أحدهما في جمعية خيرية تستقبل الملايين من أموال التبرعات والهبات .

حتى لو وضع سعيد عينه على سلوى (قبل أن يكتشف بأنها مخطوبة) فانه لم يفكر جديا في التقدم لخطبتها . تملكه التردد من التقرب إليها منذ البداية ، بسبب تلك البراعة التي تختص بها في استصغار الجميع من حولها «وكأنها نازلة من كوكب آخر» ، هكذا وصفها أحد الزملاء في الصحيفة مرة !

الآن يعاوده الألم والامتعاض من نظرتها الأقرب إلى الوقاحة «من هي حتى تحكم عليه؟» ، قال لها بشكل عدائي تقريبا :

– فكري مليا يا سلوى ألسنا جميعا خداما للسلطة! اليس ما نقدمه من انتقاد لا يتجاوز الذيول والعصاعص ؟

ودّ لو قال لها (خففي من غلوائك يا بنت المدعاسي! بالهون على نفسك وعلى مصالح أبيك! ترى الصحافة عندنا ليست المهنة التي تتخيلين . ما قرأتيه نظريا في أدبيات كليتك الأجنبية اللعينة . . انسيه وعيشي الواقع!)

التزم سعيد الصمت هنيهة قبل أن يقول بصوت متمهل :

– أتدرين ما الذي يدفع الناس إلى التحرك في هذه البلاد؟ انه الطموح والأغراض الشخصية ولا شيء سواه . الطموح مشروع في حد ذاته ، ولكن في ظروف التفريغ من الأطر والأعراف المهنية والأخلاقية لن يكون هناك إلا تثمين فوري وكامل للسلوك التسلقي والانتهازي ، ما دام مكللا بالنجاح ، فالحرامي ينال احتراماً اجتماعياً غامراً ووافراً لأنه يستطيع النفاد بجلده ، وهذا يدلل على عظم شأنه ومقدار قوته ، صدقيني هذا هو الواقع!

قالت سلوى :

– ما جدوى أن أصدقك أو أجادلك! إنني أريد أن أعرف ماذا بعد ذلك ؟ لا أستطيع أن أتحمل شخصيا البقاء في هذا الوسط! اسمح لي! ليس ذلك تقليلا من شأنك! أنا فقط لا أستطيع!

يعرف سعيد بأن سلوى المدعاسي لا تستطيع ذلك ، وليست مجبرة عليه .

بعد فصلها من المؤسسة الصحفية التي تمول جريدة تصدر باللغة الإنجليزية وتحظى بسقف أفضل نسبيا من تلك الصادرة بالعربية لم تفكر سلوى بأن تتعاون أو تعمل في أي مؤسسة أخرى ؛ فكل مجالس الإدارة متشابهة ومترابطة بمصالح مشتركة ، ومن يملك النصيب الأكبر من الأسهم في الصحف كلها ، يكاد يكون فردا واحدا بعينه!!

انتظرت شهورا بعد تقديم طلب الاشهار للجنة الحقوقية الأهلية لمتابعة أحوال العمال! ولم تتلق أي رد من إدارة الجمعيات بوزارة الشؤون الاجتماعية! قابلت سلوى أثناء المتابعة عدة أشخاص من لجان تأسيسية لجمعيات أخرى ، سبقوها بتقديم طلبات الإشهار بسنوات ، ولم يصلهم الرد بعد! واكتشفت بأن هناك جمعيات حصلت على موافقة من مجلس الوزراء في عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ ثم تم تجميدها دون إشهار حتى الآن! ولا يعلم أولئك الأشخاص متى يفرج عن مشاريع الجمعيات! وقد انصرفوا إلى مشاغلهم ودنياهم!! في تلك الفترة تلقت سلوى دعوة من أحد الزملاء للاشتراك في إنشاء صحيفة إلكترونية .

بعد شهور من النشاط الصحفي الإلكتروني اللافت فوجئت سلوى باتصال هاتفي مفاجئ على هاتفها النقال يوم الخميس الساعة السابعة مساء . طلب منها شخص الحضور فورا إلى إدارة البحث الجنائي .

- ما الأمر

- نريد إفادتك حول موضوع .

- أي موضوع ؟

- لا أستطيع إخبارك على الهاتف تفضلي عندنا وسوف نخبرك .

- الآن .

- نعم لو سمحت الآن ونحن بانتظارك . هل تعرفين المكان؟

- لا .

ودلها على العنوان ووصف لها المكان منبها بأنهم في انتظارها .

دخلت سلوى مبنى إدارة البحث الجنائي وهي لا تعرف ماذا تفعل هناك!

استقبلها شخص عرفها بنفسه وأدخلها مكتبا على اليسار . كانت هناك شرطية حاضرة وجالسة بمواجهتها .

قالت سلوى :

- ما الأمر ؟

- أنت مشتركة في إدارة صحيفة الكترونية؟

- نعم . ما الأمر ؟

- هناك بلاغ ضدكم من قناة فضائية بسبب نشر معلومات سرية عنها .

- أي معلومات سرية ؟

- معلومات تسيء إلى البلد . . وتسريب لوثائق خاصة ؟

- معقولة ؟

- قدامي ثلاثة أخبار . هاهي ذي .

نظرت في النسخ التي استخرجت عن الموقع في الانترنت .

- أنت مسؤولة عن ذلك ؟

- أنا مسؤولة عن نشر خبرين منها ، وهذان الخبران صحيحان ومدعمان بالدليل . انظر إلى أسفل كل منهما .

امسك بالخبرين في يده وكأنهما دليلان ماديان .

- هذه الأخبار فيها إضرار بالأمن القومي .

- ماذا ؟ أنت قراتها ؟ هذه أنباء لمخالفات ادارية تحصل في أي مؤسسة في أي بلد! أنا متاكدة من عدم تجاوزي لأي قاعدة مهنية أو اي قانون للنشر .

- متاكدة؟

ربما لم تعد سلوى متاكدة تماما بسبب جدية المحقق ، وبرغم غرابة كلامه .

قال لها :

- من أين جئتم بالوثائق وهي وثائق رسمية مؤرشفة وتخص مؤسسة القناة وحدها ؟

- من مصدر . وهي صحيحة تماما ولم . .

- نريد معرفة المصدر . هذه أخبار مهمة وتمس الأمن . .

- أي أمن قومي ؟ صل على النبي! عم تتحدث ؟ أي مهمة واي خطورة؟ قل لي من الذي يتهمنا أنتم أم القناة ؟

- هناك بلاغ ضدكم قدمه محام باسم الفضائية .

نهض بسرعة ليستقبل أحد الأشخاص الذي دخل توا . تعرفت على صوت أحد زملائها ولكنها لم تتمكن من التحدث إليه . لأن المحقق قاده فوراً إلى مكتب آخر لأخذ إفادته على ما

يبدو . بدا الموقف هزليا لسلوى لكنه حقيقي!

- هذا محمد عبد الله الذي دخل توا .

- نعم . سيأخذون إفادته . هل هو معكم في الموقع ؟

- نعم! اظن!

- عندنا أيضا صاحب الموقع موجود في مكتب ثالث وهو من أعطانا أسماءكما ، وهو سوف يدلي بإفادته أيضا . أنتم الثلاثة في الموقع فقط ؟

- أجل .

- نريد أن نعرف مصدركم .

- لن أكشف أبدا عن مصدري .

- أنت تضرين نفسك .

- انا أعرف حقوقي . لا يحق لك أن تطلب مني إفشاء اسم مصدري إلا بأمر قضائي .

- متأكدة؟

نظرت إليه بتعجب .

فقال الملازم أول :

سوف نرسلكم إلى النيابة العامة .

- لماذا ؟

- أنتم موقوفون .

- الآن في هذا الليل ؟

- نعم .

- لن أذهب . سأغادر الآن على مسؤوليتي وغداً سوف أمثل

أمام النيابة كما تطلبون .

- لا . . لا . أنت موقوفة . كلكم موقوفون .

- لا يهمني كلامك .

سارت سلوى نحو الباب والمحقق يأمر الشرطية بأن تردها . لحقت بها الشرطية وأمسكتها من ساعدها وهي تقول :

- لا تسببي لي ولك المشاكل . عودي واعقلي!

عادت سلوى لتواجه المحقق ولكن بغضب :

- أريد أن أقابل رئيسك .

- ها هو وراءك!

التفتت فإذا برجل يقف وراءها فقالت له بعصبية ونفاد صبر :

- اسمع! أنت سوف تُسأل شخصيا عما يحصل الآن! أين أمر التوقيف؟ أريد شيئا مكتوبا! ولماذا لا تنتظرون إلى الغد سوف أذهب إلى النيابة بنفسي .

قال النقيب بثقة وتجهم :

- أنا معك فلان الفلاني ، وأنت موقوفة وعندي توجيهات واضحة بذلك ، وسوف نرسلكم مع مرافقين إلى النيابة العامة الآن .

أسقط في يدها! وقعت كالفأر في المصيدة! هذه المرة أيضا لا تستطع أن تستنجد بوالدها المدعاسي! كيف تقول له بأنها في ادارة البحث الجنائي ؟ كيف تقول له بأنها موقوفة ؟ ابنة المدعاسي متهمة وسوف ترحّل إلى النيابة العامة بمرافقة شرطية وشرطي!!

لا تستطيع الاتصال بأخيها أحمد أيضا ، فهو لا يقل «محافظة وتقليدية» عن أبيها ، فضلا عن أنه «متردد» ولن يتحمل مسؤولية

«جنونها» بل سيخبر خطيبها ووالدها!

لا تريد أن يعرف عبد الله بأي ثمن! لأنه سيشمت فيها، سيقول لها : ألم أقل لك ؟ لا تعرفين شيئا أيتها المثالية!

اتصلت بأمها فقط واخبرتها بأنها ستتأخر!! لم تكن تأبه في السابق بالاتصال لطمأنة أمها، لكنها الآن أرادت أن تسمع صوتا ودودا . قالت لأمها : ادعي لي يا الغالية . ردت الأم :

- ادعو لك كل يوم وكل ساعة .

ثم اتصلت بسعيد بن جبر وأخبرته بما حدث معها . قال :

- انكري كل شيء!

- ولكن ما المخالفة في نشر تلك الأخبار ما دمنا نشرنا الوثيقة دليلا في أسفل الخبر .

- لا تكابري! من حق المتهم ألا يجرم نفسه .

- لم يوجه إلي اتهام محدد أصلا ولا أعرف لماذا أنا موقوفة، إلا أنهم يصرون على كشف المصدر! أصلا انا لا أعرف المصدر وليس لي صلة به .

- قولي ذلك

- لا أستطيع يا سعيد ورفاقي!

- ما أشد عنادكِ! والمطلوب مني! كيف أساعدك إذاً ؟

- أرسل لي محامياً سياخذوننا جميعا إلى النيابة بعد شوي .

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء عندما تحركت بهم سيارة الأمن (الستاندر) . كانت الدوحة هادئة بشكل حزين وقابض للنفس، هكذا رأتها سلوى . عندما وصلوا إلى مبنى النيابة

العامة أرادت سلوى فتح باب السيارة فلم يفتح ، نزلت الشرطية وفتحت الباب من الخارج (أدركت أن ذلك مقصود لكيلا يهرب المتهمون) ، كان مبنى النيابة العامة مقفرا في يوم الخميس والساعة تقترب من العاشرة والنصف . استقبلهما رجلان في الطابق الأسفل . ودلفوا إلى اليمين حيث كان الفراشون (يشطبون)! سال أحد الشرطة : أين وكلاء النيابة ؟

فأخبروه أنه لم يبق أحد هنا . الجميع انصرفوا من الدوام وغدا الإجازة الأسبوعية .

سألت سلوى الشرطية .

- ماذا يعني ذلك ؟

- في العادة يحتجز الموقوفون في ليلة الخميس إلى يوم السبت .

- ماذا تقولين ؟

اتصل بها سعيد مستخبرا . وقال لها المحامي في الطريق اليك .

لم يتأخر المحامي بالفعل ، ولكنه منع من اجتياز تلك الصالة بينهما فتحدثت اليه بالهاتف . اختصرت له الموضوع . قال لها :

- أنتم مخطئون! لا أحد يستجيب لاستدعاء في مساء الخميس!

- وما ادرانا!

قال لها : سننتظر ونرى . قابلت هناك صاحب الموقع وأخاه اللذين وصلا بعدها مباشرة ، وما زالت الشرطية تصحبها خطوة بخطوة!

كان هناك رواق ضيق للانتظار مستور بحاجز بالقرب من غرفة

للفراشين يعدون فيها الشاي والقهوة ، وفي الجهة الأخرى هناك مكتبان متجاوران . وقفت سلوى أمام المكتبين ساخطة وكان رفيقاها بالمثل قلقين !

واجهت سلوى الشرطي الذي كان مع زميليها : والآن ماذا؟ لا يوجد هنا أحد ؟ لماذا أتيتم بنا إذا؟

- اهدئي يا أخت سلوى!

- ماذا ننتظر ؟ ماذا تنوون ؟

- اتصلنا وسوف يحضر وكيل نيابة!

كان الوقت يمضي بطيئا! جاء وكيل نيابة يتبعه كاتبه على ما يبدو . دخلا أحد المكتبين ودخلت سلوى وراءهما . أرادت أن تتحدث إلى الوكيل الذي رفع رأسه متسائلا : من هذه ؟ أخرجوها! عندها تدخل الشرطي وزميلاها ليقنعوها بالانتظار في الخارج لكيلا يغضب الوكيل ويأمر بإجراء ضدها!!

انتظر المتهمون في الخارج قرابة نصف ساعة حتى يطلع الوكيل على الملف (هل أصبحت تلك قضية بملف ؟) ، كانت سلوى متوترة وذهبت لتتحدث مع محاميها في الردهة مخفورة بحراسة الشرطية ؛ ثم طلب الشرطي من الشرطية أن ترافق سلوى للجلوس في المكتب الآخر المجاور الذي فتح لأجلها! سببت لهم بنت المدعاسي قلقا وتوجسا . عندما جلست سلوى على مقعد أمام المكتب وأسندت ظهرها إلى الجدار مباشرة . (جدار رقيق وغير عازل للصوت وكأنه من نشارة الخشب المضغوط الذي تبنى منه المكاتب المؤقتة) ، وجلست مقابلها الشرطية التي أخذت تعبث في جوالها في تعب وملل!

سمعت سلوى في جلستها تلك، صوت وكيل النيابة الجهوري، كان جليا بأنه يحادث شخصا مهما على الهاتف، وتبينت من كلامه كلمات واضحة ولكن متقطعة كان يقول :

- سعادتك! لا أستطيع . . لا يوجد مستمسكات!! سأحاول بكل وسعي المناورة . . معهم وحدة ست! نعم بنت المدعاسي لا ليست هناك قضية . . البلاغ . . غير مستوف . . ما عندنا شيء عليهم!

خشيت سلوى أن تشدها الشرطية وتخرجها من المكتب فورا، ولكنها عندما نظرت إلى الشرطية وجدتها سارحة وغير منتبهة .

ادخلوا إلى الاستجواب واحدا واحدا! انكر صاحب الموقع معرفته بشيء وقال : إن الموقع مفتوح ولا يدري من يدخل ويخرج ومن ينزل الأخبار والمعلومات!

ودخلت سلوى فسألت الوكيل فورا : ما التهمة؟ فقال : اختراق موقع القناة الفضائية المعنية وسرقة وثائقها الخاصة!!

أرادت سلوى أن تقول بأنها لم تسمع أسخف من هذا الكلام لكنها أمسكت عن ذلك . أكدت بأنها ليست قادرة على مثل ذلك الاختراق وليست مضطرة إليه ؛ لأنها تتعامل بصفة مهنية عن طريق مصادرها .

قال لها وكيل النيابة : ما مصادرك ؟

التفتت سلوى إلى المحامي وسألته :

هل يحق له أن يسالني عن ذلك؟

رد المحامي مبتسما :

- له أن يسال وأنت لك أن تجيبي بما تريدين .

- مصادري أمور تخصني ولن أقوم بالكشف عنها .

- ما نوعها؟

- متنوعة؟

- من الانترنت أو خارجه ؟

- من كل نوع متاح .

في أول تباشير اليوم التالي ، وفي الساعة الواحدة من فجر يوم الجمعة كان الثلاثة يوقعون على المحضر ، وأمر وكيل النيابة بالإفراج عنهم بالضمان الشخصي .

بعدها لم يتوان صاحب الموقع عن إغلاق صحيفته الاخبارية الإلكترونية ، لأنه اعتبر ما جرى معه في تلك الليلة نذيرا وإشارة!

بعد زواجها من عبد الله قدم لها زوجها قسما لإدارته في مركز الدراسات الاستراتيجية الجديد ، والذي كان مقر مكتبه الرئيسي في (لوسيل) ؛ فوافقت فورا ولم يبق من تجربتها الصحفية سوى بعض المرارة ؛ لأنها لم تنس ما لاقته من عنت وتصلب في مشوارها القصير جدا . علمت سلوى الآن ودونما أدنى شك بأن عبد الله كان دائما أقدر منها على تقييم الأوضاع والوصول إلى النتائج من دون اختبارها ، وكان لابد لها من التنحي عن السعي لأي مبادرة لتغيير مجتمعها (غير القابل للتغيير) . . بعد .

ما لبث عبد الله بعد سنتين أن أصبح مسئولا عن تأسيس فرع ثان للمركز في بغداد يساعده في إدارته شخصان أحدهما نرويجي والآخر أمريكي من أصل فلسطيني .

لم يكن جون ايرون سوى باحث مغمور يكرس حياته للبحث العلمي ، لعله يوما ما يصل إلى انعطافة تمثل علامة فارقة في طبيعة الطروحات البحثية العلمية الرفيعة . يتمنى ايروين أن يفعل أكثر من مجرد تقديم بحث مميز أو دراسة نابهة لافتة ، إنه يريد أن يثبت فرضياته الفلسفية الأكثر طرافة ونبوغا . تشارك جون وهدى في حضور نقاشات وسيمنارات عديدة جمعتهما ، والتقيا مرارا في محاضرات تنظمها جمعيات ومراكز ثقافية . ثم التقيا مصادفة في مكتب أحد الناشرين ، وعندئذ دعاها إلى تناول القهوة ، وجلسا وتحدثا طويلا باعتبارهما شخصين تتقاطع بهما السبل والاهتمامات .

اعترف كل منهما - بتلقائية تقريبا - بتلك المسافة الفاصلة بين «ترهاتهما» وحقائق العالم الحقيقي وضحكا مليا .

يشعر العديد من الباحثين الأكاديميين بالتهديد الكامل في عالم اليوم ، كذلك يشعر جون! وقد صارح هدى بأنه محاصر! ولا منتم ومبدد! يشعر بأن الحياة الأكاديمية في أكثر الجامعات تزيح عالمٍ الدنيوية وتهمش العالم ، وبالتالي الحياة الإنسانية . يواجه جون مثل غيره حاضراً مفرغاً من أي وعود بمستقبل «إنساني» ، بينما تشعر هدى بأنه عالم تلاشت منه أسئلة التغيير الاجتماعي ودور النخب ، والكتل الفاعلة لم يعد هناك أهمية سوى للنصوص المصمتة ، النصوص في حد ذاتها فقط!

تلهب ظهور الباحثين الشباب لاسيما «الطموحون» مثل هدى سياط خفية ؛ ليكدحوا كالعبيد في ساحات مراقبة ومسيطر عليها

ومؤطرة بقواعد غير مرئية ،لكنها صارمة ومتزمتة ومقررة سلفا . تحض الباحثين لكي يعبروا حدودا مائعة بين الفروع المعرفية المختلفة ، لا لكي ينظروا إلى التاريخ بمنهجية من المناهج بل لكي يمارسوا ازدراء النظريات والنقد القديم والمناهج التكريسية ؛ ليجدوا أنفسهم في نهاية المطاف متساهلين في الشروط المعرفية ، وخاضعين لشروط المؤسسة واغراضها ورغباتها!

لم يزل الباحثون يسجدون في معبد التقاليد والأنساق المعتمدة والآلهة الجديدة .

ما الأعمال التي تحوز رضا العالم ؟ ما الأبحاث التي تنشرها المجلات الرئيسية ؟ ما القضايا التي تقيم الدنيا ولا تقعدها ؟ ما الذي يدفع إلى السجالات اللاذعة ؟ وما الذي يبقي الحياة الأكاديمية حية والأبحاث متدفقة ؟

يأنف جون من كل ما يجري حوله باسم «العلم» والبحث الأكاديمي ، وباسم الموضوعية ذاتها!

ويعيش جون لذلك اليوم الذي ينشر فيه (رائعته) البحثية التي يعد لها ، ويعمل منذ سنوات! لا يهم أن تكون استنتاجاته البحثية صحيحة أو متقدمة أو تمثل فتحاً في حقلها ، بل يصبو جون فحسب إلى إثارة الدهشة وفضح ما يخيم من ترهات ومساومات على أحوال البحث الأكاديمي ومناهجه ، وما يجري في الكواليس من دوافع وأسباب لا تمت إلى العلم بصلة . لا لم يعد جون يحلم بأن يؤسس لحقل علمي جديد! (كان ذلك حلما مر في حياته ، وعليه الآن أن يتخلى عنه ويقنع بما دون ذلك!) يسلم جون بعد كل تجاربه ومعرفته

ومعاناته ، بأن هناك من الباحثين «المحظوظين» من يتطابق بروزهم مع تألق أفكار مرحلية معينة تحظى باقتناع الوسط ورضاه . لقد مل جون من تقريع النظام الأكاديمي وسطوته وعقوباته ، وبدأ بدوره بتوجيه سهام الانتقاد تلميحاً وتصريحاً لكل الآفات الأكاديمية ما وسعه ذلك ، بل لقد كشف مرة عن تحيزه إلى تلك الطرائق «الجديدة» التي شكلتها بعض المناهج ، نظرا لما أشاعته مدارس ما بعد الحداثة من إحساس عميق بانعدام وزن التاريخ وانعدام اهميته .

بينما كانت الشابة الباحثة هدى تتخذ موقفاً علمياً جاداً «تجاه استكشاف العالم (العالم من منظور غربي بالطبع) ، وكان موقفها علمانياً يعلي من شأن كل ما هو أرضي ودنيوي وتاريخي إلى حد ما (وهي بالمناسبة مفاهيم تنتمي بقوة إلى التقاليد الفكرية المادية) .

سألها جون بغتة : إلى أي حد أنت مستشرقة ؟

عدته هدى هازلا ولكنها ردت بتصميم : بقدر ما يتطلب الأمر .

لم يكن جون وهدى على طرفي نقيض في أي مرحلة من علاقتهما ، كانا باحثين بحسب المنظومة الفكرية الغربية التي أنجزت الاستشراق واحتضنته وأرشفته وأعادت إنتاجه باستمرار .

تقاطع جون وهدى حتما في مشتركات توافقية عديدة ، وبقدر ما كانا يبتعدان عن الصدام المباشر مع المفاهيم الأكثر أساسية واحتراما في الحياة الأكاديمية الغربية ، بالرغم من عدم اقتناعهما التام بعلمية البعض منها! تبقى المصطلحات - على غموضها

وضحالتها أحيانا - خبزهما اليومي في النقاش والكتابة والتفكير .

قد تلفت تلك الأفكار والنظريات أصحابها عن العواقب التي تتلوها أو تترتب عليها أو تنجم عنها أو تؤدي إليها ، بل الأنكى من ذلك أن يذهل أولئك الباحثون الجادون عن أهم التناقضات لأنهم أولعوا بالنصية ، وبالغوا في التلاعب البلاغي والفكري إلى درجة إنكار «وقائعية» الأحداث ذاتها ، متظاهرين بأنهم قادرون على أن ينفصلوا عما يجري حولهم ، ومتفاخرين بأنهم يملكون امتياز عدم الانحياز! متناسين بأنهم يعيشون في قلب لعبة الإيهام والإكراه ، الإيهام بأن الباحث غير قابل للتحيز ولا خاضع لإكراهات سياسية وثقافية باسم «التقاليد» البحثية ، وباسم الأعراف العلمية تلك التي تشكل نظاماً كاملاً من المفاهيم القاموسية ، التي اصطلحوا عليها بالتواطؤ والاتباع فأصبحت الكتالوج الملزم لكل مستخدميه .

كان الطموح وقتذاك أكبر انفعالات الشابة الباحثة هدى ، يحدوها ذاك العذاب السامي لإزالة التناقض بين النظرية والممارسة .

لقد تنازل جون عن عدة فرص سانحة ، بسبب جبنه بالتأكيد وتوتر علاقته بالمؤسسة ؛ بأولئك المتنفذين من الحراس الأقوياء الذين يمثلون دائرة ضيقة (تزداد ضيقا وسيطرة على القرار الأكاديمي) . يستيقن جون بأن أفكار أبحاثه الأخيرة لم تنل أي تعاطف «علمي» ؛ فقد تمت قراءتها بصورة معيارية من منظور محدد لذلك ، يصر جون على أن (هناك الكثير من التحيزات السياسية داخل الحرم الأكاديمي) .

يعلم جون بأنها مسألة وقت ليس إلا! وأن مجلس إدارة الجامعة يترصده في إعادة التقييم الدوري ، وهناك أصوات ستكون ضده حتماً (بسبب إصراره على انتقادها في عدة مناسبات عامة) .

في لحظة ما ، كان الاثنان على المستوى نفسه من النظر إلى عالميهما ، كل على حدة ، فهما يعارضان استبعاد ذاتيهما عن النص- العالم دون أن يخوضا في سياقاته (السياسية والاجتماعية والاقتصادية) ، ولم يجدا مفراً (الآن وقد التقيا) من النظر معا إلى كامل المشهد ؛ علاقتهما مصيرهما وعالميهما .

لفت نظر جون في هدى موقع عائلتها الطبقي في بلادها ، وكذلك ثقافتها (وذكاؤها بلا شك) ، كانت هدى تبذل جهدا مضاعفا لكي تبدو ضليعة و«حاضرة» و«مثابرة» (يؤسس ذلك حتما للنجاح في المناصب الأكاديمية) ، وقد تعاطفت هدى تماما مع موقفه حين حدثها عن ظلال التحيز ، وتضامنت مع «قضيته» ؛ وهي التي في الواقع لم تستشعر اضطهاداً ، خلال إقامتها واحتلالها لكرسي تدريس الأدب العربي في الجامعة ذاتها ، ولكنه أثار لديها مشاعر مختلطة من التعاطف والتحنان والترفق .

(كان جون بمثابة الأستاذ المتفوق الذي تتعلم منه ، وشبح الأب الذي فقدته هدى مبكراً وكذلك «الرجل» الذي يحتاج بشدة إلى رفقتها وعنايتها) .

قال لها جون :

- إننا أشخاص منفيون في أوساطنا!

واستدرك قائلا : ليس لدي بالطبع رغبة في أن أناقش أحداً

حول خياره الشخصي في الهجرة من بلده إلى بلد آخر .

قالت هدى : ولكنني لست مهاجرة تماما . لعلك انت من يفكر بالهجرة إلى عالمي ؟

هكذا وبمحض المصادفة ، وعن طريق اللبس في الفهم ، ظن جون أن هدى تطرح بجدية اقتراحاً بالرحيل إلى الشرق ، لاسيما حين أضافت : ولكن لعل ذلك لا يسمى هجرة بل يعد استشراقاً فحسب!

ألم يحدث ذلك من قبل مرارا ؟ ألم يحدث في كل ذروة أو منعطف أو تضييق أن يرتحل أفراد مختارون إلى مواقع أخرى اكثر تفاعلاً مع حركة التاريخ ؟ ألا يجب أن يغادر جون الآن إلى أرض بكر (كما فعل جده جون الأول ، عندما حط رحاله في جنوب أفريقيا) ليبدأ مشروعه الخاص!

هدى ذاتها غادرت عالمها لأنها تحاول أن تصنع تحولاً في مصيرها واختارت جامعة أمريكية وفضلتها على الخيار البريطاني ، ووحددت مصدر جاذبيتها الأساسية في تلك المرونة والأريحية ، والبناء التخييلي لمجتمع أمريكي منفتح متعدد ساحر ، يطلق التنافسية بصورة متساوية ومتكافئة . لم تستشعر هدى القادمة من بلاد «الهامش» اضطهاداً مورس عليها بخلاف جون المقيم في «مركز» الحضارة المتروبولية ، والمنتمي إليها أصولاً وثقافة .

لا ننسى بأن جون قدم من عائلة عصامية هاجرت إلى جنوب أفريقيا في أوائل القرن العشرين (وهذا معناه بأنه كان مثل هدى قادما إلى امريكا من خارجها) ، كلاهما كان يتقاسم شراكة الهجرة

المزعومة ، ويبحث عن الفرصة المنتظرة ، ووجداها في الرحيل معا إلى منطقة الخليج ، حيث كان يتبلور الحدث الأكبر ، وحيث يجري أكبر تدفق إلى المنطقة ، لاسيما للناطقين باللغة الإنجليزية من المغامرين والعاطلين والمستثمرين الجدد ونهازي الفرص ، وربما . . المكتشفين الجدد والباحثين مثل جون ايروين!

قصيدة الغربال والريح

نالت هدى إجازة جامعية عن بحثها في روح القصيدة العربية في القرن التاسع عشر في منطقة الجزيرة . (اكتشفت) هدى أن القصيدة لم تستطع أن تنتزع تاريخها الفردي من حياة العصر الذي عاشت فيه ؛ ولذلك فإن صلتها بالتاريخ واهية وفانية ، وهناك احتمال ناقشته الدراسة بجدية وهو «أن المجتمع في منطقة الخليج لم يزل - هو نفسه- خارج التاريخ»!

جلست هدى مع جون إيروين بعد خروجهما من دار النشر إلى مقهى في الشارع المقابل . تحدثا عن الأدب والتاريخ ، وعرجا إلى الشعر . لم تكن القصيدة العربية - في نظر هدى - منطلقة ولا مسترسلة ومتطورة ، كانت مقولبة ومنمطة ومقيدة ومضبوطة بالشكل والبحور والأغراض ، ثم إن القصيدة كانت متشابهة تمليها على الشاعر غايات أخلاقية عليا ، وتخدم أغراضاً بعينها على الصفة ذاتها من نشدان الكمال ونشدان التطابق مع قيم المجتمع وفضائله المطلقة . إن القصيدة تمثل وثيقة شرف وقع عليها شعراء المنطقة إرغاماً ، حتى الشعراء الذين أمكنهم أن يشذوا في عدة

مواضع بتحايل ومكر ، واستخدام مرمزات في محاولات محفوفة بالخطر ، وكان انحرافهم في نهاية المطاف تكريساً لفضيلة العودة إلى الحظيرة وهذا ما حرص عليه نقاد القصيد ورواته ومكافؤه من الحكام والخلفاء . أفضى بهما الحديث من الشعر إلى مفهوم الحب . لم يكن جون يضع الحب على رأس الأولويات في (أجندته) الشخصية ، ولكن هدى اعتقدت بأن الحديث كان يعبر تلقائياً عن بوادر الانجذاب بينهما! لقد التقيا عدة مرات خلال الشهرين الأخيرين فيما يشبه المصادفة المتعمدة ، ولاحظت هدى أن جون يحك أنفه بسبابته كلما كان متوترا .

قال لها جون : يبدو الحب العربي مزيفاً ومبالغاً فيه . . وموجعا!

قالت هدى : لا يعترف العرب بالحب تماما! ولا يعرفون كيف يمارسونه في ثقافتهم .

حدثته هدى عن القصيدة ، فقالت بأن القصيدة العربية عاشت محافظة على حبلها السري ، محافظة على الاتصال الحتمي بقرون سابقة من الموروثات المرعية احتفظت بنسبها بامرىء القيس وطرفة بن العبد .

عاش الشعر وفيا لمعايير قديمة يستوفي شروطها باطرّاد على حساب أهل الحب أنفسهم ، تماما كما عاش النثر العربي ممثلاً في السير . (ستكون هدى بعد بضع سنوات على أهبة الاستعداد لسرد سيرتها الذاتية باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، باعتبارها سيرة الشرق القادم) في حين أن أمها الدكتورة منيرة لم تنجز روايتها ؛ أما خالتها عائشة فلم تكن تجرؤ على الاقتراب من حافة البوح!

لاحظوا أن هدى ، مثل الدكتورة منيرة ، تؤمل أن تصل بتجاربها إلى وحدة متكاملة من الأفكار والنظرات ، تقوم على قاعدة فلسفية تتقابل مع حقائق عصرها وتجلوها . لم يكن لديها تجربة روحية ولا فكرية (مماثلة لتقلبات أمها) ، ولكنها كانت مقتنعة بأنها (سفيرة) لثقافة الشرق العربي ، وشعرت بأنها مرشحة لدور تؤهلها له قدرات ومواهب و«فرصة» سانحة (وهي أمور متاحة وقد تحظى بها نساء كثيرات) ، ولكن من يملك ذكاء هدى وإقدامها . لقد وجدت هدى في جون بطلها المنشود ، لم تكن الجواذب بينهما ساطعة ولا المشتركات جلية ، ولكن الارواح تأتلف بأكثر الطرق عجائبية ، برغم الاختلاف الظاهري والواقعي .

متى أحست هدى أن جون هو (رجل حياتها) ؟ عندما تبادل الاثنان الإيمان كل منهما بالآخر! عندما استسلما للمصادفات وساهما في صنعها لكي يلتقيا ويتجاذبا أطراف الحديث ، عندما تحدث الاثنان - بتعمد وتصميم -عن أهم المحطات وأنضرها في حياة كل منهما (أراد كل منهما أن يقبله الآخر) . حكت له هدى عن بلادها وعن طموحها وعن أمها ؛ لأنها أرادت أن يعرف من هي ، وتحدث جون أقل مما فعلت هدى (لم يزل مترددا ومنعزلا) عما كان يشعر به وعما كان مستعدا له .

نشرت هدى مقالاتها في عدة دوريات مرموقة ، وعرفها جون إلى رئيس تحرير مجلة (الحياة الثقافية) ، بوصفها باحثة لافتة ثم نشرت لها أول مقالاتها في دورية فرنسية لامعة . نشرت هدى بحثاً في السيرة الذاتية في الأدب العربي ، أوضحت هدى بأن (السيرة

العربية) ، لا تحمل طبيعة ثورية متقدمة على عصرها المترهل والمكبل ؛ بل غلبت عليها نزعة استسلامية متطامنة لمواضعات العصر حتى عند أكثر الشخصيات صلابة ومراسا كابن خلدون مثلا ، لا تستطيع الشخصيات أن تواجه إشكاليات عصرها فتضطر إلى التزام الصمت والعزلة أو التنحي والهجرة .

وإذا كان ابن الهيثم مثلا توجه إلى العلوم العقلية لما اقتنع بأن التوجه إلى علوم الديانات لم يفده شيئا (وكانت تلك شجاعة وافرة منه) ؛ فإن أبا حامد الغزالي بدوره قام برحلة معكوسة وخرج من رحلة البحث والشك ليقذف الفلسفة بالتهافت ثم يرتمي في أحضان التصوف .

تقتنع هدى بأن السير في الأدب العربي ، بما هي معاجم وكتب الطبقات ، وكذلك المغازي وكتب التاريخ ، وكتب الأنساب والمناقب ، كانت أغزر أنواع المؤلفات عند المسلمين ؛ وهي على رأس النثر الأدبي المعروف لدى العرب .

وهي جميعا - برأي هدى - تخضع لأحكام الإسناد والتواتر والعنعنة (عن فلان عن فلان) ، وهي تراجم للرجال والشخصيات من كل مصر وقُطر ، وكثير من تلك الثروة التراثية هو تكملة أو تذييل لما سبقه ، وهامش على متن سبقه ، شرحاً أو تلخيصاً أو استدراكاً يجري على النمط والمنوال نفسيهما ، ويتبنى غالبا الدوافع ذاتها ، وعلى رأسها النزعة الأخلاقية الصرف .

ترى هدى أن تلك النزعة الأخلاقية ، بوصفها مبدأ مثالياً صبغت النثر والشعر معا ؛ ولذلك أصبح الأدب العربي مصطنعا

ومعطلا عن التأثير! ودللت بأن شخصا عبقريا كالجاحظ اضطر - برأيها- لإخضاع التصوير الأدبي لغائية الوعظ لصالح فلسفة أخلاقية محافظة في مصنفاته، بالرغم من تنوع ثقافته واطلاعه الواسع وفهمه الاجتماعي لعصره.

وكان الدكتور جون اروين (هاوي الدراسات الشرقية) يتملقها بالحديث عن الحضارة المميزة لأمة شرقية عظيمة كالمصريين القدماء، كانت متفوقة في منجزاتها الحضارية غير المسبوقة، وفي إحساسها القوي بالتاريخ، وبرغم أن جون كان يستشهد هنا بكلام اشبنجلر spengler في كتابه الشهير (انحلال الغرب) The Decline of the West ؛ فان هدى كانت تنسب ذلك الرأي إلى جون، ابتداءً ربما لأن جون كان ممثلا حاضراً ومكتملاً للحضارة الغربية في نظرها، قالت هدى لجون بنفاد صبر بأنها لم تكن تنتمي - عرقيا - إلى المصريين ؛ بل إنها بالأحرى من فضالة العرب المستعربة، وكل إرثها الذي تحمله (أو تدعي ذلك) يعود تاريخيا إلى مخلفات الحضارة الإسلامية التي قامت على أكتاف العجم من الأمم الأخرى، وبقيادة خلفاء عرب قبل أن تتفكك الإمارات ويأتي المماليك والموالي ثم الأتراك.

قالت هدى لجون: إن العرب أمة لسانية استحوذوا على مملكة الشعر وكرهوا النثر، ولذلك أفسدوه وملأوا النثر بألوان البديع والمحسنات حتى كادوا يجعلونه مقفى كالشعر.

لم تقل هدى بأن أمة الشعراء تلك سببت لها خزيا مضاعفا بسبب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ؛ لأن العرب عندما تعرفوا

إلى التكنولوجيا مارسوا الإرهاب ضد العالم المتحضر .

تحدثت هدى في أحد مقالاتها المشهورة عن شخصية (سيبويه المصري)(*) بوصفه عنصرا حيوياً مخالفاً ، في حضارة عروبية متعصبة . وأخبرت جون بأنها مأخوذة بتنوع شخصية (سيبويه المصري) وتناقضاتها وشذوذها الذي يثير الضحك والرثاء معا ؛ فهو يرمز إلى تحرر تلك الشخصية ومناهضتها لروح عصره ، وللتقاليد الحديدية من حولها . جعلت هدى (سيبويه المصري) مقابلا للشخصية العربية المنمطة ، التي تتحرى قالب البطولة الجاهز ، وكانت تراها كالآتي : شخصية تتصادم مع الظروف لكنها لا تثور عليها!

قالت هدى لجون : يوما ما سأكتب سيرة عربية تضاهي رواية الدون كيخوت لميغيل سرفانتس .

قال لها جون دون أن يعي أن رده سيؤلمها قليلا : هذه الشخصية محببة إلى نفوس العرب .

لم تعقب هدى على رأيه . تردد هدى نفسها ، في كل مناسبة ، أن البيئات العربية المتلاحقة لم تنبت شخصيات تراجيدية عظيمة في الواقع أو في الفنون الدرامية التي استوردت بدورها جراء الاتصال بالغرب ، وكان اتصالاً قهرياً عبر الغزو والاحتلال والاختراق .

(*) (أخبار سيبويه) لمؤلفه ابن زولاق ابي محمد الحسن بن إبراهيم توفي في مطلع القرن الرابع الهجري .

ترجمت مقالات هدى بعد سنتين إلى العربية ، وهوجمت بشراسة في مجلات ودوريات ثقافية متخصصة في البلاد العربية . أثارت مقالاتها إجمالا استياء في الأوساط الثقافية والأدبية العربية ، وهوّنوا من شأنها «العلمي» ، واعتبروه تنفخاً وتعالماً! لاسيما ما ذكرته هدى من أن العرب أمة استفاضت في كتابة السير والتراجم ،وكتب المناقب والفضائل والتاريخ ، وأن تلك (الاستفاضة) في كتابة السير للعظماء والحكام كانت في الواقع تسجل فضائل عصرها وتكرس قيمه وتمجدها ، وترفعها إلى مرتبة فوق الانتقاد ، وإعادة النظر فيها ، بل إنها تجعلها عبراً وعظات أخلاقية ، وتحيل العصر كل عصر إلى مثال يحتذى! وأشارت هدى في مناقشات الرسالة بأن السير كأهم نوع نثري لم تكن تدور حقا حول الحكام والشخصيات المهمة ، بوصفها شخصيات لها متناقضات واجتهادات وأخطاء ، بل كانت تعتني بصورة غير مباشرة بصلتهم بالأحداث الخارجية الرئيسة في عصرهم ، وآثار ممارساتهم وسياساتهم بغاية تمجيدها ، وكانت السير تورد صفات خلقية وأخلاقية قد لا يتحلى بها أصحابها على ذلك النحو الاستثنائي المذكور ، ولكن السيَّر كانت تطرح ما ينبغي أن يكونوا عليه ، ولم تكن تقدم الأعلام بأشخاصهم بل كما تقرر مناصبهم ومقاماتهم ومراكزهم ، وما تمثله من قيم افتراضية معتبرة .

تابعت هدى بحماسة مقالاتها سعيدة بما أثارته من ردود أفعال وكرّرت مقولاتها وحرصت على تأكيدها في الحوارات التي أجريت معها لاحقا على فضائيات لبنانية وخليجية ، ولم تتحرج من القول

بأن الأدب العربي أدب سيري يدور عما حدث وعما جرى للعظماء وبسببهم ، وأكثرها سير مزورة لا تجسد الشخصيات كما هي في الحقيقة ، وإن كانت مفيدة فيما يخص توضيح أحداث العصر ومفاصله المهمة ، وقد كتبها أصحابها كثيرا بولاء مدخول مصطنع لذلك تظن هدى - باستقرائها الخاص - أن (الكتابة) العربية لم تخضع للتطور ، سواء شعرية أم نثرية ، إلا في أمور شكلية وسطحية ثم صارت النقلة وثبة خارقة إلى فنون جديدة تماما وكليةً إلى فنون الأدب الحديثة ، جاءت من الغرب كالقصة والرواية والمسرح وحتى السيرة الذاتية الحديثة . لم تنفك هذه البيئات العربية تنظر إلى الفرد ، من خلال طقوس عبادة الفرد الأوحد المتسلط الممجد ، والرغبة في تخليده ونمذجته بوصفه تجسيدا لقيم ثابتة لا تتحول ولا تتبدل . لذلك شاعت السير بوجه خاص وانتشرت واتخذت رداءً شعبيا في السير الشعبية والملاحم ، وكتبت بأسلوب دارج واهتمت بحيوية القص ، وسرت كالنار في الهشيم في ليل السامر والتجمعات الشعبية ، وعلى ألسنة الرواة . عرّجت هدى على ما قدمه الجاحظ في بغداد من أدب نثري اتسم بتحليل اجتماعي ودروس أخلاقية ، وضمته إلى ما قدمه كتاب السيرة التاريخية في مصر كالبلوي وابن زولاق وابن الداية ، فجميعهم في نظر «الباحثة» هدى يمثلون استدلالات تطبيقية لنظراتها في الأدب العربي .

أما عدد من النقاد فقد اعتبروا أن هدى ذاتها تجسد التفاهات التي تتردد في أروقة الجامعات الأمريكية المتوسطة من خليط ملتبس من المقدمات الخاطئة والاستقراءات غير الدقيقة ، والتي لم

تكن تحتاج إلى عقول عبقرية لكي تعيد صياغتها في دراسات يعتمد بعضها على بعض ، في مرجعية مكرورة كربونية للمقولات والآراء نفسها .

لا تستطيع هدى وأمثالها من الباحثين «المتمردين» أن يدركوا ثقل مسؤولية البحث العلمي وتبعاته الجسام ، لأنهم يظنون بالفعل أنهم مخولون بحكم الحرية البحثية والخيارات الكافية (كما يتصورون) أن يدهشوا العالم وأنفسهم ، بيد أنهم في الواقع منقادون بثقافة «التوصية» (وإن لم تكن وصاية مباشرة فجة) .

قد تأتي التوصية بوصفها الثقافة الإحلالية التي تملأ الفراغ وتزحم الأفق . لم تقرأ هدى من كتب التراث التي تكتنز بها المكتبة العامة إلا ما أرشدها إليها وزكّاه مشرف الرسالة ، ولم تكن تجيد فهم اللغة العربية ولم تستطع تذوقها كما كان يكتبها ابن خلدون والغزالي والجاحظ ؛ أو حتى محمود شاكر والعقاد وطه حسين والرافعي ، وكانت تشعر بأنها لغة ميتة غير بصيرة ، ولغة مثقلة وصعبة ولا تتسم بالاختزال والوقوع مباشرة على الهدف ، ولذلك كانت تفضل أن تقرأ ما كتبه المستشرقون عن العرب والمسلمين .
وفي النقاشات التي جمعتها مع مدير مؤسسة دار نشر ومشرف رسالتها الجامعية ، تحدث الثلاثة عن كتب معينة مطروحة في المحيط العلمي! لابد من الاعتراف بأن هناك في الواقع ثقافة تتسم بكثير من الاحترام ، ولم يكن من الحكمة أن يتنصل الباحث من اللجوء إليها وتطعيم أبحاثه بها أو اتخاذها منطلقا لدراساته وخياراته الشخصية في دراساته العلمية . لم تكن هدى تخشى شيئا أكثر من

التلميح بأنها لم تكن مستعدة بعد للمضي أبعد مما يفعله زملاؤها في دراساتهم وأبحاثهم الشرقية ، أولئك الذين أهلتهم معارفهم وأبحاثهم المنجزة للحصول على فرص للتدريس في جامعات كبرى ، فضلا عن الألقاب والأولوية والتفضيل لدى دور النشر الأوروبية ، بسبب اتصالهم الوثيق بخزان المعرفة والحكمة في مواطنها .

لم تعلق منيرة كثيرا على «الشهرة» التي نالتها أطروحات ابنتها ، لأن منيرة عبر السنوات الأخيرة لم تكن تحمل أوهاماً كبيرة بشأن مواهب أبنائها وتوجهاتهم ، ولكنها فوجئت بتلك النبرة الاستخذائية التي لم تكن مبررة لديها حتى بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وعواقبها ، لأن منيرة (التي تعيش في قطر) ترى أن جماعة أو حتى تياراً ضالاً من التيارات لا يستطيع أن يلطخ تاريخ أمة بأكملها بالعار ، ولا أن يشين ثقافة بأسرها . وكيف يمكن أن يقع ذلك ؟ إن حمامات الدم التي اجترحتها الحماقات الأمريكية وجرائم الإدارات المتعاقبة في القرنين الأخيرين في بقاع العالم من فيتنام حتى العراق لم تقبر الحضارة الغربية ، ولم تخلف آثارا تدميرية على شخصية (الأمريكي الهادىء)(*) ، ولم تدمغ أمريكا إلى الأبد بأنها (بلاد الكلاب الكبيرة)(*) . ربما كان على جون اروين بعد غزو العراق وأفغانستان أن يظهر كثيرا من التحرج إزاء سياسة بلاده لاسيما حينما كان يزور بلادا عربية كالقاهرة وبيروت ودبي . ولكن لماذا تشعر هدى بأنها مضطرة للكذب

(*) عناوين لأعمال أدبية أمريكية شهيرة .

والادعاء بأنها مكسيكية وتدعى هاديا ؛ لكي توفر على مرافقها جون كثيرا من العنت والمعاملة الخشنة التي قد يتعرضان لها في بعض المدن الأمريكية أثناء سفرهما معا! أخبرت هدى جون بأنها تفعل ذلك ، على الأخص لأنها تخجل مما حدث ، ومستعدة للتكفير عنه بهذا القدر من التنكر لهويتها ، وبالطبع فقد مضت هدى شوطاً أبعد من ذلك في رحلة التكفير في رسالتها للدكتوراه .

رأت منيرة أولادها يسيرون تحت راية الثقافة الغالبة ، هدى تفعل ذلك في أمريكا ، بالقدر الذي يقوم بذلك طارق بإخلاص في باكستان وأفغانستان ، بينما كان عبد الله تعبيرا ثالثاً عن الحالة الراديكالية ذات الشعب الثلاث ؛ إنهم مخلفات جاهزة لعالم المناطق الفاخرة وقيم التميز والرفاهية ، وثقافة الحقوق المعولمة ؛ الجنس والبذاءة والترقي الشخصي والترفيه . إن المرء حر بقدر ما يتحالف مع قدره المقدور وهذا معناه انه إما أن يكون مستقبلا جيدا للحداثة وإما أن يكون مصدّرا لها .

أنا وأمي

بينما كانت هدى جالسة تحتسي قهوة الصباح انكشف لها فجأة الستر عن حقيقة الأمر : إن زوابع أمها وترهاتها المتكررة ليست ذات علاقة بالفجوة بين الأجيال ، بل تعزى فحسب إلى الاختلاف بين المرأتين ، أمها لا تعترف بالتعدد ولا تقبله لأن طبيعتها أحادية ، ولأنها امرأة بسيطة وسطحية وضحلة تماما!

لم تكن هدى قد ناقشت علاقتها بأمها مع جون! بدا لها أن

رأيه مفروغ منه ؛ إنه ينظر إلى الأمر بحيادية! لطالما أشار اليه بوصفه (أمراً يخص الأم وابنتها mother daughter thing) لكن هدى لم تعد تحتمل أن تكون أمها ضدها بهذه الطريقة «الفاضحة» ، وتمتمت ذلك الصباح وهي لوحدها «أنا بما أمثله . . أنقض ما تمثله» ، أدركت هدى بأنها تجعل أمها في الجانب الخطأ «ليس لأنني لست على صواب دائما ولكن لأنني أنا ما أنا عليه وأنا ابنتها! يجب أن أكون امتدادها!! إنها ترفضني ، ترفض وجودي ؛ أي نوع من الامهات يفعل ذلك!»

طفرت دمعة صغيرة من عينيها مسحتها بظاهر كفها .

هل الفرق بين هدى وأمها أن الأولى لديها طموح أكبر من الأخرى ؟ هكذا قالت هدى لأمها في نهاية النقاش ، وبدت كلمة «طموح» إكليشيهاً مبتذلاً . أرادت منيرة أن تقول ذلك لابنتها ، وأرادت أن تعبر عن قناعتها بأن الطموح ليس منجزا في حد ذاته ولكن الكلمات بدت باهتة وبلا لمعان . . ولا تستحق التصفيق . لم تحاول منيرة تفادي الحوار الشائك مع ابنتها ولم تسع إليه أيضا ، ولكن لا شيء يتغير! التنميط والتأطير بشعان وهما أكثر بشاعة حين نسلطهما على المقربين منا! إنها آراؤنا السلبية ليس إلا .

يوسف مثلا كان سيد التفاؤل الإجباري ، من أولئك الأشخاص الذين يكرسون أنفسهم لأهداف صغيرة! شخص قد تتعاطف معه أحيانا ولكنك تحتقره في قرارة نفسك . شخص يحتاج دائما إلى من يتفهم أسبابه ومعاناته الشخصية ، لكنه ليس سوى شخص طفيلي من النوع الذي تجد اسمه في قائمة الانتظار

لتولي مسؤوليات يرشح لها ، ولكنه غير مؤهل للنجاح فيها .

وهدى تشبه يوسف من عدة وجوه! تضع هدى نفسها في خانة المثقف المأزوم ، بل إنها تظن بأنها قادرة على تغيير مصيرها الفردي (غير مبالية بمصير جماعتها) ؛ لقد هجرت قومها من أجل نفسها ، ثم عادت تسعى إليهم مجددا من أجل نفسها كذلك ، متأبطة ذراع جون وعالمه وثقافته .

تنظر هدى بدورها إلى أمها بازدراء خفي ، وترى جليا أن وراء لامبالاة أمها بحثاً يائساً عن بطولة!!

ما البطولة أصلا ؟؟ تضع أمها معايير لا معقولة لكي تجتهد في التعالي عليها وتقفز فوق الحاضر ، وتلاحق دائما سراباً مطلقاً يلوح لها وحدها ، يخايلها من مكان ما خلف الواقع! إنها شخصية إسقاطية تُسقط ما تعانيه على من حولها! كم أهملتهم!! كم أهملت ابناءها! وكان ذلك - في الواقع - أمراً لصالحهم جنبهم اضطرابها وتأرجحها وانشغالاتها بمجدها الشخصي .

تؤمن هدى بأن الحياة تتقدم بلا انقطاع! لا توجد بطولات! إنها فقط منجزات محددة وشخصية . أمها تعيش في سبيل التعويض! أما هدى فتعيش الحياة بمعطياتها ، حريصة على تحقيق أمثل استغلال . تعتقد هدى وهي (الآن) في أوج اختيالها الفكري بأن حرية التفكير هى الأساس! وهي الأصل! وتؤمن بلا أدنى شك بأن أنظمة الفكر مفتوحة تماما وبراغماتية ، أما أصحاب الإيديولوجيات ، على اختلافهم ، فهم محصورون في الداخل ولن يقدموا شيئا ذا بال!

عاشت هدى ردحاً من الزمن في الولايات المتحدة ، وتنقلت بين مدن غربية ، ولم تصادف من لا يعتقد بوجود إله - كما قد يتصور المسلمون - بل دائما هناك إله ؛ فالطبيعة إله ، والمال والفكر والتقدم والعلوم . . والطموح .

تجد الدكتورة منيرة نفسها على هامش العالم ، على هامش اهتمام أولادها ، على هامش حياة يوسف وتفكيره! الأسوأ من ذلك أن منيرة ليس لديها مكان تذهب إليه! لأنها لا تملك «طموحا» عصريا!! تقاوم منيرة لكيلا تسقط في النسيان . وكانت تعول على انها ستفلت من ذلك المصير مصادفة ، بتوفيق ، بتدبير قدري ، تحولت منيرة بمرور الوقت إلى مضطهدة مستسلمة تستمرىء بإمعان يومي عذاباتها . تستطيع احتمال كل شيء إلا أن يقال عنها بأنها شخصية بلا طموح!! يوسف كان صلتها الانفعالية (وليست العاطفية فحسب) بالعالم الخارجي! كان يوسف صورة العالم المتقلب المخادع الجاحد . قررت الدكتورة منيرة - نكاية في الآخرين- أن ترشح نفسها في دورة مجلس الشورى ؛ لكي تثبت بأنها أهل لطموح المرحلة وتحدياتها ، عندما تطلبها ، واستعانت بهدى على وجه الخصوص في حملتها الانتخابية لتكون شاهدا . لم ترث هدى شيئا من أمها! بل لم تكن تنظر إلى أمها بوصفها قدوة أو دليلاً . كانت تنظر إلى آخرين باهتمام يفوق التفاتها إلى حياة أمها ومعاركها وتاريخها . تختلف منيرة عمن حولها وعن ابنتها فهي ؛ لا تستطيع اصطناع فكرة عن نفسها كما يفعل الآخرون عن أنفسهم . لقد حررتها علاقتها بيوسف من ذلك

التصنع ؛ لأن حبها ليوسف ، حررها من وجود العالم وثقله فلم يعد موجوداً إلا هي ويوسف في فراغ .

كأنما تشرف منيرة من علٍ وتنظر إلى العالم فترى عالم الشقاء بالمطامح والخلافات الصغيرة والمتع الفاجرة! فتقرر أن تصمت وترحل بهدوء!

أما هدى فقد فرزت كل الفرص المتاحة لها في الوطن ووجدتها «خائبة» ؛ فرحلت إلى أمريكا لتقيم وتدرّس الأدب العربي وتبقى هناك . وجدت في جون شريكاً مثالياً . لم تقدم هدى على مجازفة ، لم تترك نفسها لمفاجآت ، ولم تخل علاقتها بجون من عاطفة حقيقية ، وكانت الفضيلة الأسمى في نظرها هي تحقيق النجاح وبلوغ الهدف . ينظر جون وهدى إلى علاقتهما بجدية ، وهذا يكفي لجعل خطواتهما تسير بانسجام وتكامل لإنجاح مشروعهما المشترك للعيش معا . نظرت منيرة إلى الزوجين بنظرة شفقة أكثر منها سخطاً ، وجاء اقتران هدى بجون في وقت كانت أمها أضعف من أن تقاوم ما يحصل من حولها ، فقد انهار بيت الأسرة الواهن !

كان طارق متوارياً آنذاك تلاحقه الانتربول بسبب عدة قضايا ، منها اعتداء وتزوير ، وشرع عبد الله في تأسيس امبروطوريته متنصلاً من كل الأعباء غير الضرورية .

ماذا على منيرة لو اضطرت للانسحاب من الانتخابات وهي تجر أذيال الخيبة والاستسلام . . حتى الحب في صورته النموذجية ينتهي أيضا بموت أو فراق . .

فرضيات جون

كان جون يكرر مقولة وليام جيمز «إن لنا الحق في الاعتقاد على مسئوليتنا الخاصة بأي فرضية فيها من الحيوية ما يستهوي إرادتنا» ، تحتاج فرضيات جون أن تبرر صدقيتها باستمرار عبر إثبات كفاءتها ، ولكن تكرر الإخفاقات في حياة جون دفعه إلى أمرين ؛ الأول : الشك بأن المشكلة لا تكمن في قدراتنا المحدودة بل في الفرضيات نفسها ، والآخر الاستنتاج بأنه يعيش حياة أكثر تفاهة من حياة أبيه! كان عليه أن يعيد التطبيق مراراً ، فالتطبيق تحد للفرضية واختبار لصحتها ، ولكن ربما كانت حياة جون تحدياً لفرضية أخرى لم يستطع مواجهتها! إن أهمية انفتاحنا على خبرات متجددة قد تبرهن على أن فرضياتنا المسبقة غير مؤثرة .

هل يحذرنا بيرس من التعلق بمعتقد متشدد قبل الأوان!! لم ينتبه جون لذلك فهو مثل أكثر الناس ، يغمر اهتمامه ببعض الأفكار بالأضواء ، ويطمر الأخرى تحت ركام النسيان . ناقش في بعض أبحاثه فكرة التماثل بين السلطة المؤسساتية والتسويغ الفكري ، واقتنع بأن التماثل لا يكون على أكمله دائما ، كما أن التفويض المؤسساتي لا يمتلك قوة الإلغاء الانتقائي ، الذي يعزوه إليه بيرس! يعتقد جون إذاً بأن الخطر يتمثل في أناوية جماعية متسلطة تجعل نفسها في مأمن من تحدي المعارضة ، وتنكر على الآراء الأخرى فرصة الاستماع اليها دون تحيزا! وقد تتصلب (السلطة) فتغدو تسلطا عقائديا بحجة الحيلولة دون (الفوضى) التي تصاحب الثورة المستديمة .

لقد مارس جون - لفترة كافية - تدريس الدراما والشعر واللاهوت، وله مصنف ثقيل وممل، يحمل عنواناً معقداً، لم يعد أحد يذكره. مال جون في مرحلة مبكرة من فكره إلى روسو، وشاطره الرأي بأن تقدم العلوم والفنون قد أدى إلى فساد البشر، لا إلى تقدمهم، لذلك تغدو الفطرة الجمالية تعويضاً عن محدودية العقل ويغدو الفن مجالاً للبحث عن الحقيقة! ألم يكن كانط في كتابه (نقد العقل المحض) هو أول تحد حديث للقول بأن العقل البشري يقوم على الحقيقة. لن يتخلى جون عن روسو تماما! لاسيما عندما يرحل إلى الشرق، حالماً بتدشين مشروعه البحثي، متأبطا ذراع امرأة شرقية لم تكن تحفل كثيرا بشرقيتها!

الليمبو

فر جون من التربية الدينية الصارمة التي لقنها إياه أبوه في سني حياته الأولى في كيب تاون في جنوب إفريقية، واضطر أن يهجر أسرته مبكراً في أول فرصة سانحة عندما بلغ رشده عائدا إلى أمريكا، مرتحلا إليها باعتبارها الأرض الجديدة، مضطراً أن يبدأ عصاميا لأن والده رجل الإرسالية المتصلب قطع صلته به، منذ أن غادر جنوب إفريقيا. ترك جون كيب تاون نازحاً إلى شيكاغو المدينة الكبيرة، تنقل بين الأعمال الدنيا وعانى كثيرا، حتى وضع قدمه على الدراسة الجامعية متأخرا قليلاً عن أقرانه، بعد حصوله على منحة دراسية. منذئذ لم يتخل عن مشروعه في العزلة والاستقلالية اللتين لن يستلبهما منه شيء حتى الموت، كما يقول

لنفسه عادة ، ومنذئذ يمارس التفكير والتأمل والكتابة في كل أوقاته حتى وهو يحلق ذقنه . عندما رحلت لويزا دامعة مغضبة إلى نيويورك ، بعد أن تبين لها عزوف جون عن الالتزام طويل الأمد . لم يفتقدها تقريبا بل شعر بعد رحيلها بنشوة البقاء وحيدا فريدا ، وخرج يتمشى ، فواتته أكثر الأفكار ألمعية منذ التقيا ، فجلس كيفما اتفق على قارعة الطريق ، ودون أفكاره خلف بعض الفواتير .

كانت وحدته أكثر واقعية والتصاقا به من كل ما مر به من تجارب وسفر وزملاء وعلاقات عمل ؛ وقد ظل طويلا يتمنع أمام كل تقدمات الحب حتى صادف هدى ؛ فقدمت إليه وعد الحب اللانهائي ، وخر صريعا أمام السحر الشرقي .

الشاعر الصانع المتصنع

تعني كلمة شاعر في الإغريقية (الصانع) ، أما في الآرامية وغيرها من اللغات الشرقية فتعني (المغني) ، وفي الجاهلية قالت العرب : أنشأ الشاعر وأنشد الشاعر ؛ فالعرب ترى أن أحسن الشعر ما جاء عفويا غير مصنوع ، على عكس المتأخرين الذين افتخروا بصناعته وتزيينه وتحبيره ، ومنذئذ أصبح الشعر يتأرجح بين الصناعة والغناء إلى يومنا الحاضر . انتقلت الشعرية العربية المشرقية إلى الأندلس عبر شعر المجون والزهاد ، وكذلك المجانين والعذريين ، الحب العفيف والحب الدنس معا .

وراج ذلك الشعر وانتشر لأنه شعر يغنى ، وانتقل إلى الأندلس عبر زرياب وبناته وجواريه ؛ وقد وصل زرياب إلى الأندلس بعد

أكثر من قرن من دخول طارق بن زياد المغرب في عام ٧١١ ميلادي ؛ أي في القرن الثامن الميلادي .

أصبح المستعربون والمسالمون والمولدون والمدجنون جميعا حلقة الوصل بين أهل الممالك الإسلامية في الجنوب ، وممالك المسيحيين في الشمال . وغرب البلاد دون جبال البرانيس ، على امتداد القرون الثمانية الأندلسية المديدة .

أصبح الحب في البلاد الأندلسية ، ذلك الحب الذي تحتفل به الموشحات (التي وضعت لكي تغنى على وجه الخصوص) حباً محمولاً على التظرف ، وأقرب إلى المجون ، وشائعاً في مجالس اللهو والشراب . ذلك النمط من الشعر الأندلسي العذب المغنى ، انتقل إلى الممالك المسيحية ، وبلغ إيطاليا في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، عن طريق شعراء تلك الممالك المسيحية والشبان المسيحيين الموهوبين ، الذين أولعوا بذلك الأدب وما فيه من جمال عجيب .

قاد البابا أنوسنت الثالث في ١٢٠٩ حملة صليبية ضد الجنوب الفرنسي الوثني وأنهى بالحملة الألبيجية ازدهار ذلك الشعر الوجداني الجديد ، الذي ولد من التأثر بالعرب في أوج ظلمات العصور الوسطى ، وشرّد شعراء بروفنس ؛ فهرب منهم نفر إلى شمال غرب فرنسا ومنطقة بريتاني ، وصاروا يدعون باسم تروفير ، وهاجر جزء منهم شرقا إلى إيطاليا وتغنوا بعامية لاتينية جديدة اسمها الإيطالية ، وتسموا باسم تروفاتوري ، وبلغ بعضهم ألمانيا وصنعوا شعرا باللغة الجرمانية يدعى شعر المينيسنغر ، وهكذا

تسبب البابا في انتشار ذلك النوع الجديد من الشعر الوجداني في أصقاع أوروبا منذ اواخر القرن ١١ ، حتى جاء أكبر شعراء إيطاليا دانتــه إليــجيــري ؛ فكان أول رجل أوروبي يدافع عن فـصــاحــة العامية .[١]

نظم كوميدياه الإلهية في عام ١٣١٤ بالإيطالية (عامية اللاتينية) ؛ وقد عرف دانته فضل شعراء بروفنس ، فأثنى عليهم إلا أنه لسبب ما لم يشر إلى الجذور العربية في شعر العاطفة ، بالرغم من انه أمسى من الراجح أن دانته كان يعرف الاسراء والمعراج التي رواها محي الدين بن عربي في الفتوحات المكية ، ولابد أنه قد اطلع على رسالة الغفران كذلك .

وازدهر الشعر الوجداني الأوروبي لمدة قرنين في ظلمات العصور الوسطى ؛ لأنه سار في نظامه وقوافيه ومعانيه على تقاليد الشعر العربي ؛ إنه شعر عبر عن صنوف اللوعة والسهر وذلك من معهود الحب العذري الذي رفع قدر المرأة المحبوبة تلك المرأة التي لم تظهر قط على تلك الصورة في الموروث الإغريقي ولا اللاتيني ؛ بل هي تخالف التصور الكنسي للمرأة . إنها ببساطة المرأة على الصورة العربية والتي ظهرت بياتريس على صورتها في الكوميديا الإلهية لدانته اليجيري ، وهي ذاتها هدى التي وجدها جون مرة أخرى .

التفت الباحثون الغربيون أنفسهم إلى مفهوم غريب من الحب ظهر أول مرة في شعر الجوالين بلغة بروفنس ، وبحثوا عن مصدره

---

(١) ذكر ذلك الباحث د . إحسان عباس رحمه الله في كتابه (الشعر) .

لأنه لم يكن في تراث الإغـريق أو الرومـان أو في آداب القـرون الوسطى اللاتينية ما يشبهه!! لم يكن شعر أولئك الجوالين في القرن ١٢ الميلادي إلا مقتبسا عن الموشح الأندلسي محاكيا له شكلاً ومضموناً وموافقاً له في اتخاذ العامية ؛ فالأول كان بلغة عامية عربية ، والآخر بلغة بروفنس اللاتينية العامية .

قال جون لهدى وهما ينتظران الدكتور هربرت صديقه ومشرفها :

- كانت محنة الغزالي من أهم الأسباب التي دفعتني إلى زيارة عواصم عربية وإسلامية ، بحثاً عن روح الغزالي ، هناك لكنني يجب أن أعترف لك بأنني لم أجدها أبدا!!

أمّنت هدى على كلامه :

- كان الغزالي باحثاً حقيقياً في إحدى مراحل حياته على الأقل . . أما اليوم فلا يوجد (بحث) ولا فلسفة في الشرق العربي!

كان جون يعكف أثناء أسفاره المتعددة تلك ، على إعداد مقالات ينوي جمعها في مؤلف جديد استثنائي يتحدث فيها عن الكوميديا الإلهية ، متصورا نفسه مكان دانته أليجييري ، جاعلا من الغزالي بالذات مرافقه في رحلته إلى الشرق . اختار الغزالي في عهد شكه واعتلال نفسيته في محنته (الإنسانية) كما يصفها جون . وكانت المقالات التي كتبها جون لم تنشر بعد ؛ فقد كان جون متردداً وعازفاً عن عرضها للتصحيح والتنقيح بعد . بعد زواجه من هدى شجعته على نشر بعضها ، وقد طبع باللغة الإنجليزية ، وترجمته هدى إلى العربية ، ولاقى تقديرا مبالغا فيه في البلاد

العربية . تبدأ أولى المقالات بالاثنين (جون وأبي حامد الغزالي) ، محبوسين في الليمبو ، حيث كان الشعراء الجاهليون والأبطال القدريون والفلاسفة المسلمون والوثنيون يعيشون حالة فكرية إنسانية سامقة في جبل الليمبو ، في مكانهم الأبدي وحيث يتصور جون -لسبب ما- أنه ينتمي إليهم ، يتناكف ساكنو الليمبو ، ويعيشون بلا أمل ، على شفير واد من القلق المستعذب ، ولكن بلا ندم تقريبا ، ويسمع جون صوت دانته في النشيد الرابع - الليمبو

(إنهم بلا خطايا ، وفضائلهم
لا تكفي لشفاعتهم)

تحدث جون طويلا لهدى عن مشروعه الكبير ، كتابه عن الليمبو (كان لديه في الواقع أكثر من مشروع) وكانت هدى وقتها تنصت إليه بوصفها العاشقة لا الباحثة . يظن جون بأنه يتعين على المسيحيين اليوم أن يجدوا النجاة عبر الإيمان بالحضارة الغربية ، التي يجب أن ينقذوها عوضا عن أن ينتظروا خلاصهم على يديها . يؤمن جون بالعدمية بوصفها فلسفة ذات مظهرين متناقضين ومتوازيين (العدمية باعتبارها انحطاطا ، والعدمية بوصفها أفقا) ، أصبحت الحياة اللاهثة والصاخبة والسريعة تدفع الإنسان إلى فضائل اضطرارية في عالم اليوم ، مثل الربحية والتنافس والإنجاز والتميز والمظهرية ، بحسب المواصفات والقياسات المطلوبة حتى لو لم يشكل الأمر إنجازاً فعلياً . وهذا الأمر الأخير يشكل خرقاً للعالم الذي يعيشه الغرب بين الصورة التي يدعيها والصورة التي يقدسها ، بين الشعارية والواقع الفعلي المفارق! لا جرم أن تصبح العدمية ،

بوصفها فلسفة وتصوراً واتجاهات فنية وفكرية ، وحتى باعتبارها أنماطاً سلوكية هي الاختيار الأمثل والأكثر انسجاما .

ويرى جون (الهيدغري) ، ان المسيحية مثلت العدمية السالبة أو النافية ، فهي تقوم على إنكار الحياة وتبخيس الجسد ، باسم تقويمات وتأويلات تقدم ذاتها باعتبارها الحق المطلق ؛ لذلك جاءت الثورة المضادة (العدمية الارتكاسية) رد فعل ضد ذلك العالم المفارق ، وقامت بتبخيس القيم المقدسة والمثل العليا ، لينفي العدمي وجود المتعالي ، والخير المطلق ، والحقيقة المجردة ، باسم العلم ورفضا للاهوت والعبودية .

ولكن الثورة المضادة قدمت بدورها قيما بشرية أحلت الأخلاق محل الدين ، وقيم الربحية والديمقراطية والعقلانية والتقدم محل القيم والمثل العليا اللاهوتية الزهدية . حقا لم يؤد استبدال القيم الإنسانية بالقيم اللاهوتية تغيرا في جوهر العدمية ، ولكن لم تنف الحضارة الغربية ذاتها مهما تطورت تراكما واستمرارية .

الحب اللانهائي

عندما زارته هدى لأول مرة في شقته في حي هادئ في الشارع السادس ، كان جون يعاني بعض الزكام ، واعتذر عن اللقاء الذي كان متفقا بينهما ، بينما أصرت أن تعوده مريضا ، قال لها مرحباً لا بأس إذا كنت مصرة! حملت إليه بعض الورود وكانت متوترة جدا ؛ لأنها في الحقيقة تفعل ذلك على سبيل الاختبار لمشاعرهما . دعاها للجلوس على أريكة بنفسجية في غرفة معيشة

تميل إضاءتها إلى الخفوت ، وذهب يحضر القهوة ، بينما جاست هدى بعينيها في أنحاء شقته التي بدت أشد ترتيبا ونظافة مما توقعت . رأت وهي تنتظره كلمات مكتوبة بعناية بخط لاتيني قديم ، وهناك اعتناء بالإكسسوارات التي كان بعضها إفريقياً .

أحست هدى باطمئنان لوجودها في بيت جون ، وشعرت بشيء من الانتصار ، تحدثا طويلا في تلك المرة . لقد وجد جون في هدى بياتريس كوميدياه الحية .

حفزته المسالة الصدامية القائمة في الكوميديا الإلهية بين المسيحية وبين الوثنية اليونانية على التوجه نحو الدراسات اللاهوتية ، قرأ في الأديان والملل في الشرق ، واهتم بالإسلام على وجه الخصوص ؛ لأنه مهتم بفكرة الدين العقائدي الشمولي . يريد جون ان يضع القضية في إطارها الإنساني العام ؛ ليثري مشروعاً للكتابة عن (الغرب الجديد) يصنف نفسه تائبا متأخرا ، أحد نزلاء المطهر البشري ، وشعر بأن هدى «موجودة» لتعينه على بلوغ مستوى من الطاقة والامتنان ، إنها تقف مثله على أعرافها ، ووجد نفسه مدفوعا إلى التفكير بجدية في الارتباط بتلك الليدي القطرية ؛ لأنها كانت جديرة بأن تكون بحق بياتريس حياته التي يبحث عنها .

كانت دانته مثل جون يسخر طوال الوقت من البابوية والنظام الكنيسى ، ويزدري العقائد الدينية المتعصبة ؛ لأنه مثل جون كان مؤمنا فريدا استثنائيا فالمؤمن حقا من لا يخشى مناقشة العقائد ومعارضتها أحيانا ، وكان دانته يتحدث بحرية وعنفوان عن الإيمان

ويناقش العقائد ، ولم يكن يتحدث عن المسيح والخلاص بشكل خاص ؛ وهذا ما جعله فريداً ، وهذا ما جعل كوميدياه تعد مطالبة بحرية الإيمان وتحرير الإرادة .

هذه الكوميديا التي أثارت الفوضى في العالم السفلي ، فدانته يعرّض بالقوانين التي تحكم العالمين العلوي والسفلي معا ، لاسيما حين يلمح إلى كل ذلك التنافر والتطرف والانحراف والتجاوز في موازين العالم السفلي ومعاييره ، وحين يتهم اليوم الآخر بالتخبط ! فالبعض من نزلاء الجحيم ، كما افترض دانته ، كان يجب أن يكونوا بفضائلهم الطبيعية في الفردوس ، كما أن هناك كثيرا من الشخصيات الوثنية والتي تفوق بهاءً وجلالاً شخصيات معروفة من فضلاء المؤمنين ، تعجب دانته متهكماً ومستنكراً سقوطها في الجحيم!فقد قارن دانته بين الفضائل ، وقرر بأن الفضائل الوثنية الطبيعية كانت تتفوق على الفضائل الإيمانية المصطنعة ، التي تتبنى العفة المتهافتة والمحبة المتكذبة والنفاق الديني!!

كانت الكوميديا الإلهية بحق دعوة مطلقة ضد الإطلاق . كان جون (جونيور) يعارض أباه جون إيروين الأب حين يتجادلان ، ويجزم أبوه مقتنعا بأن كلا من هابيل وقابيل قد حدد النور الأسمى مصيرهما (أحدهما قاتل والآخر مقتولا) ، مذ كانا في رحم حواء ؛ فليس من خلال مزايا الأعمال ينال البشر درجاتهم ، بل بحسب النعمة الإلهية المقررة سلفا (لذلك يسود الأبيض ويستعبد الأسود) . إن المقارنة التي أوضحت مزايا الفكر اليوناني على تهافت الكنيسة ، كانت تعني لجون ترجيح الحضارة الغربية بأصولها

الحقيقية والإيجابية الفاعلة ، وللطرافة فإن الكنيسة أدت للحضارة الغربية خدمات ضرورية وأساسية ؛ فلولا الأساس الاعتقادي للسيادة والحروب المقدسة وفكرة الخلاص البشري ، لما قامت حتى اليوم الأسس الفكرية للتفوق الغربي نحو بقية العالم ، الذي يمثل (الرعية) الخاضعة للنظام الليبرالي الجديد المسمى عولمة!

تعد الكوميديا الإلهية التحرر من التصور المسيحي للزمن . لطالما تساءل جون أين سيكون مصير جون الأب ، بحسب تصنيف دانته؟ هل سيكون الجحيم؟ كان والده يصوم الأيام المقدسة ويصلي ، بينما يعذب الخادمة (سولينا) ويحتقر سائر السود من رعايا ابرشيته ويستقذرهم (برغم أنه اتخذ منهن السراري) ، يعرف جون كثيرا من النصارى الصالحين من الأفارقة يحبون المسيح اكثر مما أحبته عائلة ايروين ذات المحتد الآري بجميع فروعها .

قرأ جون لهدى من الكوميديا الإلهية :

(أخبريني من فضلك ، انت السعيدة بإقامتك
هنا ، ألا ترغبين في الارتقاء إلى وضع أعلى
حتى تشاهدي أكثر ، ولتكون نفسك عزيزة أكثر ؟)
(فردوس ٣ : ٦٤)

عدّت هدى ذلك أول تلميح حقيقي يصدر عن جون متمحلا صوت دانته ، في أول مغازلة واضحة ، وإن كانت على طريقته المتمحلة اللاهوتية ، والتي كان يبذل جهدا مضاعفاً لطمسها ، ولكنها نمط من (إنكارية) تنزع إلى تحررية وسخرية دانتية ، تصب في فلسفة ترتب أولوياتها وفقا لنظام استبدل ربا برب بآخر .

قال جون لهدى :

- لا يعبر ت . س . إليوت عن الشعر المعاصر! إنه يموء كقطة منبوذة في شوارع لندن :

«لا ماء . . لا ماء

لا يوجد سوى الصخور»

ولكنني أقول لك إن هناك أفقاً للخروج من اليباب ؛ هناك فلسفة الانبعاث ، وعندئذ سيحل عصر النعمة البشرية على العالم .

قالت له هدى : ها أنت تتحدث بروح مسيحية غربية خالصة!

غضب جون لأنه ظن أن هدى تسخر منه . يشعر جون بأن هدى تتحدث أحيانا بلسان بن لادن والظواهري ، تجاه كل فكرة وكل شخص غربي !

بعد عدة شهور استفاضت بالمناقشات الحميمة ، حملت كثيراً من المكاشفات والشروحات والذكريات عن صباه وعهده الأول في (كيب تاون)! هو الذي رفض تعاليم المسيح ، ولفظ الخبز المقدس ، وأخبر والده في رسالة (إذ لم يستطع مواجهته) بأنه يرثي له فهو يحيا حياة خاوية تقوم على الإذعان والإذلال والخدمة الكنسية العبثية .

لا تستطيع هدى تفسير الأمر لجون ، لكنها ما طفقت ترى في سخرية دانته المريرة في كوميدياه ، ومقت جون للبابوية والخدمة الكنسية ، وازدراءات جيمس جويس في عوليس ، تجد فيها جميعا ثقافة غربية مقابلة للثقافة العربية ، من حيث أن كلتيهما دائرتان

متسمرتان في محور تاريخي . أبدت هدى اهتماما كبيرا بالكوميديا ، قالت بأنها تجربة إنسانية رائعة موجودة في لزوميات المعري ، وفي محنة الغزالي ؛ بل قبل ذلك في حديث المعراج ، وفي إشارة القرآن إلى أصحاب الأعراف ، والأعراف بدورها تشبه حال الليمبو عند دانته من عدة وجوه ، كما عبرت هدى لجون تملقا ورغبة في إثبات (الأواصر) العميقة التي تربط بينهما كصديقين .

هل كان هناك بصيص من الشك في أن جون كدانته كان يأمل في خلاص الكنيسة كأي مؤمن طوباوي ؟ ألم تكن بياتريس عند دانته ترميزا للكنيسة البديلة ؟ بياترس تلك التي كرمت في المطهر ثم رفعت إلى الفردوس!(فردوس دانته بلا ريب) .

لا جرم ان دانته كان يرى نفسه أكثر مسيحية من البابا نفسه في عام ١٣٢٠ (وذلك قبل وفاته بعام في منفاه محكوما ومطرودا من رحمة الكنيسة) . أما جون ايروين فيريد أن يجعل من الحضارة الغربية برمتها ديناً (مقدسا ولكنه وثني في الوقت نفسه) لا يمانع جون من قيام بابوية بمركبات مختلطة من الفضائل الروحية والطبيعية (ليس بصورة توافقية ولكن أقرب إلى الديالكتيكية التي يتنازع فيها نقيضان لتحدث طفرة بشرية تولد مرحلة جديدة تماما) . في تلك الفترة تبدت هدى لجون في صورة بياتريس التي انتظرها ؛ فهي ممثلة الثقافة الشرقية الروحية التي لن تجادل ثقافته بل سوف ترفدها وتذعن لها تحت قبة العولمة التجارية والثقافية ، التي لم تكن تعتني سوى باستغلال المقدرات الروحية والفكرية للشعوب المستضعفة .

بدت هدى لجون شيئا فشيئا الأنثى المثالية الضرورية التي أصبح يتعشقها ؛ لأنها بالذات ليست على صورة «الأنثى» بحسب ثقافته المدنية والروحية . لم يعقد جون مقارنة بين هدى وبين لويزا أو أي امرأة أخرى ، لأن هدى كانت مختلفة ؛ لأنها سيدة المطهر ، فقد كانت واقفة هناك تنتظره على قمة الجبل ، مستعدة للتنازلات ولقبول الاشتراطات ، ومرشحة تماما للانتقال إلى حضارته قفزا على كل العقبات . لم تطلع هدى بإحاطة على الجدل اللاهوتي ، وسير القديسين لم تتلطخ بتاريخ ظهور المهرطقين الكبار ، لم تنشأ في الوسط المغموس بالإيقونات والرموز والشكوك ، لم تعرف كل ذلك وهذا بالذات ما يجعلها اختيارا ناصعا موفقا لجون ، وأولى رعايا إبرشيته الفكرية .

ما الفرق بين جون الابن وجون الأب ؟ كان جون جونيور أيضا يصنف الناس فكريا بين الجحيم والفردوس والمطهر . كان يرى أن سياسة الإدارات الأمريكية منذ القرن التاسع عشر هي العقاب المباشر والإدانة المستحقة للبشر في العالم على عصيانهم لقانون السيادة للحضارة الغربية . ولن ترتفع تلك الإدانة ويتم الخلاص منها بنزول المسيح إلى الأرض ليمحو الخطيئة . تسير الطبيعة البشرية منذ البدء وفق سنن لا تفهمها الكنيسة ولا تقرها ، فهو ليس نظام التكفير عن الخطيئة بل تقرير السيادة فحسب ، إنه نظام يقوم على الإخضاع والترويض لتمكين الإرادة الأكثر تفوقا وجدارة لكي تسود وتستغل بل وتحاكم الأضعف غير المستحق . إن جون الأب ليس سوى راع صغير لكنيسة حقيرة في ركن منعزل في

الأرض، موغل في العالم البدائي، ولكن جون جونيور كان يعد نفسه ليترأس (بعد عدة سنوات من الآن) مركزا للدراسات الاستراتيجية، كان يحلم بتأسيس بيت خبرة عالمي ملياري التمويل يسوق للفكر العولمي في كل أصقاع العالم بأكثر الطرق التواء وفاعلية وتعقيداً وفنية، وباستخدام الأقانيم المستحدثة للثالوث الغربي: الحريات الحقوق والانتاج. يرى جون أباه ماثلا في كل أسلوب إنتاجي متخلف ومباشر للاستغلال والقمع والتدجين، بيد أنها مرحلة بائدة، عصور مسيحية تقليدية زائلة، إنجيلها مندثر ميت لا يستطيع التسليم بالمتغيرات والمشكلات الراهنة، ولا يستطيع معالجتها في البنى المعقدة للعالم المتحضر. لم يكن جون (جونيور) معنياً بالصراع الديني في صورته الفجة، ولو قامت غدا ملحمة هرمجديون على سفوح بيت لحم أو في صحراء النفوذ أو كان مقدرا لها أن تتصاعد أدخنتها من أرض بابل في العراق (وهي معركة يعتقد جون بوقوعها تاريخيا صدقا وحقا)؛ فإن جون لن يمد إصبعا للمشاركة فيها؛ بل سيقف على الضفة الأخرى منها، ليؤرخ الحقائق لما بعد التناحر العبثي.

أغلال الحب

بعد تردد ارسلت هدى إيميلا عفوياً وحميماً، وبعثته قبل اغلاق محمولها استعداداً لركوب الطائرة في طريق عودتها إلى الدوحة في إجازة قصيرة. كتبت إليه:

(لا أدري ماذا يجب أن أقول بالضبط، هل انجرفت مع

مشاعري؟ هل بالغت في تقدير صداقتنا؟ هل كنت متسرعة وخرقاء؟ كل تلك الأمور مجتمعة؟) .

الآن أستذكر ما حدث ، والتفت إلى إشارات ناعمة صدرت منك لم أستجب لها كما ينبغي ، لكنني أعلم بأنك ستصفح عن تطفلي وسوء تصرفي!

الحقيقة أنني استمتعت بما حدث بيننا ؛ بنقاشاتنا ومكالماتنا وبرفقتك وبكل شيء . أنت شخص رائع وأحب أن أبقى على سابق عهدنا .

لم يلحق بها جون إلى المطار ولم يهاتفها على الخلوي الذي ظل مفتوحاً حتى قبل إقلاع الطائرة بثوان ، ولم يرسل رداً بالبريد الإلكتروني إلا بعد مضي أسبوع كامل أمضاه في مدريد ، حيث قدم مشاركة استتبعها بجلسات ورشة عمل مكثفة ، وأجرت معه الفضائية الإسبانية لقاءً . كان أسبوعاً مكتظاً ووجد جون نفسه يفكر في هدى طوال الوقت ، وعندما عاد لم تكن هدى موجودة في شقتها عندما هاتفها لينمي إليها الأخبار الجيدة التي كان يحملها .

تلكأ جون كثيرا قبل أن يبعث رده . كان مستاءً من طريقة هدى في فرض (المواجهة) ، ترمي كلمتها وتطير إلى الدوحة بعيدا عن المتناول . ماذا يفترض أن يرد عليها ؟ ما هي توقعاتها لعلاقتهما؟ هل تظن بأنها تحرجه وتجبره على اتخاذ قرار يلزمه بتعهدات ليس مستعداً لها بعد . لقد فكر في هدى ، كانت أمامه وكانت خيارا من جملة خيارات محدودة . هي مختلفة ولكن اختلافها عن لويزا مثلاً لا يميزها

بل إنه يعقد المسألة فحسب . هدى نضرة ومتحمسة وحيوية ، ومن السهل التعلق بها ، ويشعر بافتقادها ولكنها قطعا غير قريبة منه أكثر من سواها . قد تتصور هذه الليدي العربية أنها تحبه الآن ، ولكنها لا تفهمه ولا تبدو مفهومة له هي الأخرى .

وبعث إليها أخيرا بإيميل ؛ إذ لم يكن من المتاح بعد أن يتحدث الاثنان عبر الهاتف ، مثلا ، فلم يكن شكل العلاقة بينهما محددا إلى تلك الدرجة!

كتب إليها :

العزيزة هدى

كنت في مدريد الأسبوع الماضي . وأود أن أقاسمك بعض الانطباعات التي كونتها خلال ورشة العمل . اجتمعت مع بعض المشاركين من الشرق الأوسط ، بعضهم من العرب والباكستانيين ، وكانوا يعبرون عن استيائهم الشديد تجاه النظرة التي ينظر بها الغرب إلى بلادهم ، بوصفها محضنا للإرهاب ، وكنت أسأل نفسي : ولكن أي صورة من تلك الصور المتناقضة لتلك البلاد يمكن أن تكون هي الصورة الصحيحة ؟

وعندما بلغ بنا الكلام إلى موضوع الحادي عشر من سبتمبر ، قام أحدهم بالمقارنة بين ضحاياه وأعداد القتلى والمفقودين في العراق ؛ وهو أمر غير عادل وغير إنساني! كما ترين لم نتمكن على المستوى الإنساني من إحراز أي تقدم أو اتفاق إلاّ حول المسائل التقنية فحسب .

وعندما التقيت في المساء نفسه بمسئول إسباني قال لي هل

تعلم عدد الأثرياء العرب الذين يحاولون تملك قصور أندلسية في قرطبة ؟

جوناثان أوروين

عزيزي جون

سأكون آخر من يمكنه أن يفسر صراعا بين الحضارات أو يسوغه . وبالمقدار نفسه من الإمكان ستكون موافقتي على صحة مقولة حوار الحضارات ، وإن كنت أظنه أمرا ضروريا ، غير أنه مع ذلك ليس سهلا ولا مجانيا .

منذ فترة كان أمير قطر قد دعا ، في افتتاح مؤتمر لحوار الأديان ، إلى القيام بـ«مراجعة نقدية للتاريخ العربي الإسلامي ، على أساس أنه تسلسل منطقي وطبيعي لعمليات تحول سياسية واجتماعية تفضي إلى تداعيات متوقعة وطبيعية ، ونَدد بتفسير الظاهرة الإسلامية الحديثة على أنها مجرد رد فعل محافظ ورجعي ضد التغيير والتحديث .»

هل سيبقى الشرق شرقا والغرب غربا ؟ ألن نتمكن من أن نصبح شركاء في الإنسانية ؟ يخيل إلي أنه أمر يزداد بعداً واستحالة ، نظرا لحجم القوى وغلبة مصالحها .

سأوافق على الدفاع نظريا ، على الأقل ، عن المفهوم الداعي إلى إنسانية موحدة ذات ثقافات «متجانسة» إلى حد ما ، وأعلم بأن الطرف الأقوى سوف يسعى إلى جعلها موحدة لكي يقوم بالاستحواذ عليها كلية .

إنني فتاة كبيرة ، وأعرف أنه ليس ثمة حب ولا علاقات تعاون لا يعتورها الجوع والخوف - ومع ذلك لماذا لا يسمح أبدا بتطوير أي مشاعر متوازنة ومتبادلة؟

سأكون صريحة إلى أبعد الحدود ؛ قد لا يوحدنا إلا خطر داهم يهدد العالم ، ولكن ذلك أيضا لن يقودنا إلى التعاون المتكافىء والنتائج المشتركة ، أليس كذلك ؟

لست من صنف المتفائلين الأبديين ، وأعلم بأن السيناريو السياسي يتوعد هذه المنطقة بأوقات قاتمة ؛ هذه المنطقة التي أنتمي اليها والتي يعيش فيها قومي .

لكن حتى إذا ما كانت هناك تناقضات غير قابلة للتجاوز في الوقت الراهن ، فلماذا ينبغي علينا نحن أن نخضع لها بدورنا ؟

هدى

عزيزتي هدى

لا يسعني إلا أن أشاطرك استياءك من الأوضاع العالمية ، وأود أن ألفت نظرك ان هناك تيارا يقوده المناهضين للعولمة ، وقد انطلق قطاره من هنا ، من الغرب . قد لا تحظى تلك الحركات بما تستحق من الاهتمام ، لأنك تعلمين بأن الاختلافات الدينية والثقافية تسيطر على كل الأسئلة الأخرى . إن إيديولوجيات الحروب المقدسة لم تزل تعمينا عن تحديات كبيرة تهدد عالمي وعالمك معا .

جون

عزيزي جون

تعيش النخب في بلادي انفصالاً مأساوياً عن الواقع ، ويظل الوحيدون الذين يمدون يدا للجماهير ويتمكنون من الاتصال بها هم أولئك الذين تحركهم دوافع دينية . إنهم يملؤون الفراغ الذي أحدثته رداءة الواقع اليومي ، بشيء من الأمل ، حتى وإن كان لا يتعلق سوى بالآخرة والوعود المؤجلة .

لم تزل النساء في بلادي يخرجن متخفيات تحت البراقع والشعارات والآراء المزدوجة ، ويردد المطاوعة في هذه المدينة الصغيرة مواعظهم بأن الإسلام قد تحدد بتلك الأطر المتعارف عليها ، ومن يشكك في ذلك فسيكون مصيره الجحيم .

إنهم يرعون تقاليد إسلامية عتيقة ، بهدف الحفاظ على السلطة المطلقة لورثة أبديين .

بماذا يمكننا أن نبرر أن قوى الملتحين والظلاميين هي التي تعلن تمثيلها للإسلام بصوت أكثر ارتفاعا بكثير مما تفعل القوى التقدمية؟

هدى

عزيزتي هدى

لا وجود لمفهوم المساواة أو العدالة في عالمنا .

إن للسلطة ديناميكيتها الخاصة ، وهي لا تخضع لأية حدود في عصرنا الحالي ، أما الأنظمة الفاسدة فهي تروس صغيرة تغذي حركة الاقتصاد في العالم .

إن هذا يعني ، بالطبع ، أن التابع للغير سيظل كذلك ، بل سيغدو أكثر ارتباطا وتابعية وأكثر الحاقا بنظام الآخر وثقافته ،

وعندما تجتذب تلك الدورة ، القائمة على الاستغلال والعبودية والتطويع ، جميع من لديهم إمكانيات أو تخضعهم قدراتها غير المحدودة للانخراط فيها ، فهي تفعل ذلك لا باعتبارها القوى العظمى فحسب ، بل بحسبانها فلسفة ذات أسس أخلاقية أيضا .

جون

أحبك أقل

عندما عادت هدى إلى الولايات المتحدة من إجازتها القصيرة المتعمدة ، كانت قد أخذت عهداً على نفسها بأنها إذا توخت الحذر ، وحرصت على أن تحب جون بدرجة (أقل) فسوف تنجح في اجتياز العقبات التي بينهما .

لقد كانت رسائلها إليه على الانترنت تحوي ذلك المستوى السري من الكلام ، فهما عالمان متصارعان مختلفان ، وبرغم ذلك ، كانت هدى تبقي جسراً بينهما ، عندما كتبت له : (لم نسمح «نحن» بذلك ؟) ، وقد اجتهدت أن تفعل الأمر نفسه عندما التقيا ومارسته بكل إخلاص . في كل يوم يمر كانت تأخذ على نفسها إلزاما بأن تخفض درجة اهتمامها به تدريجيا ، وكلما التقت به عزمت على النظر إليه بعيني شخص آخر (ليست عيني الدكتورة منيرة بل عينين محايدتين) . نظرت إليه هدى بحيدة فوجدته شخصا عاديا! يحمل ملامح عادية (شخص بعينين منتفختين متأملتين إلى حد ما ، وشعر كستنائي غير متلائم مع بشرته ونمشه وبثوره) ، وفي إحدى المرات راقبته وهو ينصرف متئداً وقد ظهر

جانباً من صدغه الأشيب ، وقفاه الأمعر من الشعر ؛ فشعرت بنوع من الشفقة والتعاطف نحوه .

لاحقت هدى عيوبه - وهي أمور تسهل ملاحظتها - كان جون يتأتىء أحيانا ، لا سيما عندما لا يجد كلمات يخترعها ، ليقول معاني مبتكرة لافتة .

عندما شعرت بأنها مرتاحة لموقفها ومقدرتها على ضبط مشاعرها ، انقلب حال جون بشكل واضح ، وبدا وكأنه غيّر من موقفه اللامبالي . صار يطلبها هاتفيا . وكانا يلتقيان فيدعوها للغداء ثم يتجولان على غير هدى في الأماكن القريبة ، وعندئذ فكرت هدى بأنها ربما استعجلته في استنكاه مشاعره ؛ ولو أنها تركته يمضي - في إيقاعه الخاص - لتوصل إلى أن يختارها ، ويتشبث بها دون أن تبدو وكأنها تدفعه إلى ذلك دفعا ، وتوصلت إلى قناعة أكيدة بأنه لو أحبها بدرجة أكبر فإن ذلك قد يساوي تماما أن تحبه بدرجة أقل ، وكان ذلك حريا بإعفائها من مهمتها تلك ، وكان كفيلا بحل المشكلة بطريقة سعيدة .

لم تكن تلك «الحساسية» التي طفقا يتجاذبان حبلها بينهما سوى الحب ذاته ، الذي لم يفهما أنه كان بينهما منذ البداية ، وأن كل ذلك الشد والجذب كان امتحانا ضروريا لمشاعرهما المترددة ، ونشدانا لإجابة متعجلة لسؤال أبدي : كم أعني لك ؟ وهل أنت قادر على فراقي ؟

أم تصنعه إرادتنا ورغائبنا ؟ قد يتسلل بخفاء ولكنه لا يخرج إلى العراء بوجوده الملموس المكتمل حتى يستوثق لنفسه ، وحينئذ لن تشعر به رسيسا ناعما خافيا أو غامضا فحسب ، بل سلسلة من التصرفات والبوادر والتلميحات ، ولكنك عندما تستعيد ذكريات الحب ، فإنها تفقد تلقائيتها بصورة قاطعة ، وتبدأ أسطورة الحب من النظرة الأولى في التحقق .

عندما يكونان معا تعلم هدى بأن خيارها يستقطعه الزمن ، وأنها يجب أن تأخذ كل ترتيبات الحذر والحيطة لكي تتصرف بطريقة سليمة . أصبحت الآن تعلم بأن جون معتاد على حياة مرتبة جدا ومنظمة ومأمونة . وقد وطنت نفسها على الصبر والانتظار ؛ لأنها تعرف ما تريده وتعلم بأنه (حبها) الحقيقي ومصيرها المختار .

الحب الحقيقي هو ما تستقر عليه بعد محاولات أو تجارب حب . في حالة هدى كان عليها من خلال تلك «المحاولات» ، وبالمقارنة بها ، أن تجد في جون حبها الواقعي الذي يجب ألا تسمح بضياعه . أما جون فربما كان يتساءل هل الحب موجود حقا ؟ وماذا يعني؟ كان يظن أنه معجب بلويزا ، وعندما غابت لم يشعر بفقدانها كما افتقد (توتشي) مثلا . تعود علاقته بتوتشي بعيدا إلى أيام شنغهاي . كان توتشي مهجنا من أم روسية وأب أوروبي لم يعرفه . كان خليطا من جامع تحف وفنان ومستثمر ومغامر ، يتاجر في سلع مختلفة وكثيرة وكان جون إيروين يعد آنذاك بحثا بالتعاون

مع إحدى الكليات ، كان أستاذا ملولاً متطفلاً على ثقافة مغايرة ومجتمع يمقته ؛ لقد أراد أن يكون في بكين لأن الصين البلد الشرقي الذي يتفجر وينمو صناعيا كالصاروخ ، وأراد ان يكون هناك مراقباً وراصداً ومنظراً . لم يستطع أن يبدي تجلداً وعزماً كافيين ، ولم يفلح أن يتعاون مع دور نشر لتمويل ابحاثه أو يوسع نطاق بحثه ، وتعذر عليه الانتقال إلى عدة مدن ، وفشل في التوصل إلى متابعة بعض المؤسسات أو زيارتها ، وأقعدته أمراض سريرية عن الحركة مرارا ، وكره طعام الصينيين ونظامهم وضجيجهم . تعرف إلى توتشي في احتفال لرأس السنة نظمه أوروبيون في أحد المراكز ، ومنذئذ لم يفارقه . أخذه توتشي (الجميع كان يدعوه بذلك الاسم السخيف) ، إلى قلب المجتمع وشوارعه الداخلية ولم يستطع جون أن يتصور أن العالم فاحش وتافه وعبثي إلى هذا الحد!

كان دائما في خدمته ، وكان دائما عطوفاً وحانياً أبلغ من أي امرأة مرت في حياته . أصر على اصطحابه في ضيافة كاملة إلى كوالالمبور حيث مركز تجارته المتنوعة . وعندما قرر جون العودة إلى الولايات المتحدة قال له توتشي ببساطة :

سأكون معك!

لم يطلب جون من توتشي شيئا ، ولم يسأله مرافقته ، ولذلك فلم يكن توتشي قادراً على أن يلومه أو يطالبه بأي شي حتى لو كان امتنانا . لقد تعامل جون بأنانية خالصة مع سوشي ، وبترفع المعبود المدل على عابده ، وانتظر من توتشي أن يفعل ما فعله وكأنه الشيء الصواب الذي يجب أن يقوم به . مادام لا يستطيع فراقه كان عليه

أن يلزمه . . ولكن بلا التزامات .

كان توتشي يرى بجلاء أن جون يهمله وينصرف عنه ؛ فلم يعد يحتاج إليه فغادر ذات يوم في هدوء عائدا إلى سنغافورة .

لقد أحب روميو روزالين يوما أليس كذلك ؟ كانت المرأة الكاملة التجربة ، وكاد أن يجن بها ثم نسيها بعد أول لقاء عابر بجولييت ، وقع بالمصادفة البحتة! عندما التقى في حفل تنكري بفتاة غر سخيفة لكنها سريعة البديهة ، ترقص كمبتدئة ، وتضع على وجهها قناعا مبتذلا (لم ير وجهها معظم الوقت) ، وقع في حبها وسهر تلك الليلة تحت شرفتها عوضا عن الذهاب إلى موعده مع «روزالينه» ؟

هل خلق روميو للحب! أم خلق روميو الحب ؟ هل كانت تجربته الأولى كاشفة لستر الأخرى ؟ هل كان جون منذورا لأمر آخر فلم تكن عاطفته نحو لويزا ثم نحو هدى تمثلان له سوى جسر لبلوغه قدره! منذ أن اكتشف جون أنه يفتقد هدى ويحتاج إليها بطريقة ما ، عبر كل منهما عن فلسفته في الحب والحياة بطريقتهما المحدودة ، عبر ايميلات لا يمكن وصفها بأنها لحظات سحرية ، ولكنها على كل حال علاقة خلت من كل اعتباطية ؛ لأن كلا منهما وضع الاخر في كفة ميزانه الشخصي ؛ فرجحت الكفة ، فالحب في نهاية المطاف هو (وعد) بأن يأخذك الآخر إلى أبعد حدود السعادة أيا كان معنى السعادة! .

الانخلاع

لا يمكنني أن أجزم بمدى قدرة هدى على النفاذ بقوة وأصالة إلى صلب منطق أرسطو وبديهياته ، هل يمكن أن يتشرب تفكيرها سريعا النمط الغربي حتى لو كان ذلك بحكم معايشة أو معانقة لأشواق الانخلاع . لايبدو من شواهد كثيرة ونماذج واقعية أن تلك العقبات يمكن لعقليات عربية تجاوزها . ولكن هل تجاوزت هدى بالفعل تلك التناقضات التي تمثل أساس الوجود في عالمها (عالمها هي لا عالم هيروقليط وجون أروين) ، عالمها الثقيل بلا خفة ، والساكن بلا حركة . تكره هدى عالمها وتبغضه ، تتبرأ منه ، لماذا ارتمت في أحضان جون ، لماذا أغرته بما لديها ؟ (بما يظن كغربي أنه لديها) بالضبط لكي تحصل على ما لديه عندما أخبرها جون بأنه عازم على تأليف كتاب جديد ، يدور حول الفكر اللاهوتي ، من وحي حياته ومشاهداته في الشرق ، افترضت أن وقائعية العالم الروحي في الدوحة بمظاهره وتخيلاته ستجعل جون أكثر استبصارا على النحو الذي يسعى إليه لبسط أفكاره .

قالت هدى في شبه استسلام : إننا نحب الله . . كما أحسب .

قال جون بطريقة هادئة ، كمن فكر ملياً بما سوف يقوله : ليس هناك ثمة اختلاف في مفهوم الحب للإله أيا كان ذلك الإله ، ولكن ما وراء ذلك الاختلاف وما دلالته ؟ ألا تظنين أن ثمة شعوباً تتوجه إلى حب الإله تعويضا عن عجزها عن إدراكه؟

قالت هدى : ماذا تعني بكلامك ؟ ما المغزى ؟

قال جون : هناك في الشرق أقصاه وأدناه يمكنك أن تري بأنهم يجزمون في ممارساتهم تحديدا ، وقبل ذلك بالطبع في علومهم وفلسفتهم ، بأن الفكر عموما لا يقودنا أبدا إلى المعرفة . . على الأقل لا يعطي الفكر الإجابة النهائية!

يستطيع جون الغربي أن يدمغ الشرق كله ، ويستطيع أن يعزو نتائج لأسباب أو سبب ما ، ولكن هدى شعرت بأنها مهددة لأنها كانت تمثل في تلك اللحظة ما وراء كلمة الشرق كله . قالت هدى بحذر : النهائي ؟ نعم إن النهائي والمطلق لا يمكن ادراكهما بالفكر أو بقدرة المدرك! هناك أمور لا يمكن الإحاطة بها ولا السيطرة عليها أليس كذلك ؟ والحب للإله يبدو لي صفقة ممتازة إذا كان تعويضاً أو بديلاً كما تسميه ، وقد يكون أيضا لدى المتصوفة سبيلا إلى معرفة المطلق .

سألها جون : ألا يوجد هراطقة وغير مؤمنين في عالمك ؟ هل الشرق يعني الإيمان ، والغرب يساوي الالحاد ؟

أجابت هدى : أعتقد أن الجميع في عالمي يحب فكرة الله ؛ إنها مساوية للثبات وقيام النظام الكوني ، الكلي وأساس نفسي للطمأنينة والاستمرار .

لم يعد جون وهدى يتناقشان هكذا بعد زواجهما ، وكأنهما أصبحا يعرفان بعضهما البعض جيدا ، وما من داع للنقاش أو الاستكشاف أو ربما لا جدوى منه! لا يتوهم الزوجان انهما يعرفان بعضهما أكثر بعد زواجهما ، ولكنهما يمتنعان عمدا عن ممارسة الجدال ، وكأنما أصبح يتعين على أحدهما أن يكون مشجعاً

ومتعاطفاً مع ما يمثله الآخر ؛ إنه ذلك التعاطف السلبي ؛ لأنه لم يعد مسموحا أن يبدي أحدهما ملاحظات «غير لائقة» حول ثقافة الآخر حتى لو كانت موضوعية فستكون أدعى حينئذ للاستفزاز المبطن ؛ لأن ذلك يظهر كأمر محايد في علاقة حميمة (ضد الحياد)! إذاً على كلا الطرفين - في علاقة الزواج- ألا يسعيا وراء الحقيقة بل إلى التوافق ، وألا يتصورا أنهما يجب أن يلتمسا تطوير نفسيهما (كل بمعونة الآخر) فإن ذلك يعد نقيضا للاندماج والشراكة الداعمة الحاضنة القائمة على القبول .

لم تكن زلة لسان

لقد أرادت هدى أن تبدو وكأنها أخطأت ، وكأن جون دفعها لقول ما لم تكن عازمة على قوله ؛ لأن ذلك كان يجعلها عفوية ومترفعة وفاتنة .

حدست هدى بأن جون يشعر بها على نحو ما! ربما يحبها على سبيل الافتراض بل غالبا يحبها ، بل هو يحبها فعلا! هذا التوجس الذي أوقعها في (الشك) زرع فيها التصميم على الارتباط بجون ، وعندما بلغت مقصدها ونجح مسعاها أخيرا أحست أن لكل شيء معنى ومستقراً ، وأن جهدها كان صائباً ومجزياً!

كان كل شيء في علاقتهما مرتباً مداراً بإحكام . لم تعان هدى تعقيدات جوهرية في علاقتها بجون ، أما ظاهر التغير فقد تحقق لأبعد الحدود . كانت علاقتهما واضحة وجاهزة لكل تغيير ، مطمئنة لما قد يطرأ على سير الأمور ، لأنها ستحتويه في النهاية .

أطلق على جون في الوسط الجامعي اسم «العاشق» الذي راضته

اللبؤة العربية ، وأصبح جون إيروين يتلقى الدعوات في بعض الحفلات لكي ينظروا فقط إلى زوجته العربية تتأبط ذراعه . ليس الحب نقيض الكذب بالطبع ، بل يكاد يكون ممارسة للكذب بصورة مزمنة . فالأكاذيب تزحم فضاء كل المحبين في التاريخ البشري . وأول كذبة تكون كالعادة (ماذا كان سيفعل من دوني؟) ، يلتزم كل شخص بالرعاية ازاء الآخر ، انطلاقا من شعور طاغ بالذنب ، ويكذب على نفسه إذ يظن أن الآخر يحتاجه أكثر مما هو محتاج اليه . توهمه هدى بالحاجة اليه ، تشعره بأنها هشة معدومة التوازن من دونه ، وهو كذلك يشعرها بأنه لا يستطيع التخلي عنها لأن حياته أصبحت تتعلق بوجودها . بيد أنه كان يشعر بأنه اكثر ارتياحا عندما يسافر أو يجلس وحده أو ينضم إلى مجموعة من مواطنيه ، من دون أن تكون هدى معه ، لكنه سوف يتصل بها مع ذلك ، ويخبرها بأنه مرهق ومشغول . . ويفتقدها .

بعد فترة اعتاد جون على دور الزوج الأبدي . كان يخرج مسرعا من أي اجتماع متأخر قائلا دون تحفظ : يجب أن أتصل بزوجتي .

هذه الاتصالات المنتظمة كانت شيئا ضروريا بمرور الوقت ؛ لأن الزوجين لم يعودا يقولان كثيرا : أنا أحبك . ولكن عوضا عن ذلك يؤديان فروضاً واجبة ؛ كالاتصالات والبطاقات البريدية والهدايا ، والبطاقات في المناسبات والأعياد ، التي كانت تؤدي الغرض نفسه وتعبر عن معنى كامن فيها : نحن ما زلنا معا! أليس ذلك ما يهم حقا ؟

دأب جون على تدوين يومياته منذ وصوله إلى الدوحة ، ومن الواضح انه أصبح أشد عزماً على إتمام مشروعه . كان يود أن يجعل منه (إنجازه) الأهم .

عندما أقلعت طائرته من المطار ، كان يتوقع ما سوف يجده أمامه في الدوحة ، فقد اختبر التجوال في عدة عواصم عربية وشرق أوسطية ولم يشعر بأنه غريب تماما ؛ فهو يعيش بين الفنادق والمواقع الاثرية والمكتبات والشخصيات المتحدثة باللغة الإنجليزية . ماذا سيواجهه في الدوحة غير الوجوه والبازارات والمواقع السياحية والمؤتمرات والبطولات الرياضية .

كان جون قلقاً إلى حد ما بشأن العرب من أهل البلاد في تلك المدينة ، هل هم ودودون تجاه الغربيين والأمريكان على وجه الخصوص ؟ فقد قرأ في الانترنت مقالات تتحدث عن روح المحافظة والطابع السلفي للمجتمع ؛ بل إنه قرأ إشارة ذكرت «تفجيرات الدوحة» وهو حدث قديم جرى في مسرح صغير ، بيد أنه لم يزل ماثلا في ذاكرة الأجانب .

من الصعب تحديد كيف بدأت فكرة تأسيس مركز الدراسات والخبرة ، ربما لم تولد تامة بل تبلورت تدريجيا . هل تحدثت هدى إلى أخيها عبد الله عن حلمها حول ذلك المشروع ، وكان ذلك سببا في دعم أخيها لزواجها من جون إيروين؟ هل تناقشا حول التفاصيل وارتأيا أن ينشأ المركز تحت ظل الرباط الزوجي لجون وهدى كمؤسسين رئيسيين ، باعتبارهما باحثين أجنبيين مرموقين

(أحدهما أمريكي والآخر سيحصل على الجنسية الأمريكية) ، أيد عبد الله أن يقوم الزوجان بتوقيع العقود الأولية لإنشاء المركز قانونيا وماليا ، ثم يدخل عبد الله شريكا بجهوده عضواً بمجلس الإدارة ، بالإضافة إلى أي شركاء آخرين . سيقنع عبد الله لاحقا سلوى بشراء أسهم في المركز الجديد وسيقدم لها منصباً ، ومقعداً في مجلس الإدارة (بوصفها عضواً غير مؤسس) .

كان جون يحتاج إلى رفقة توتشي ووجوده إلى جانبه ، لاسيما عندما يكون غريباً في المكان! لشهور عديدة ، أقام جون في قطر ، مستغرقاً في جدول زيارات طويل وممل ، وخلال تلك الفترة ، أجريت الترتيبات الضرورية فيما يتعلق باختيار مقر المركز وتأثيثه وتسجيله ، وتهيئة فريق العمل الإداري والفني ، وإبرام العقود الأولية القانونية ، وإعداد عشرات القوائم وبالكاد شارك جون في تلك الأمور! شجعته هدى للاتجاه إلى زيارات ولقاءات مقررة لكليات ومؤسسات وإدارات حكومية لم تزده إلا عزلةً ونأياً عن ثقافة المكان ويقينياته .

حاول جون أن يضع أمام هدى «استنتاجاته» بشأن المكان ومتعلقاته ؛ بدت له كل البنى صورية ومسطحة وغير قابلة للأرشفة الحقيقية ، قال جون لهدى بأنه لم يواجه قط مؤسسات وهيئات تفتقر للأسس القانونية والإدارية ، كما رأى في جولاته في بعض القطاع الحكومي المحلي .

واكتشف جون في أغلب تلك الزيارات أن هناك ثمة حوارين يجريان في الوقت نفسه ؛ ما يجب أن يقال علنا ، وما يجب أن

يفـهـم ضـمـنا! ولدهشـة جـون فـقـد وجـد أن العـديد من الغـربيين المقيمين يتحدثون أيضا بالمنطق ذاته !!

لم يستطع جون أن يعمل!

جلس بعد فترة أمام كل تلك الكتابات المحمومة التي سجلها في أوقات متفرقة ونظر فيها ، بدت هذيانا خالصا! لقد تجاوز جون الأربعين وتجاوز القدرة على أن يخدع نفسه . .بسهولة!

يشعر بالضآلة التامة كحبة رمل في تلال ميسيعيد! كحصاة في الصحـراء! لا يستطيع جـون أن يتـحـدث عن الصـحـراء! قـال لتوتشي : (ليس لك إلا أن تكون فيها أو . .عليها أو يجب أن أقول معـها) ، أنفق جـون وقتـاً طويلاً في الصحـراء وبين العزب والقرى! ارتمى في ذلك العـماء والعدم والهـباء ، وكـان يجلس ويدوّن أفكاراً تعن عليه أحيانا ، ولكن الأفكار الجيدة تستعصي عليه دائما . تندس وتدفن نفسها كمخلوقات الصحراء الصغيرة الخفية الوهمية ، ولا يبقى سوى الغبار في عينيه وطنين الريح في أذنيه!

هل كان يمقت الصحراء أم يعتريه الخوف من امتدادها وروحها التي تبتلع كل شيء وتخيم على أطراف الزمن وتنهيه!

استـغـرق جـون طويلاً في رحـلاته البـرية كـمن أراد أن يغـرق نفسه في ذلك البحث العبثي المضني عن شيء لا يعرفه! تأفف عبد الله من مسلك جون وقال لهدى : من يحسب نفسه الآن ؟ لورنس العرب ؟

بدأت تطارده الأحـلام الكابوسيـة بعـد شـهور قلائل ؛ أحـلام ملغومة بالرموز والذكريات الخبيثة ؛ رمال متحركة ، واختطاف

ووجوه تطارده! لم يعد جون ينام جيداً وعادت إليه ذكريات صباه وطفولته في كيب تاون!

يعاوده حلم واحد متكرر بصور مختلفة ؛ كأنه في بيت كئيب مظلم ، يشعر بأنه عاد إلى كيب تاون ويتساءل برعب وندم : ماذا أفعل هنا ؟ لماذا عدت ؟ كيف عدت إلى هنا ؟

لم يعد جون يعبأ بما يفعله عبد الله في المركز ، لم يعد يلقي بالاً لتلميحاته الوقحة بالتخاذل والفشل! وأخبر هدى بأنه لن يقابل أولئك الناس! ولن يجلس في استقبالات وأحاديث خانقة وملفقة مع أناس وصفهم بأنهم «أفاقون وسماسرة ورجال أعمال أنذال ، ومصرفيون سطحيون ونصابون ومتملقون!»

إذا جارى تلك الأوساط وجرّه عبد الله وراءه فما أسوا مصيره إذاً! إن وضعه الآن أسوا مما لو كانت أغلاله بيد السلطة الأكاديمية ؛ إنه الآن ليس إلا كلب حراسة مطوق ، يقوده عبد الله! ومن هو عبد الله ؟ «قواد صغير يعمل لدى سلطة غوغائية!» يعيش جون كابوساً! لن يستيقظ منه إلا . . إلا إذا أفاق من حياته .

قبل ذلك شهد جون الحفل الفخم شبه الأسطوري الذي أقيم لتدشين المركز الجديد في قاعة واسعة لأحد الفنادق الكبرى . بدأ جون تائهاً وزائداً! كانت هدى مضطربة إلى حد كبير ومتوترة ، وأولت الضيوف كل اهتمامها ، أما عبد الله فكان مشغولا للغاية فهو صاحب الحفل .

صادف جون عدداً كبيراً من المدعوين الغربيين ، وجوه كثيرة وأضواء تتلألأ من ثريات ضخمة ، وكاميرات تلتقط صوراً بلا

حساب، وكميات من الأطعمة المرصوصة على الموائد! هل كان ذلك الحفل معقولاً لافتتاح مركز للدراسات؟ ولكن عبد الله يؤكد أهمية حضور أولئك المدعوين! لا يعلم جون لماذا تمت دعوتهم! ولا يعلم لأي «استثمار» يخطط شريكه! لم يستطع جون أن يراهم إلا أمشاجاً من الفسقة والدجالين والاستعماريين الصغار، وضلاّل الآفاق والمسوخ والرعاع المترنحين.

التقى جون في زحام الأجساد والملابس الفارهة مستر هانز وهو خبير آثار هولندي، شكره جون لأنه لبى دعوته وشعر بأنه يقابل أخيرا وجهاً ودوداً، ولذلك شعر بالحزن عندما أبلغه هانز بأمر استقالته وبأنه سيغادر البلد! قال هانز موضحا إنه بعد سنة ونيف من توقيع عقده لم توكل إليه أي مهمة؛ لقد بقي فقط لأن ذلك أتاح له حضور دورات ومؤتمرات مهمة لم يكن ليحظى بها من دون سخاء الهيئة الحكومية وامتيازات عقده معها.

قال هانز: لم أشعر بنفسي منذ وطأت قدماي هذا المكان! أريد العودة بأسرع وقت إلى دياري.

وشعر جون بشيء يدفعه ليشد على يد هانز مودعاً.. كصديق.

ثم التفت لتقوده هدى للترحيب بقدوم مسز ماديسون إلى الدوحة لأول مرة، وهي أسترالية سبعينية مفرطة في التودد إلى من حولها، وفّر لها زوج ابنتها عقد عمل في المدينة التعليمية؛ التي يعمل فيها مع زوجته. أنقذه عبد الله من الاستماع إلى المزيد من ثرثرة المسز ماديسون، وأخذه إلى ناحية من الحفل. أشار عبد الله

بعينيه إلى شخصين غربيين يتحدثان باهتمام إلى شخص ثالث قطري كما يبدو من لباسه العربي ، قال عبد الله :

إنهما من المركز المنافس لنا! لقد اختير مركزهم عدة مرات بفضل ذلك الرجل الواقف معهما! يجب أن ننال ثقته . . ورضاه .

إنهم لا يقومون بشيء لا نستطيع التفوق عليهم فيه . هل تعلم كيف تجري الأمور ؟ إنهم يستعينون بعناصر من أنبه خريجي الهندسة والمحاسبة والقانون في مصر والأردن ، وبأبخس التكاليف ، ويقدمون دراساتهم وتحليلاتهم مختومة بأسماء خبراء غربيين .

- وماذا يحدث عندما تنتهي الأمور بطريقة قبيحة . من يلام ؟

- لا أحد! لا يلام بيت الخبرة أبدا لأنه يقدم عدة خيارات مبنية على أسس نظرية ومعلوماتية وخبرات ، وحتى عندما يزكي المركز أحد الخيارات فإنهم لا يختارونه للتطبيق ؛ لأنه غالبا الخيار غير المقبول في التنفيذ

- ولماذا برأيك ؟

- إنهم في كل مرة يجدون سببا للإخفاق! حتى لو قدم إليهم تصميم هندسي مثالي فلن يقوموا بتنفيذه كما هو . تتدخل مصالح وأمزجة وعقبات كثيرة . . هناك أمور كثيرة تعترض تطبيق المشاريع في هذا البلد . . لا يمكنك توقعها!

- إذاً ما الذي نفعله هنا ؟

- نؤدي عملا ونتقاضى أتعابنا .

كانت ليلة مرهقة وطويلة ، وبرغم ذلك كان هناك ضيوف «مهمون» دعاهم عبد الله لقضاء «بقية» الأمسية في بيته . عندما

أعلن جون إسلامه لكي يستكمل إجراءات زواجه وإقامته في قطر أراد أن يدهش نفسه بتصرف نبيل كأن يمتنع عن احتساء الكحول في بلد هدى وأمام جماعتها ، ولكنه يجد ذلك الآن صعباً في وجود مسلمين يكرعون الكؤوس - من بار عبد الله الخاص - فلم يرد أن يرفض أنخابهم ، فذلك تصرف ينم عن فظاظة وقلة ذوق .

وقف جون على مقربة دون أن يشترك في الحديث

قال أحدهم وكان يلبس اللباس المحلي :

- لا توجد في هذا البلد برجوازية جسورة ؛ لأنه مجتمع محكوم بتراتبية مطلقة . . إننا نقول بالعربية الدنيا أرزاق!

قال أحد الغربيين :

- الشعار الحالي هو افتح أبوابك واشتبك أكثر بالاقتصاد العالمي!

فقال القطري :

- نعم سقطت السيادة الوطنية كورقة التوت . لم يبق الا أن نقول تعالوا واستعمرونا مجددا .

ربما كان ذلك حديث الويسكي فقط .

عندئذ رفع عبد الله كأسه قائلا : لنشرب نخب هذا البلد الجميل .

لم تصل إلى مسامع هدى أبدا أية إشاعات مغرضة بشأن علاقة زوجها بتوتشي صاحب الإسورة والقلائد النحاسية ، الذي ظهر فجأة وبلا مقدمات في حياتهما ، وذلك بفضل إحكام العلاقات الاجتماعية التي تربط المعارف في الغربة ، ولكن هدى

ضاقت بمرور الوقت بغياب جون وإهماله لعمله .

يبدو فيدور شاوتسكي أصغر من عمره بعشر سنوات على الأقل ، وجه أملس به عينان عسليتان ، وفم صغير يتحرك بتؤدة كأنما لا يبالي بحركة العالم وضجيجه من حوله ، يتدفق في الحديث ما دام الحديث لا يخص أموره الشخصية! يدعوه أصدقاؤه «توتشي» ، ولديه أصدقاء في كل مكان تقريبا ؛ أشخاص يعتنون بتسهيل أموره ويعتني هو بتسهيل أمورهم بالقدر نفسه كذلك .

تجادل جون وهدى عدة مرات بشأن توتشي حتى طرقت هدى الباب ذات يوم على شقة توتشي ، هل كانت تقوم بزيارة تفقدية فحسب؟ شعرت بأن صداقة ذلك الرجل لزوجها يكتنفها الغموض والريبة ، وأدركت بحدسها أنها ستكون الخاسرة لو تناطحت معه رأساً برأس .

قررت هدى بشجاعة أن تنحي الغيرة جانبا ، وأن تلعق جراح كرامتها . يحق لها أن تقاتل لاستعادة جون فهي لن تنكسر في أول تحدٍ! وأمام رجل يدعى توتشي! وإذا كان لابد من انفصالها عن جون يوما ما ، فلسوف تؤخر ذلك لأطول مدة ممكنة لكي تستنفد جميع الوسائل .

انشغلت هدى في الفترة الأخيرة بتأسيس المركز وتوطيد أذرعه في البلد ، وكان عليها تلبية العديد من الدعوات ؛ وقد تكون أهملت ملاحظة حالة جون منذ أن وصلا قطر! بيد أنها مقتنعة بأن هناك أساساً قوياً لارتباطهما ، ولكن يجب ألا تعول على التلقائية والثقة المتبادلة كثيرا . تدرك هدى من خبرة سابقة بأن إقحام نفسها

في عالم جون وفضائه الخاص يسبب له الارتباك ويدفعه إلى الهرب! كان لابد أن تقترب منه عن بعد وألا تتخطى حدود عزلته الداخلية .

قام هدى وعبد الله بزيارة لاحقة إلى شقة توتشي ، في وقت ما ، واستطاعت هدى أن تلمح لتوتشي بأن وجوده قرب زوجها يقوض استقرارها الزوجي ، ولكن كان عبد الله تحديدا هو من أقنع توتشي بالرحيل .

لم يحتج جون أن يفهم أن هدى وراء رحيل توتشي ؛ وقد اتضح لجون بصورة قاطعة بأن توتشي كان أقدر الناس على منحه الحب اللانهائي .

ولو كانت هدى تحبه حقا لما سعت إلى إبعاد الشخص الوحيد الذي كان «يهتم» بأمره . يظن جون بأن توتشي رحل من أجله . أراد أن يصدق بأن ثمة من «يؤمن» به ولم يخطر على باله أن توتشي قد يكون مرتبطاً بمصالح وفرص جديدة يخشى أن يخسرها فيما لو أثار حنق عبد الله ، في مكان يقدس «العلاقات» الجيدة وتسهيلاتها! فضلا عن رغبة توتشي في معاقبة جون على كل ذلك الخذلان والإهمال والإذلال الذي لحقه من علاقته بجون!

مرت الشهور بطيئة مملة ، وتوقف جون عن الكتابة ، وكان ذلك نذيراً واضحاً!

غالبا ما يتعرض أصحاب المدركات القوية لحساسية مفرطة تجاه الوقائع ؛ لأن لديهم اقتناع كامل بنتائج تحليلاتهم وسلامتها حتى إنهم لا يكادون يناقشونها مع الآخرين! إنهم في الواقع يرون

أنفسهم فوق قيود الحياة وقوالبها ومقتضياتها أحيانا!

يؤمنون بأن نظرتهم إلى الأمور فاحصة وخالصة ، وأن أغلب الناس لا يشاطرونهم النظر من منظور تأملي ومتجرد من عوالق التحيز العرقية والثقافية الإقليمية .

بدأ جون يشعر بأن أساس علاقته بهدى هو التنازل! وأنه كان أكبر الخاسرين لطالما أعطى جون الآخرين ما يود التخلص منه! ولكنه الآن أصبح أكثر حساسية وضيقا من أي وقت مضى بما يجري من حوله! لم يعد القرار يعود إليه ؛ في شؤون المركز ولا في أسلوب حياته في هذا البلد ، ولا حتى في علاقاته مع الناس من حوله . لم يعد هناك مجال للاختيار . يفرض عليه قسراً أن يتعرف ويخالط ويجاور ويتعامل مع من هم حوله ؛ لأنهم جيرانه وزملاؤه وعلاقات ضرورية للعمل! لكنهم يخنقونه!

قال له توتشي مرة : يقودني هذا المكان إلى الجنون! سحقا لهؤلاء الناس!!

سرعان ما يدخل جون في مناقشات شائكة عقيم حول الدين مع بعض الأشخاص الذين يلتقي بهم في النادي الأوروبي ؛ أو بعض الاستقبالات والرحلات الخلوية التي تنظمها لجنة من بعض المقيمين الغربيين الأقدم عهداً بالمكان ، ووجد نفسه يكف عن تلك الملاحاة والمماراة بعد وقت قصير . لم يكن الجانب الديني ما يثير اهتمامه وقلقه ، ومن هنا فقد أثار استياءه أن يتهم بالهذيان الصوفي بعد مرور أشهر فقط من اختلاطه بتلك الأوساط غير المتجانسة من غربيين وأستراليين وأمريكان وآسيويين! بدا ذلك (الخليط) الذي

وجد جون نفسه محاطا به مفرغا من أي معنى أو حتى أهمية . تدهور مزاج جون بمرور الوقت . وكان قد قرر أن يمضي في رحلات استكشافية في الصحراء بمعية مترجمين من بعض الشباب الذين تعرف إليهم من خلال بعض المحاضرات في المدينة التعليمية . وكان يعود منها مشحونا بالأفكار والمشاعر متفكراً ، ويكتب ملاحظاته بصورة محمومة ، وكأن وجوده في تلك الصحراء بين أولئك الاعراب ومراقبتهم (وهم يتحدثون ويؤدون الصلاة ويعملون ويأكلون) يمثل «مهمة تاريخية» أسندت إليه!

وجه جون أسئلة كثيرة لأولئك العرب الذين التقى بهم في تجواله! وكانوا ينظرون اليه بشك كبير واستغراب ، ويجيبون عن اسئلته باقتضاب وبغير جدية ، ولكن المترجم المحرج كان يسد الثغرات بما لديه من معلومات أو توقعات! حكوا له عن أمور في حياتهم بطريقة مسطحة أو مبهمة! فلم يستطع أكثرهم أن يعرف لماذا عليه أن يكون صادقا وواضحا مع هذا «الأجنبي» ، أما جون فقد أشعرته تلك «التجربة» الروحانية الفكرية بأنه منغمس في قلب الصراع الأقدم في الحياة ، بين الإنسان والإله .

تحول جون إلى مفتتن ومولع بالصحراء ذاتها! عندما اطلع بصورة مباشرة على بساطة الحياة ووجود الإنسان الهامشي في قارب بلا دفة وسط أمواج متلاطمة! وأخذ يتفكر في تشبث الإنسان العربي بوضعه التافه وحجمه الصغير وسط صحراء شاسعة ليس فيها الفرد أهم من حبة رمل تحملها الرياح وتسفها على تلال من الحبات اللامتناهية ، والقابلة للتنقل بحسب اتجاهات الرياح وتغيرات

الطقس . لا يبحث العربي عن التشابه مع الله كما قد يتصور جون ، ولا يسعى إلى التقابل مع صورة الله ، بل إن العربي يقر بصورة لا متناهية بخضوعه لفكرة الأكبر والأعظم وغير المدرَك .

ماذا كان جون يفعل في الصحراء ؟ علام يبحث شخص بموقف عدمي ذي سمة إنكارية عند أشخاص يقفون على الجانب الأقصى من موقفه وتفكيره . . ومصيره .

لم يظن جون

لم يدر بخلده أنه سيموت بضربة شمس في سماء الدوحة ، في بلد صغير مجهول يقع بصمت ، على خريطة العالم المأهول . دفنته زوجته هدى في مقبرة للمسلمين ؛ لأنها لم تتلق رداً من أبيه في جنوب أفريقيا بشأن أي رغبة في ارسال جثمانه إلى هناك! عدّ جون نفسه على كل حال من أهل الليمبو ولم يكن منتميا!

وتزوجت هدى بعد عامين من وفاته بمصرفي نرويجي من أصل عربي ، التقته في رحلة ترفيهية في أحد دحول قطر .

كانت غلطة جون - بحسب الشهود - أنه استجاب لإغراء البقاء في المكان ، برغم تواتر الأنباء باندلاع الشغب في ثكنات الإقامة للعمال الآسيويين في(رأس غاز) ، انتشرت شرارة الإضراب في كل المعسكرات ، ثم استطارت شغباً وتخريباً على إثر شجار بين جنسيتين آسيويتين ؛ تدافع العمال الغاضبون إلى خارج ثكنات الإقامة وقاموا بتخريب كل ما صادفوه أمامهم!

لم تبلغ السلطات المحلية بوجود جثة إلا بعد مرور ساعات طويلة ؛ لأنها كانت مشغولة باحتواء الشغب وإخماده .

كان جون وقتها نافقاً ومنتفخاً ومتفسخاً بصورة غريبة ، حتى الهوام واللواحم الصحراوية لم تقربه عندما وجدوه ملقى وجهه ، على قارعة الطريق المؤدي إلى الدوحة ، وسيارته على بعد كيلومتر منه ، وقد تعرضت للتحطيم والقلب رأسا على عقب! .

تأبين صغير

لم يكن جون سائحاً أو مستثمراً أو نهازاً للفرص! لم يكن شخصاً غربياً جاء ليجمع ما يمكّنه من توفير حياة تقاعد رغدة أو حتى كريمة . أراد جون أن يبني مؤسسة تقدم خبرة متخصصة ، وترعى الشؤون البحثية ، لا في جوانب دراسات الجدوى والمشاريع الاستثمارية (كما أصبح الحال عليه) بل بالدرجة الأولى لمشاريع بنيوية ذات طابع معرفي وثقافي . أراد جون التعاون والتواصل مع المؤسسات التعليمية ومراكز التدريب والمعاهد التأسيسية ، ثم ينتقل إلى مستوى أعلى ، ولكن أربكته المستجدات الدخيلة التي حرفت المؤسسة عن إطارها العام . أقنعته هدى بالحاجة (الملحة) إلى دخول الشريك الثالث عبد الله ، والذي كان من المفترض أن يتولى الجوانب التمويلية ، والجوانب اللوجستية (العلاقات العامة وأمور الدعاية والترويج والتسويق ، وتأسيس شبكة العلاقات المساندة ، وتحديد مصادر المعلومات وتكثيف التعاون عن طريق الشراكات مع كبريات المؤسسات الخاصة والمختلطة) .

يدرك جون بأن الجانب البحثي اليوم يستمد الحياة من الحبل السري للعلاقة مع التمويل والدعم الخارجي! أدرك ذلك إلا أنه لم

يستطع قبوله حقا والتواءم مع شروطه! لا وجود لاستقلالية البحث ولا لموضوعية الباحث، بعيداً عن مصادر تمويله وأغراضها وتوجيهاتها! تحدد رؤوس الأموال تطور العلوم وترفدها بالغايات والأسباب، وتوجه مساراتها بصورة كلية .

شعر جون بأنه عديم الفائدة! وكان فاشلاً بصورة تامة، لكنه لم يكن مزيفاً، وكان بإمكانه أن يغنم الكثير من استغلال موقعه وعلاقاته وامتيازات مركز الدراسات، لكنه لم يبلغ مرحلة الرضا والقناعة بحياته تلك . أراد الهروب من المصيدة - الليمبو، وأرسل كل دفاتره وأوراقه إلى توتشي، وربما كان سيلحق بها ولكنه تلكأ وتباطأ ولم يستطع أن يحزم أمره .

(كانت هناك أحقاب طويلة لم يكن الفن فيها يبحث عن الجديد ، وانما كان فخوراً بأن يجعل التكرار جميلاً ويقوي التقليد ، ويضمن استقرار حياة جماعية) .

ميلان كونديرا في (الستار)

إننا نربط حياتنا بأشخاص وبأحداث معينة وبآمال ، لكي تبرهن بتحققها على نجاحنا أو بأننا جديرون بالنجاح ، وبأننا غير عاديين! إننا نريد أن نؤمن بأنفسنا من خلال إيمان جمهورنا الصغير بنا (سواء أكانوا أصدقاء أم أحباباً أم أبناء) ، ولكي نحصل على ذلك الإيمان لابد أن ندفع مقابله ؛ الطاعة والتملق ، وأحيانا ندفع حياتنا مقابل أن يؤمن بنا الآخرون . تنتمي الدكتورة منيرة ويوسف إلى المرحلة ذاتها ؛ المرحلة التي يشعر أفرادها بالنقص فضلاً عن الخيبة والخذلان والخيانة ، والرغبة في التعويض ، ربما كانت الدكتورة منيرة أكثر إدراكاً وحساسية لحزنها وإحباطها ؛ وقد استرعى انتباهها ووعيها ، منذ البداية ، أنها تجر جراً إلى الدوامة . . وتستسلم لها!

إنها لمحنة كبرى أن يشعر المرء بأنه مغموط الحق ، بالرغم من

جدارته (ليس لأنه أفضل ممن حوله بل لأنهم في الواقع أسوأ منه)، أن غياب الفرص وليس غياب الدوافع هو ما يخنق الشجاعة وينتزع مخالب المرء وقوته، في ثقافة تنزع إلى التوريث والتراتبية والتأبيد وتكرير الانماط من دون أن تفسح مجالا للتنافس والصراع والتفاعل.

من الصعب أن نقطع بأن الدكتورة منيرة تحمل تصوراً معيناً عن نفسها، لقد أرادت أن تعيش حلم الحب المستحيل (واختارته عمداً ولم تقع فيه عنوة)، أرادت أن تعيش حياة بديلة عن حياتها ومسؤولياتها، وأن تكون شخصا آخر لا تكاد تعرف من هو! لا تنظر منيرة إلى الوراء! لا تبحث في ذاكرتها كثيرا! ولا تلح في استرجاع بعض الأحداث؛ فهل يعد ذلك تسامحا منها أم نوعا من الإلغاء؟

لا تحب منيرة نفسها، ولا تحب طفولتها، ولا تحب حياتها، وتبحث عن تجدد غير متقن! لم تلق بالاً للحاضر ولا لظروف واقعها ولا تحولات أبنائها!

يقال بأن الذين يهتمون بالحاضر يثقون بقدرتهم جزئيا على التحكم في مستقبلهم.

ما هي حياتها؟

رتابة مضنية! لقد ركنت إلى التقاعد ولم تعد تميل إلى متابعة أبحاثها المتعثرة.

لم يكن في حياتها أمر استثنائي غير يوسف. وقد تركها يوسف! (رفضها) ورحل.

كانت مثالية الحب ستاراً يتوارى وراءه ركام حياتها! أما سرية

الحب فكانت إكليلاً على مذبح حياتها . إنه تطلع . . بلا أمل! إنه موقف يشبه العقوبة النهائية . . والأبدية! ربما كان أهل الاعراف أنفسهم يخشون الاختيار ويؤجلونه! تعرف الدكتورة منيرة بأنها تعيش (حالة) الأعراف منذ وعت الدنيا!!

إنها الآن في مرحلة الاسترخاء في خانة الأمن والاستسلام! لم تعد تخشى الماضي ولا تتوقع مستقبلا! الماضي مضى والحاضر واه ومكرور!

آه من سحر التكرار!

النقيض يتعايش مع نقيضه! يصبح المتكرر وحدات مصفوفة ، وبقدر ما هنالك من خيبات ، ثمة صفاء واستسلام!

التكرار نمط مستمر أبدي ، وحشيٌّ وهزليٌ إلى حد ما

التكرار لا يلد شيئا آخر! ولا تنجم عنه مواجهة أو تصعيد! لا يتوقع بعده انحراف أو تغيير أو . . نهاية!!

THE PETITION

رواية
NOVEL



العريضة

◆ هل بإمكان حادث طارئ وعابر أن يجرّدها من حياتها؟ قد لا ترتبط وقائع بعينها بالأفكار المجرّدة في رؤوسنا، ولكنّنا نعيش الاثنين معًا. نستمرّ في حياتنا الميكانيكيّة، ونحتفظ بأفكارنا برغم كلّ تجاربنا كما لو كان ذلك أمرًا مستقلاً وغير مرتبط بما يحدث في داخلنا؛ كما لو كانت هناك أقنعة، وبمشيئة ثابتة وغير عابئة تقريبًا بالعواقب البعيدة، نواصل الإشاحة بوجوهنا عن كلّ تلك الإشكاليّات الّتي لا تلزمنا نتائجها. يبدو ذلك الأمر خلوًا من كلّ منطق! بيد أنه «موقف» كثير من البشر في محيطنا، وتستمرّ حياتهم على ذلك المنوال منذ آلاف السنين. وعلى خلاف الأشخاص الّذين تكون حياتهم عادة نسخةً باهتةً من أفكارهم المعلنة، فإنّ عائشة تمتثل لفلسفتها امتثالاً تامًّا ومتطابقًا بالرغم من أنّ البعض قد يعتقد بأنّها قناعات جوفاء وأفكار مضحكة، ولا تكمن مأساتها ـ في هذه الحال ـ في تناقضها مع نفسها، ولكن في تناقض العالم معها.

◆




ISBN 978-9953-36-123-1
9 789953 361239